علي بن أبي طالب عليه السلام

رجل المعارضة والدولة

د. محسن باقر القزويني

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

www.haydarya.com

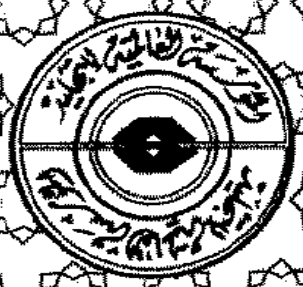

علي بن أبي طالب
رجل المعارضة و الدولة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة : حارة حريك ـ بئر العبد ـ شارع السيد عباس الموسوي ـ الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ ـ ٠٣/٤٧٣٩١٩ - ص.ب : ١٣/٦٠٨٠

المستودع: حارة حريك ـ بئر العبد ـ مقابل البنك اللبناني الفرنسي ـ تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠

E-mail : daraloloum@hotmail.com www.daraloloum.com

علي بن ابي طالب
رجل المعارضة والدولة

د. محسن باقر القزويني

مكتبة الروضة العباسية
الرقم ٢٠٦٣١
التاريخ

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

BL
27/25
1/28
39
.C1455

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

النجف الأشرف

مقدمة الطبعة الثانية

المعارضة وممارسة السلطة أصبحتا في أيامنا هذه وجهان لعملة واحدة، فالذي يُعارض اليوم يصبح حاكماً غداً، ثم ينزلق إلى المعارضة بمجرد خروجه من السلطة لأي سبب كان.

هذهِ هي بالدقة لعبة الديمقراطية اليوم. وهي لعبة خالية من اللون الرمادي فإما أن تكون في السلطة أو تعارضها.

وفي لعبة السلطة تسقط المعاني، فالذي يعارض لا يدري لماذا يعارض، والذي يحكم لا يدري لماذا يحكم، لأنه يعارض من أجل إسقاط خصمه، وإنه يحكم حتى يسد الطريق أمام الخصم. بهذا المنطق تحكم الشعوب اليوم مِن أرقاها في الحضارة وحتى أدناها من الشعوب المغمورة العائشة في مجاهيل أفريقيا.

أما منطق علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ولد واستشهد قبل أربعة عشرة قرناً فخلاف ذلك.

فقد خاض علي عليه السلام المهمتين خاض غمار المعارضة ومارس السلطة.

فكان رجل المعارضة الذي يعارض بمنطق الممارس للسلطة، ويقدّم النصح والمشورة، لتكريس العدل والحرية لكي تبقى السلطة في خدمة الناس حتى لو كان الحاكم شخصاً آخر.

وكان رجل الدولة أيضاً الذي يحكم بمنطق المعارضة، يعارض ولاته ويعارض شعبه عندما يريد الخروج عن المبادىء.

هذهِ هي فلسفة علي عليه السلام في السياسة:

معارضٌ يمارس السلطة.

وحاكم يمارس المعارضة.

كُلّ ذلك من أجل التغيير والبناء.

فالهدف واحد ومتغيرات الزمان والمكان لا تغيّر من مبادئه شيئاً.

هذا ما نجده وما نبحثه في هذهِ الدراسة التي تخرج للمرة الثانية بلباس آخر وفي فترة زمنية أخرى.

فقد مضى على الطبعة الأولى لهذا الكتاب ـ دولة الإمام علي ـ عقد من الزمان.

في وقته عالج الكتاب قضية مهمة هي تأصيل الدولة الإسلامية مِن خلال نموذج حكومة الإمام علي عليه السلام.

واليوم الكتاب نفسه وبدون تغيير وجدته يعالج قضية مهمة هي قضية الساعة وهي علاقة المعارضة بالسلطة، كيف نعارض وكيف نحكم؟ وما هو الخط الفاصل بين المعارض المخلص والحاكم الصادق فالإجابة على هذا السؤال هو مِن أهم قضايانا السياسية المعاصرة؟ فهل نجد في سيرة علي بن أبي طالب جواباً لهذا السؤال؟

الكتابة عن علي عليه السلام...

الكتابة عن علي بن أبي طالب عليه السلام من أشق الأعمال، لأنها نزال مرير مع أطنان من الروايات والأحاديث الموضوعة إما من المعادين أو المغالين، فكان لا بُدّ من أخذ العُدَة والحيطة في تفحّص ما تناقلته كُتب المؤرخين والمحدثين والمفسرين، الأمر الذي يتطلب من الكاتب جهداً ووقتاً وفيرين، ولا أُبالغ إن قلت إن الوقت والجهد الذين أخذَهُما مني هذا الكتاب يعادل أربعة كتب في مواضيع أخرى ولا أُريد بهذا القول أن أَمُنّ على أحد حتى على الإمام نفسه.

فكل ما كتبتُه وما كتبَتهُ الأقلام الخيرة عن عليّ عليه السلام لا يعادل موقفاً واحداً من مواقفه في خدمة الإسلام والبشرية.

فإذا كانت ضربة واحدة من علي في يوم الخندق هي أفضل من عبادة الثقلين، فما قيمة ما نكتبه قبالة موقف واحد وقفه في كنف الرسول صلى الله عليه وآله وفي ظل الرسالة.

لكن على رغم الصعاب التي يلاقيها الكاتب في دراسته أو كتابته عن أمير المؤمنين فإنه سيتذوق أحلى الساعات، وهو يُمضيها مع علي بن أبي طالب في سيرته الخالدة.

فلم تكن جولتي بين الكُتب القديمة البالية عبر السنوات الثلاثة إلاّ رحلة جميلة مع علي عليه السلام.

فقد أخذني عليٌّ معه في رحلتِهِ التي استمرت ثلاثة وستين عاماً.

أخذني معه يوم كان طفلاً يمضغ أصابع رسول الله، ويوم كان يافعاً يمشي خلف الرسالة والرسول يدافع عنها وعنه بيده ولسانه.

وأخذني عليٌّ معه يوم نطق بالشهادتين، ولم يكن قد قالها قبلُه أحد وأخذني معه حيث كان يقتفي أثر الرسول ﷺ كما يقتفي الفصيل أثر أُمه فمن مكة إلى المدينة، ومن بدرٍ إلى أُحد، ومن الخندق إلى فتح مكة، وأخذني معه إلى بيت ابن عمه، وهو في أشد الساعات حزناً، إذ كان يرمق معلمه ومربيه المُسجى على الأرض بنظراته الأخيرة. وحيث كان المسلمون يجتمعون في سقيفة بني ساعدة. يبايعون غيره.

وأخذني معه إلى بيت فاطمة، حيث كان يُصبِّرُ أبناءه، وهم يحومون حول أُمهم الزهراء التي ارتحلت إلى الآخرة وهي في ريعان شبابها.

أخذني إلى قلبه، وهو يعتصر على فقد الزهراء وعلى مواقف البعض، فكم كان قلبه كبيراً؟ عندما صمت على كل الذي جرى عليه وعلى عائلته وذلك رعاية للصالح العام.

هكذا عشتُ مع علي عليه السلام بين سطور هذا الكتاب..

هذا الكتاب الذي لم أكُن أُريده أن يكون سيرة لعلي عليه السلام، فما كُتب عنه يُغنيني عن كتابة سيرته بل كنت أبحثُ عن جانب من حياته لم تتسلط عليه الأضواء بصورة كافية، فوجدت أن البعد السياسي في حياته هو الجانب الذي أبحثُ عنه، فقد وصفوه بأنه لا علم له بالسياسة. ومازالت الأقلام حتى يومنا هذا تتحدى الحقيقة، وتحاول أن تتجرأ على الإمام بتلك الشبهة التأريخية التي ذكرها الإمام في إحدى خطبه.. حتى لقد قالت قريش أن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع، ولكن لا عِلمَ لهُ بالحرب.

وليس دفاعاً عن الإمام إذ الإمام ليس بحاجة إلى من يدافع عنه بل هو

إلفات نظر أولئك الذين تجنّوا على الحقيقة إذ أن سياسة الإمام كانت ممزوجة بالمبادىء.

وقد يبدو لهم في بعض مواقفه إنه ليس بسياسي محنك والسبب في ذلك كونه لا يعيش المواقف بموازين اللحظة، بل كان يقيسها بموازين الماضي والحاضر والمستقبل، كان يعيشها بموازين الحياتين الدنيا والآخرة.

وأولئك الذين انتقدوا علياً عليه السلام على سياسته هم أنفسهم يقرون أن السياسة تتحول إلى نخاسة عندما تتجرد عنها المبادىء والقيم.

وإذا كان عالمنا اليوم قد طحنته السياسات الدولية والشرقية والغربية وخدشت وجهه الحروب والصراعات والإنقلابات الدموية، فإنه لا منجا له إلاّ في (البحث عن طنٍ من الأخلاق ليُمزج به مثقالاً من السياسة حتى تستقيم الحياة..).

فبدون هذه المعادلة لا تعود المجتمعات البشرية إلى رشدها.

وليس هذا ضربٌ من الخيال.

فقد كان قبل خمسة عشر قرناً من الزمان هناك إنسانٌ يمزج طناً من الأخلاق بمثقال من السياسة.

وكان لهذا الإنسان فرصة معايشة كل الأدوار التي من الممكن أن يمر بها أي سياسيّ منا.

كان عضواً في حركة يقودها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان قائداً لحركة قواعدها سلمان والمقداد وعمار وابن التيهان وذو الشهادتين.

وكان يقود تيار المعارضة الإيجابية في فترة الخليفة عثمان، وكان على رأس دولة.. وعلى رأس قوة عسكرية خاضت حروباً طاحنة ضد الانحراف.

هذا هو عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام الذي نحاول أن نستجلي الجزء

النابض من حياة رجلٍ تصدى لكل عمل سياسي كان مطلوباً منه سواء كان خارج الحكم أو داخله.

إن هذه الأوراق مهما كانت مشحونة بالجهد العلمي لا تتمكن من أن تحيط بقضية إنسانية هي من أهم قضايانا المعاصرة وأكثرها تعقيداً، فالحديث عن السياسة وعن الحكم، والحديث عن القيم وعن المبادىء، والحديث عن عملية المزج بين تلك وهذه هو من أهم موضوعات عصرنا الحاضر.

وإيماناً منا بأنّ علياً عليه السلام هو أفضل من واجه هذه القضية وحدّد أبعادها ووضع لها معالجات عملية، فإننا سنتناوله تناولاً شاملاً من لحظة ولادته في الكعبة حتى ساعة شهادته في مسجد الكوفة لأن حياة العظماء مجموعة لحظات وكل لحظة من تلك اللحظات ساهمت في صنع العظمة.

لكن لا نُريد لهذه الدراسة أن تتحول إلى سيرة بل نُريد أن نقتطف من السيرة الجزء الذي يصنع الموقف.. موقفه في فترة الرسول صلى الله عليه وآله وموقفه في فترة الخلافة الراشدة، وموقفه في فترة خلافته.

لكن وكما ذكرت إنها ألذّ من الشهدِ لأنها حول علي بن أبي طالب.

د. محسن الموسوي

لبنان ـ بيروت

الفصل الأول

الاعداد للقيادة

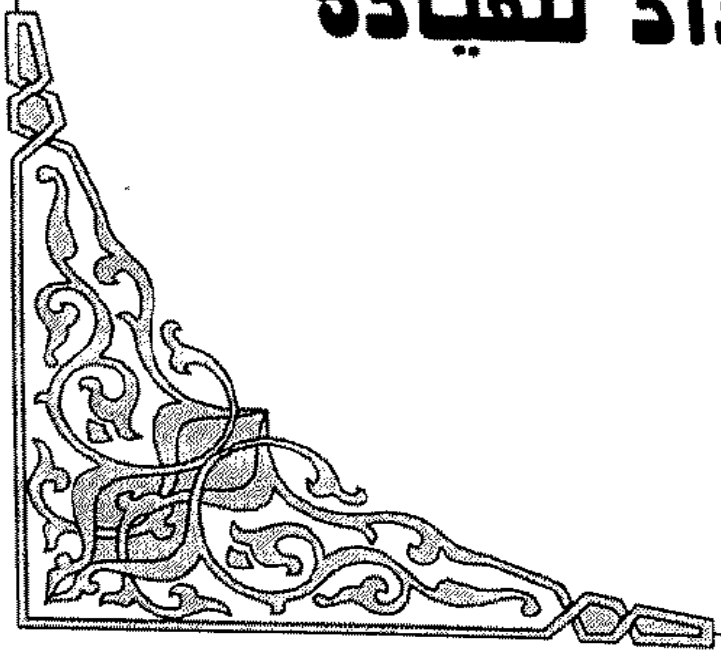

مهرجان الكعبة...

أخذت الشمس تجمع أشعتها لترمي بها خلف الأفق، وبدأ الظلام يتسلل قليلاً قليلاً حاملاً معه الرجال إلى البيوت، إلاّ أولئك الذين اعتادوا أن يقضوا الأمسيات في المسجد الحرام.

وبدأت العيون تتمايل تُريد أن تغفو لتستيقظ مع فجر يوم قادم..

خلدت البيوت إلى اليوم، إلاّ بيت أبي طالب فقد كان يقظاً، لأنه كان ينتظر حدثاً سعيداً في تلك الليلة.

وفي زاوية من البيت استلقت السيدة فاطمة بنت أسد تنتظر مولودها الجديد بقلق كبير، فكانت حواسها متوثبة لما سيحدث بعد ساعات، وقلبها يؤكد لها بأن هذه هي الليلة التي سيولد فيها مولودها.

شعورٌ غريب ينتابها، لم تلمسهُ من قبلُ قط.

فقبل عشر سنوات، ولد لها مولود سمتهُ جعفراً وقبله بعشر سنوات ولدت مولوداً آخر سمته عقيلاً وقبله بعشر سنوات ولدت مولودها الأول طالب[1].

وفي جميع تلك الحالات لم تشعر بشيء مهم يجري في حياتها إلا

---

(١) ابن عبد البر الإستيعاب في معرفة الأصحاب ج٣، ص١٠٩٠.

انها في هذه المرة تنتابها نفحات روحانية لذيذة الايقاع رخيمة الذبذبات.

فءن الزمن يمرُّ بطيئاً وكانت الهواجس تتسابق في القلب تنتظر اللحظة الحاسمة التي سترسو فيها، تلك اللحظة التي ستكون فيها الأم وجهاً لوجه مع مولودها الجديد، ستكون بعده أُماً لأربعة أولاد وبنتاً.

ويتحول الترقب عند فاطمة بنت أسد إلى نداء صارخ من الأعماق يُطالبها بالنهوض والحركة... فالليل طويل والانتظار مملٌّ والقمر مشرق.. هي ذي ليلة الثالث عشر من رجب فالدنيا مضيئة في هذه الليلة، ولا خوف عليك يا فاطمة من الظلام!!

لحظات حاسمة في حياتها، فأين تلتجىء وإلى من تتوجه ليسهّل أمرها؟

فأبو طالب لم يأت إلى البيت بعد، ولعله ما زال في المسجد الحرام..

إذاً لتذهب إلى هناك لعلها تجد مخرجاً وحلاً.

ويعلو صوت النداء من أعماق فاطمة.. فتتسارع لارتداء ملابسها وتخطو بأقدامها الثقيلة في البيت.. تخرج من الدار فينتصب أمامها منظر الكعبة وهي بأبهى صورة.. حيث تتكسر على أستارها أشعة القمر فترتدي حلة زاهية متوهجة في وسط ظلام الصحراء الدامس.. فتسربت الطمأنينة إلى أوصالها.. فوجدت في أقدامها القدرة الكافية للحركة فاتجهت بكل خشوع نحو المسجد الحرام تلتمس منه البركة لمولودها الجديد.

وكلما اقتربت من البيت ازدادت ارتياحاً، وغَلَبها شعور بالأمن وكأنها تسمع صوتاً من داخلها يقول لها.. لا خوف عليك يا فاطمة فمولودك سيكون في رعاية الخالق.

وعلى مسافة من الكعبة كان عددٌ من الرجال يتسامرون على عادتهم فيهم العباس بن عبد المطلب..

أخذت فاطمة تتفرس في الوجوه علّها تجد زوجها أبا طالب.. لكنها لم تجده فانقطع أملها.. فسلّمت أمرها إلى الله. ومالت إلى الجانب الآخر كي لا يشاهدها أحد، فجاءها الطلق، فرمت بنفسها على أستار الكعبة فرفعت صوتها.

يا رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رُسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل وأنه بنى البيت العتيق فبحق الذي بنى هذا البيت والمولود الذي في بطني إلاّ ما يسرت عليّ ولادتي[1].

فسهّل لها الله أمرها فوضعت مولودها في الكعبة[2].

وفتحت عينيها على وليدها، فلم تَر أحسن منه جمالاً وطهارة، فسمتهُ حيدرة.

وأسرع أبو طالب عندما بلغه الخبر، فوجد إلى جانب زوجته ولداً قد ملأ الفضاء بهاءً وجمالاً، فجذبته طلعته المشرقة. فسُرّ الزوج لفرح زوجته الوفية بالمولود الجديد، فأشارت إليه بفخر واعتزاز..

هو حيدرة... حيدرة.. على اسم أبيها.

لحظاتٌ من الانبهار استولت على الأب، وهو يرنو نحو ولده الذي أعلى شأن العائلة وأعلى شأن أبي طالب بولادته في هذا المكان المقدس الذي لم يلد فيه أحدٌ حتى الآن.

بل عليّ..

أجل عليّ.. عليّ من العلو..

عليّ.. صاحب تلك الطلعة الغراء..

عليّ.. يولد طاهرٌ مطهر دون كل أطفال الدنيا..

---

(١) المحقق الأردبيلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة ج١، ص٨٢.

(٢) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٣٥٨ كذلك الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٣٠.

عليّ أصبح يوم ولد في أقدس بقعة على وجه الأرض.

أجل عليٌّ..

أليس هو الإسم الذي يتطابق مع المُسمى.. يتطابق مع مسماه في لحظة الولادة، وفي كل لحظة من حياته التي امتدت على رقعة أضخم أحداث التاريخ..

وامتدت على رقعة السنين والأعوام ثلاثة وستون عاماً.

عليّ.. هو الإسم المناسب لعلي ذلك الذي ولد في الكعبة فأعلى مقامها.

عليّ الإسم المناسب لذلك المولود الذي أعلى مقام الإنسانية.

فكل شيء التصق بعلي أصبح عالياً في الشأن.

رفع اسم العائلة عالياً بكرمه وجوده و..

رفع اسم الإسلام عالياً بشجاعته وتضحياته.

رفع اسم البشرية عالياً، لأنها هدت إلى البشرية إنساناً أصبح امثولة في كل فضيلة ورفعة.

علي هو الإسم المناسب الذي اختاره والده بدلاً من حيدرة، وقيل أن رسول الله ﷺ هو الذي اختار له هذا الإسم.

اللقاء الأول

لم يفتح الوليد الصغير عينيه، إلاّ عندما أطلَّ عليه ابن عمه محمد ﷺ.

التقت العيون.. وانتقلت عبرها الإشارات والاحاسيس والمشاعر، فكانت بداية لعلاقة روحية لم تشهد البشرية لها مثيلاً، فالذي كان بين محمد وعلي لم يحصل بين إنسانين طيلة التأريخ.

قال سلمان المحمدي: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: كنتُ أنا وعلي نوراً بين يدي الله،وطيفاً يُسبّح الله ذلك النور ويُقدسه قبل أن يُخلق آدم بأربعة عشر ألف عام. فلما خلق الله آدم ركز ذلك النور في صلبه، فلم نزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب فجزءٌ أنا وجزء عليّ[1].

وتمرُّ العصور والدهور، تلتقي أجزاء النور في الثالث عشر من رجب بعد ثلاثين عاماً من عام الفيل.. في تلك اللحظات التأريخية تتحد المشاعر والأحاسيس، ويعود محمد وعلي روحاً واحدة في جسدين اثنين.

---

(١) أورده ابن عساكر في تأريخ دمشق ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ج١، ص١٣٧ عن سند صحيح ووثقه لسان الميزان ج٣، ص٢٢٩ وميزان الإعتدال ج١، ص٢٣ ورواه الإمام أحمد بن حنبل في الحديث ٢٥٢ من كتاب الفضائل ورواه الخوارزمي في الفصل ١٤ في المناقب ص٨٨.

فلو أدركنا هذه المقولة، وسبرنا غور مضامينها لاستطعنا أن نكتشف لغز العلاقة الحميمة التي كانت بين هذين الإنسانين منذُ اللقاء الأول وحتى اللقاء الأخير في الثامن والعشرين من صفر عام أحد عشر للهجرة.

فأول وجه تبصره عينا عليّ هو وجه ابن عمه محمد ﷺ.

وآخر وجه تبصره عينا محمد ﷺ هو وجه ابن عمه علي عليه السلام «كما أورده الحاكم في المستدرك وصححه بسنده عن أحمد بن حنبل عن أُم سلمة».

فكان الإثنان جزأين لقطعة واحدة.. أحدهما يكمّل الآخر.

فعليّ نفس محمد بصريح الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...﴾.

وهو منه كهارون من موسى إلاّ أنه لا نبي من بعده.

وهو أخاه يوم آخى بين المسلمين في المدينة.

وهو زوج ابنته، عزيزته فاطمة سيدة نساء العالمين.

وعندما سُئل النبي، أنك تُحبُ علياً

قال: أوما علمت أن علياً مني وأنا منه.

وفي معركة أحد أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي إحمل عليهم، فَفَرَّق جمعهم، ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة أخرى من مشركي قريش فقال لعلي أحمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم، فقال جبرئيل: يا رسول الله إن هذه المواساة، فقال رسول الله ﷺ إنه مني وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما[1].

وعندما نزلت سورة براءة بعث الرسول أبا بكر ليقرأها على المشركين ثم بعث علياً خلفه فأخذها منه، فعاد أبو بكر، وقال يا رسول الله: أنَزَل فيَّ

---

(١) ذكره الطبري في تاريخه ج٢، ص١٩٧ وابن عساكر في ج١، ص١٢٨ ترجمة الإمام علي بن أبي طالب.

شيء، قال لا، ولكن لا يبلغ عني إلا أنا أو رجلٌ مني[1].

فعليٌّ جزءق من محمد.

فهو الذي سكب فيه معاني البطولة والإيمان، والتضحية، فأصبح رجلاً منه.

وهو نفسه الكريمة يرسله لأداء المهام الكبرى ممثلاً عن شخصه الكريمة ولا يعرف التأريخ الإسلامي شخصٌ اعتمد عليه رسول الله ﷺ في شئون الدعوة الإسلامية كعلي بن أبي طالب.

أنبأت الظروف التي ولد فيها الإمام علي بن أبي طالب، إنه سيكون لهذا المولود شأن عظيم في المستقبل، فهو ليس كبقية الأطفال الذين يولدون في زوايا البيوت، ولا كبقية الأطفال الذين تشير ملامح وجوههم أنهم ليسوا بأكثر من أطفال عاديين يأتون إلى هذه الدنيا ويرحلون عنها، ثم يطويهم الزمن، فمولود بيت أبي طالب من نمط آخر، فكل الدلائل كانت تؤكد للعائلة بأنه سيكون رجلاً عظيماً، فهو إذن يستحق الرعاية والاهتمام.

تلقفه رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاثين عاماً وتكفّل رعايته.

فكان يلي تربيته، ويُظهره في وقت غسله، ويُوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها واوديتها وفجاجها[2].

وهو تمام ما يفعله الأخ الأكبر بأخيه الصغير، لكن ما بين محمد وعلي عليهما أفضل الصلاة والسلام كان أكثر من علاقة النسب العائلي، فرسول الله ﷺ كان يعلم ماذا يفعل، فهو كان يعدُّ الإمام علي عليه السلام إعداداً كاملاً للمستقبل، فقد أورد الأردبيلي في كشف الغمة، إن النبي ﷺ كان يناغي

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التأريخ ج٢، ص٢٩١ وذكره ابن عساكر في تأريخ دمشق ج١، ص١٨٩ من طرق عديدة في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب.

(٢) الأربلي، كشف الغمة ج١، ص٨٤ وأورده السيد الأمين في أعيان الشيعة ج١، ص٣٧٢.

علياً عليه السلام في يقظته ويحملُه على صدره ورقبته ويقول: هذا أخي ووليي وناصري وصفيّي، وذخري وكهفي وصهري ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي[1].

فإن صحت هذه الرواية ـ وهي صحيحة ـ فإن ذلك سيعني أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعمل على بناء شخصية الإمام علي عليه السلام، لتصبح قادرة على تحمّل المهام التي ستوكل إليه في المستقبل فبدأ بالإمام، وهو طفلٌ صغير، والطفولة خير وعاء، فسكب رسول الله صلى الله عليه وآله فيه من فضائله وعلمه وحكمته حتى امتلأ الوعاء مع مرور السنين والأعوام.

وأما أبو طالب فكان لا يقل عن رسول الله، رعاية لابنه عليّ لاسيما وأنه لاحظ علامات النبوغ ظاهرة عليه منذُ لحظة الولادة، فتلقفه في أحضان دافئة وأخذ ينمي عنده القدرة الجسمانية، ويشجعه على مصارعة أخوته، وهم أكبرُ منه فكان يتقدم برباطة جأش ويطرحهم أرضاً وهم أكبر منه سناً وأضخم منه جسداً.

وبعد ستة سنوات من ولادته هبت على جزيرة العرب رياح المجاعة، وكان أبو طالب مثقلاً بمسؤوليات الحياة فهو كثير العيال قليل المال، فانتهزها رسول الله صلى الله عليه وآله فرصة نادرة كان ينتظرها طويلاً فهذه اللحظة التي ستحقق له أمنيته في احتضان علي عليه السلام ليرد الجميل على العائلة الكريمة التي ربَّتهُ فأحسنت تربيته، وضحت من أجله وآثرته على أولادها.

فها قد سنحت الفرصة.. تقدم رسول الله إلى أعمامه حمزة والعباس وقال لهما: ألا نحمل ثِقل أبي طالب في هذا المحل، فجاؤوا إلى أبي طالب وأبلغوه ما اتفقوا عليه، فقال لهم دعوا لي عقيلاً وخذوا مَن شئتم، لأنه كان ضعيف البنية، فأخذ العباس طالباً وحمزة وجعفراً وأخذ هو علياً ونقل

---

(١) الاربلي كشف الغمة ج١، ص٨٤.

عنه ﷺ أنه قال: لقد اخترت من اختاره لي الله.

وفي بيت رسول الله ﷺ بدأ عليٌّ عليه السلام مرحلة جديدة من حياته فانفصاله عن الأب والأم وعن الأخوة وانضوائه في كنف إبن عمه وهو في السادسة، مهد السبيل إلى اتصاله المباشر بالنبع الأصيل الذي تولّى تعليمه وتهذيبه.

فقد توجهت مشاعر الأبوّة، ومنذ صغره نحو ابن عمه الذي كان بمثابة الأب والأخ الأكبر والمعلم.

ولرب متسائل... ما الذي يعرفه رجلٌ أُميّ كمحمد ﷺ قبل نبوته حتى يُعلِّمه شخصاً آخر؟.

لا يغيب عمن يضع علامة الاستفهام هذه أن صفاء الفكر ونقاء القلب وطهارة الروح تُمكِّن الإنسان من التعرف على حقائق الحياة بصدقٍ وواقعية وتدله على قوانين الطبيعة والحياة والكون.

ولعل رجلاً أُمياً أقدر على إدراك حقائق الحياة وزواياها وألغازها من رجلٍ عالم غاطسٍ في بحر العلم.

فما كان يملكه رسول الله ﷺ من عقل وقّاد، وصفاء القلب، وشفافية النفس، وما كانت تشتمله من رعاية ربانية منذ صغره فَتَحَ أمامه أبواب العلم وهو رجلٌ أُميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة. فكانت حياته المستقيمة ﷺ قبل البعثة في ذلك الظلام الدامس الذي كان يُخيّم على جزيرة العرب دليلاً على سلامة فكره ووضوح الحقائق أمام ناظريه، ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع الجاهلي وهو يغطُّ في نوم عميق من التخلف والانحراف وانهيار القيم، كان رسول الله ﷺ يعبُد الله ويوحده ويتمسك بالقيم الإنسانية، ويتحلى بالقيم والفضائل حتى مُيّز بين الملايين من الرجال بالأمين، وهو دلالة على استقامة رسول الله ﷺ قبل البعثة وتطابق حياته مع معايير الحق.

وبحجم تطابق سلوكه مع الحق تتراءى له الحقائق وتتكشف الغوامض.

كان رسول الله ﷺ أفضل من يستطيع رسم طريق الحياة للآخرين، فكان أفضل مُعلِّم للأجيال، وكان علي عليه السلام أفضل تلميذ لذلك المعلم أخذ منه العقيدة الشفافة بالله الواحد، وأخذ منه العلم، فكان رسول الله ﷺ مدينة العلم وكان عليٌّ بابها.

وجاء في التأريخ أن علياً كان ملازماً لابن عمه، وكيف لا يكون ذلك وهما يعيشان تحت سقف واحد يجمع بينهما الحب والآمال الكبيرة.

قال ابن حجر في الإصابة:

فرُبِّي (أي علي) في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلاّ غزوة تبوك[1].

وعندما كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء، كان يصطحب معه علي بن أبي طالب عليه السلام ليعمِّق فيه الوحدانية ويفتح أمامه الطريق إلى الله، خالق هذا الكون وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج.

قد ورد في الكتب الصحاح، أن النبي ﷺ كان يجاور لي حراء في كل سنة شهراً حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة فجاور في حراء شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلي بن أبي طالب وخادم لهم.

وكان علي عليه السلام يفتخر بهذه القربة إلى رسول الله ﷺ فيقول:

تعلمون موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرقه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلاً في فعل، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بهذا الاقتداء.

---

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، المجلد ٢ الصفحة ٢٦٩.

فعليّ عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله ليس كباقي الأقرباء، فهو قريبه، لكن القريب القريب الذي لا يفصله عنه شيء، فكان يضمه إلى صدره ويكنفه في فراشه، ويمسُّه في جسده، ويشُمه في عرقه، هكذا تضمحل المسافات بينهما، فيصبح ابن أبي طالب لصيقاً روحاً وجسداً مع ابن عمه.

فكان يتبعه اتباع الفصيل إثر أُمه.

ما أروعه من وصف يُقرب معنى الملازمة الدائمة التي كانت بين علي عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله لم تكن متابعة جسد لجسد فقط. بل كانت متابعة الجسد والروح.

متابعة في العلم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرفع لعلي في كل يوم من أخلاقه علماً، فمن خلال المتابعة كان علي عليه السلام يكتشف كل يوم خصلة جديدة من الأخلاق الفاضلة، فيأمره أن يقتدي به لتنتقل هذه الفضائل إليه، ولتصبح جزءاً من شخصيته، وهكذا تربى علي في حجر إبن عمه صلى الله عليه وآله تحوطه رعاية من السماء كما أحاطت بمحمد صلى الله عليه وآله يوم افتقد لرحمة الأبوَّة وعاطفة الأمومة، وتقطعت خطوط التأثير المباشر في شخصيته، فتلقفته أحضان السماء وأمطرت عليه الرحمة والعطف حتى نشأ وترعرع فكان رسولاً نبياً.

وهكذا كان حال ابن أبي طالب عليه السلام، فقد انفصل عن خطوط التأثير الطبيعية، الأب، الأم، الأخوة الذين يكبرونه في السن واحتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في مرحلة من العمر تأخذ فيه شخصية الطفل بالتشكل.. فقد أُلغيت المؤثرات الخارجية، وتركت مكانها لمؤثر واحد، هو رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن هنا جاءت عناصر القوة التي سنتطرق إليها في شخصية الإمام علي عليه السلام.

فكان كرسول الله صلى الله عليه وآله في كل موقف، وفي كل حديث، فلا نبالغ عندما نقول:

لو وضعنا رسول الله ﷺ في كل موقف وقفه الإمام علي عليه السلام طيلة حياته السياسية والاجتماعية في فترة حكمه التي دامت أربع سنوات وثمانية أشهر، لكان قد اتخذ نفس الموقف، فلنتصور رسول الله ﷺ في كل محطة من محطات حياة أمير المؤمنين اللاهبة بالأحداث.

عندما نتصور علياً عليه السلام بهذه الكيفية نستطيع أن ندركه إدراكاً سليماً.. وهناك فقط سنفهم الغرض الذي قصده رسول الله عندما قال عن علي هو مني وأنا منه.

فعليّ كان امتداداً طبيعياً لشخص رسول الله ﷺ ولقيم رسول الله ﷺ ومواقف رسول الله ﷺ.

هكذا نستطيع أن ندرس علي بن أبي طالب عليه السلام ونحيط بأسلوبه الفريد في الحكم والإدارة. فهو لم يكن مَلِكاً ليسلك طريق الملوك في الحُكم.

ولم يكن إماماً لهذه السنوات الأربع وحسب، فلو كان تفكيره قد انحصر في إطار فترة حكمه لفعل الكثير مما لم يفعل ولترك الكثير مما فعله.

لكنَّ علياً عليه السلام الإمتداد الطبيعي لرسول الله ﷺ، كان حريصاً على الإسلام الذي غرس هو وابن عمه بذوره الأُولى وبذل كل شيء من أجل أن ينبت هذا الزرع، ويصبح وارف الظلال، فهو لا ينسى مبيته في ليلة الهجرة وتعرضه للموت عن اختيار.

وهو لا ينسى موقفه في بدر ولا ينسى وقفته في أُحد عندما اندحر جيش المسلمين وعندما حوصر رسول الله ﷺ وكاد يُقتل لولا مشيئة الله.

وهو لا ينسى أيضاً وقفته المملوءة بالمخاطر أمام عمرو بن ود العامري في الخندق وهو لا ينسى كل تلك المواقف التي وقفها في الحرب والسلم في مكة والمدينة، والتي كانت الطريق إلى انتصار الإسلام، فكان همه

الأول هو الإسلام، كيف السبيل إلى انتشاره؟ وكيف يبقى قوياً مدى الدهر؟

ومن أجل هذا الهدف تنازل الإمام علي عليه السلام عن كل ما يرتبط بشخصه أو بعائلته الكريمة، وكاد يتنازل حتى عن دمه عندما ضربه عبد الرحمن بن ملجم..

التفت إلى أهل بيته وهو في حالة الاحتضار يوصي بقاتله..

أحسنوا نُزله، وأكرموا مثواه فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصاً، أو عفواً، وإن أمُت فالحقوه بي، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بي سواه أن الله لا يحبُ المعتدين فأية عظمة ترسمها تلك الكلمات التي لا نجد في التأريخ بطوله وعرضه موقفاً شبيهاً بهذا الموقف، فهو لم يكتف بهذا القدر من الإحسان إلى قاتله.. بل يطلبُ منهم في حديث آخر له أن يطعموه مما يطعمونه وأنْ لا يُمثّل بالرجل.

هكذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام مركزاً للفضائل والقيم، ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى العناية الإلهية بهذا الرجل منذ ولادته في الكعبة وحتى استشهاده في محراب مسجد الكوفة، وإلى تلك الرعاية التي حظي بها في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد وضع رسول الله في السنوات الأولى من طفولة الإمام علي عليه السلام حجر الأساس لشخصية إنسانٍ أُعدَ لتحمُّل مسؤوليات جسام في حياته هي في التأريخ من أعظم الفترات سخونةً بالأحداث والمؤامرات والتيارات والمواقف السياسية.

الساعد الأيمن لرسول الله ﷺ

انقشعت شمس الرسالات عن جزيرة العرب فترة من الزمن، فأمست سمائها معتمة بغيوم الجهل والخرافة.

فكان في مقابل إله واحد، هنالك آلهة متعددة.. هنالك مَن عَبَدَ الشمس ومَن عَبَدَ النار، ومَن عَبَدَ الأصنام.

ومقابل العمل والسعي، توسَّمَ الإنسان بالخرافة، فقيّد طاقته الخلاقة بحركة الرياح وحركة الطيور، فتحوّل إلى عنصر مشلول عاجز عن العمل يحتقر كل صنعة مفيدة وكل عمل نافع إلاّ ما توارثه عن أبيه وجدهِ.

وفي قبال القيم والمُثل والفضائل تمسّك إنسان الجزيرة بالعادات والتقاليد المناهضة للعقل البشري والمضادة للفطرة الإنسانية.. فمن وأد البنات إلى احتقار النساء إلى اتخاذ أناسٍ من البشر عبيداً وجواري.

وفي قبال القيم الإنسانية الطافحة بالحب المتبادل بين بني الإنسان تركزت الحياة في جزيرة العرب على قيم العشيرة فإذا حدود العشيرة تصبح هي حدود تفكير واهتمام إنسان ذلك اليوم. فكل شيء خارج حدودها هو عالم غريب لا يعنيها لا من قريبٍ ولا من بعيد.

وكانت حصيلة سيادة هذه الروح السلبية انتشار الظُلم والتعصب والفساد والجهل والخرافة، حتى أصبحت هذه الأمور الخمسة هي المظاهر الطبيعية في المجتمع.

وبات الإنسان لا يرى سبيلاً لتغيير هذا الوضع، طالما أصبح المتمع يستمرىء هذه الحالة واعتاد عليها دهوراً من الزمن في غياب الرسالات السماوية. فلم يكن التغيير أمراً هيناً لذلك الوضع المُتردي، بل كان أمراً يستدعي عملاً جباراً، ورجالاً عظاماً يتحملون مسؤولية التغيير حتى الشوط الأخير.

ولم يكن بين كل بني البشر مَن يستطيع تحمّل ذلك العبء، غير ذلك الفتى الذي سمته العرب بالأمين لكثرة أمانته، وصدقه، وإخلاصه.

لقد نشأ رسول الله ﷺ على قيم رسالية، فكان النموذج المغاير لإنسان الجزيرة في معتقده وتفكيره وسلوكه وأخلاقه، فسلك ومنذُ نعومة أظفاره خطاً موازياً لقيم رسالات الأنبياء سيَّما شيخهم إبراهيم الخليل.

وكان في قناعة الرسول ﷺ إن هذا الخط لا يلتقي بالمجتمع الجاهلي، بل هو في سيره باتجاه هذا الخط إنما يسير عكس التيار الجارف، فإذا أراد لهذا المجتمع أن يتغيّر فلا بد وأن يوجِد تياراً معاكساً له يسير بخطى ثابتة نحو تحقيق الاهداف الإنسانية الكبرى. وقناعته إن التغيير لا بد وأن يبدأ من الفرد ليعم المجتمع، ولا بُدّ للأفراد أن يتحولوا إلى مجتمع فاضل.

من هنا بدأ رسول الله ﷺ ثورة التغيير، بإنشاء نواة الأُسرة المؤمنة المتكونة من علي وخديجة وزيد.

من ابن عمه، وساعده الأيمن وخديجة زوجته الوفيّة الصابرة، وزيد خادمه المطيع فقد قرر رسول الله ﷺ بهذه الأسرة أن يشق مجرى التاريخ، وأن يفتح طريقاً وسط التيار. وأن يُقاوم بتلك الأسرة الانحراف، وأن يُحدث منها موجاً هادراً يتحول شيئاً فشيئاً إلى تيار جارف للوثنية والجاهلية.

بدأ المهمة قبل أن يُبعث رسولاً نبياً.

ذكر المؤرخون، إن رسول الله ﷺ ومنذُ السابعة والثلاثين من عمره الشريف، أخذ يتهيّأ لتلقي مسؤولية الرسالة، فكان يتحنّث شهراً من كل سنة، يأخذ معه أهله سيما في السنة التي تلقى فيها الوحي.

فإن تأكد لنا هذا الخبر[1] فإن النبي ﷺ كان يعمل على نقل أسرته الكريمة من أجواء ذلك المجتمع الجاهلي إلى رحاب الله، من عالم الظُلم والقهر والجهل والتخلف إلى عالم العدل والانعتاق، من عالم العبودية والشرك إلى عالم الوحدانية والعقيدة الصافية.

وعندما نزل عليه الوحي، كان هؤلاء الثلاثة هم أول من آمن به، وكان علي عليه السلام أول مَن آمن بالله بعد رسول الله ﷺ كما ورد في رواية زيد بن أرقم والتي ذكرها النسائي وجمعٌ من رواة الحديث[2].

وروى مُسلم الملائي عن أنس بن مالك قال: استنبىء النبي ﷺ يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء[3].

واختلف المؤرخون عن السنة التي أسلم فيها، فأكثر الآراء تتجه إلى أنه كان ابن عشر سنين.

أجل.. ابنُ عشر سنين، وهو ينهلُ من معين الرسالة ويده الغضة الصغيرة تصافح يد رسول الله ﷺ.

لم يقل رسول الله ﷺ ما قيمة هذا الولد الصغير، وما الذي يُحسنُه عندما دعاه للإسلام، ليصبح أول مؤمن به، فأصحاب الدعوات يبحثون عن الشخصيات والوجوه اللامعة في أول دعوتهم، إذ أن وجود مثل هذه الشخصيات سيمنحهم القوة أما رسول الله ﷺ فقد أودع الأمانة عند فتى لم

---

(١) جاء في أعيان الشيعة الجزء ١، ص٣٧٣ أن علياً كان يحمل لرسول الله ﷺ أيام التحنث الزاد والماء من بيت خديجة إن لم تحمله الخادم.

(٢) محمد بن عبد البر الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٣، ص١٠٩٥.

(٣) محمد بن عبد البر الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٣، ص١٠٩٥.

يتجاوز العاشرة ليصبح أول مؤمن به وأول سندٍ للرسالة.

فهل كان رسول الله ﷺ على علم بالعظمة الكامنة عند علي وهو صبي؟

أجل كان رسول الله ﷺ على علم كامل بمستقبل هذا الغلام.. ألم يقل حين ولادته هذا أخي ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي وصهري ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي.

فرسول الله كان يدري ماذا يصنع عندما قرر مع نفسه الاهتمام بعلي، واعداده الاعداد الجيد ثم دعوته ليصبح أول مئازر له. إذ من الأمور الهامة التي يُفكر بها كل مصلح هو اختيار من يساعده على تحمل المسؤوليات ويعينه على مكاره الدهر ويستشيره في الأمور التي لا يستطيع أن يُبيحها لغيره.

وقد اختاره رسول الله ﷺ ساعده الأيمن منذ نعومة أظفاره، بل اختاره الله له منذُ يوم ولادته فمنذُ ذلك اليوم وهو يُباشر أمر تربيته وإعداده.

ومع انبعاث الرسالة تعاظمت العلاقة الأخوية بين علي ومحمد عليهما أفضل الصلاة والسلام، فقد دخلت هذه العلاقة مع البعثة دائرة المسؤولية المشتركة وبذل الجهد المشترك لتعزيز مواقع الرسالة الإسلامية.

فأصبح علي ومنذُ اليوم الأول ملاصقاً لرسول الله ﷺ يجمعهما همٌّ مشترك وهو يستوجب اللقاء الدائم والمتواصل.. ويتطلب المشورة المستمرة.

وصية أبي طالب لولده.. فألزمه

كان رسول الله ﷺ يصلي وعليٌّ يصلي خلفه، فدخل أبو طالب عليهما فوجدهما على هذه الحالة، فلما أتمّا الصلاة تقدّم علي من أبيه وقال بلا تردد ولا خوف وهو يُعلن إسلامه على رؤوس الأشهاد.

يا أبتِ لقد آمنت بالله وبرسوله، وصدَّقتُ ما جاء به واتَّبَعْتُهُ.

فأجابه والده المطمئن من سلامة هذا الدين.

أما أنه لا يدعون إلاّ إلى الخير فألزمه[1]. دعوة أخرى إلى علي.. تطلب منه الالتصاق بالنبي محمد ﷺ.. فألزمُه.

وهو أكثر أفعال الأمر دلالةً على الالتصاق.

وهو يعني الانشداد المستمر دون انقطاع.

وهذه وصية أخرى تُضاف إلى عوامل الجذب القوية بين محمد وعليّ.

ألزمَه.. هو الردّ الذي كان ينتظره علي عليه السلام من والده عندما أخبره بإسلامه، وهو يعكس طبيعة العلاقة بين الوالد والولد.. وطبيعة العلاقة بين العم وابن أخيه، وطبيعة التصور الذي أخذه أبو طالب عن الدين الجديد.

فهو يعرف ابن أخيه كما يعرف نفسه، ومطمئن إلى صدق ما يقوله، وما جاء به من ربّه وهو الحق. وهو وكأي رجلٍ حكيم في ذلك الزمن كان يترقب اليد المنقذة التي تمتّد نحو الأرض لتنقذ ما بلغه المجتمع من

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج١، ص٥٨.

جاهلية رعناء ومن تردٍ ونكوص عن القيم والفضائل.

وهاهي اليد قد امتدت من السماء، وتمثلت بتلك الدعوة التي أطلقها الرسول ﷺ لانقاذ البشرية من الشرك والظُلم، فلِمَ لا يُؤمن بهذا الدين إن كان حقاً من السماء وكان امتداداً لدين إبراهيم الخليل. ولِمَ لا يدفع بأبنائه إلى نصرة هذه الرسالة ونشرها في الآفاق لتنعم الإنسانية بوجودها.

لقد كان سرور أبي طالب كبيراً عندما وجد علياً يقف جنباً إلى جنب محمد ﷺ ولم يكتف بذلك بل ذهب مُسرعاً إلى بيت أخيه العباس، وكان ابنه جعفر في كفالته فدعاه وأخذ بيده إلى المكان الذي يُصلي فيه النبي ﷺ وقال له:

صلْ جناح ابن عمك يا ولدي[1].

ومن هذه اللحظة أخذ الدين الجديد ينتشر خبره بين الناس، فقبل هذه اللحظة كان الذي يدور في خلد قريش إن دعوة النبي ﷺ هي مجرد حالة فردية، ولم يدركوا أبعاد هذا الحدث العظيم إلاّ عندما سمعوا بأن آخرين أصبحوا مع محمد ﷺ يتعبدون معه ويحملون مبادئه.

وهناك موقف مشابه ذكره لنا عفيف الكندي، يقول:

كنتُ امرءاً تاجراً فقدمتُ مكة أيام الحج، فأتيتُ العباس فبينما نحن عنده إذ خرج رجلٌ فقام تجاه الكعبة يُصلي ثم خرجت امرأة تُصلي معه ثم خرج غلامٌ فقام يصلي معه، فقلتُ يا عباس ما هذا الدين.

فقال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي، زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة آمنت به وهذا الغلام عليّ ابن أبي طالب آمن به، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلاّ هؤلاء الثلاثة، قال عفيف: ليتني كنتُ رابعاً[2].

---

(١) الحسني (هاشم معروف) سيرة المصطفى ص٢٠٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التأريخ ج٢، ص٥٧.

اجتماع بني هاشم

وأخذ خبر الدين الجديد يتفشى في صفوف القرشيين، وشرع الذين هداهم الله للإيمان يتقاطرون على الإسلام، وأخذ عود المسلمين يقوى ويشتد أزره، وبعد ثلاث سنوات تحوّل إلى كيان قوي قادر على المواجهة، عند ذلك جاء الأمر الإلهي بتبليغ الرسالة..

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

فكان لا بُدّ من الإستعانة بعلي ليتحمل جزءاً من أعباء هذا الإبلاغ الإلهي.

فعلى إجماع رواة الحديث والمؤرخين، إن النبي ﷺ دعا علياً عليه السلام فأمره أن يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطلب ليكلمهم ويبلغهم ما أُمِرَ به، فصنع علي عليه السلام صاعاً من طعام وجعل عليه رجل شاة وملأ عساً من لبن ثم دعاهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه منهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فأكلوا، قال علي عليه السلام، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وما أرى إلا موضع أيديهم، وأيم الذي نفس علي بيده وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكُلَ ما قدمتُ لجميعهم ثم قال أسق القوم فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله ﷺ، أن

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤

يُكلمهم بادره أبو لهب فقال لقد سحركم صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول ﷺ فأمَرَ ﷺ علياً في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل آنفاً وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم رسول الله يا بني عبد المطلب إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، قال: فأحجم القوم عنها جميعاً.

وقال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه، وفي رواية أخرى، قالوا لأبي طالب أطع ابنك فقد أمّره عليك[1].

وتناول المستشرقون هذا الاجتماع بشيء من السخرية، وتحدثوا بنفس الطريقة التي تحدّث بها أبو لهب، وكأنهم أرادوا أن يشاركوه هذه السخرية.

يقول المستشرق أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام.

قال النبي: إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر فأحجم القوم عنه جميعاً إلاّ عليّ، فقد صاح في حماسة صبي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فقام القوم يضحكون[2].

وكان ذلك اللقاء الحامي بداية مرحلة جديدة في حياة النبي ﷺ اتسمت بالتحدي المتبادل ثم المواجهة السافرة بين الإسلام والشرك.

وقد لعب أبو طالب وولده علي دوراً هاماً في حماية رسول الله من أيدي المشركين والطامعين.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢، ص٦٣ وتاريخ ابن الأثير الكامل في التأريخ ج٢، ص٦٢.
(٢) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص٣٦.

وقف أبو طالب وقفة شجاعة إلى جانب ابن أخيه.

فمنذ اللحظة التي شهر فيها أبو لهب سلاح العداء لرسول الله ﷺ قائلاً لبني عبد المطلب:

خذوا على يدي صاحبكم قبل أن يأخُذ على يده غيركم، فإن منعتموه قُتلتم وإن تركتموه ذللتم، فمنذُ ذلك الوقت قرر أبو طالب أن لا يفوّت أية فرصة في الدفاع عن ابن أخيه.

لم يترك مقولة أبي لهب تذهب بدون جواب. فأجابه بضرس قاطع..

يا عورة والله لننصرنه ثم لنعينه.

ويا له من خزي وعار مضغه أبو لهب بصمت وهدوء ثم التفت أبو طالب إلى محمد ﷺ قائلاً له.

يابن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح[1].

وكان يتكلم بلسان الجمع فهو سيد بني هاشم ولن يردّه إذا أراد شيئاً.

لقد وفّر أبو طالب بهذا الموقف غطاءً من الحماية لابن أخيه، فلم تجرؤ قريش أن تطاله بأيّ مكروه طالما كان أبو طالب في الحياة.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص٢٧ ـ ٢٨.

فُتوَّة واعية

عندما عجز الرجال عن مواجهة النبي ﷺ دفعوا بصبيانهم، وأطفالهم لإيذاء النبي ﷺ فكانوا يرصدونه في الطريق فيرمونه بالحجارة..

وهنا يأتي الدور لعلي بن أبي طالب، وهو لا يزال فتًى صغيراً.. فكان يطارد الصبيان المترصدين للنبي ﷺ والويل لمن وقع في قبضته.. فكان لا يتركه حتى يوجعه قضماً فلا يجرؤ أن يعود إلى ذلك العمل من جديد.

وظل رنين الوجع يدوّي في قلوب أولئك الصبيان.. الذين كبروا فيما بعد وهم لم ينسوا القاضم.

ففي معركة أُحد برز طلحة بن أبي طلحة فبرز إليه الإمام علي بن أبي طالب.

سأله طلحة من أنت يا غلام؟.

قال: أنا علي بن أبي طالب.

قال طلحة قد علمت يا قضيم انه لا يجسر عليّ أحد غيرك[1].

وكانت تلك المهمة، أول اختبار لعلي عليه السلام يقيس به مدى حبّه لقائده

---

(١) الأمين سيد محسن أعيان الشيعة ج١، ص٣٧٢.

وتفانيه من أجله، ولم يكن صعباً على القائد أن يكتشف مواهب هذا الفتى في الشجاعة والإقدام والجرأة وهو على صغر سنه. فيجد الطمأنينة الكاملة لمستقبل الرسالة الإسلامية التي تنتظرها أياماً صعبة.

فقريش ستعمل المُستحيل من أجل القضاء على هذه الدعوة لأنها تهدد مصالحها وتقضي على مكانتها السياسية والاقتصادية في الجزيرة وفي الدول المجاورة.

فالأيام الصعبة مقبلة لا محالة، فهذه قُريش تتأهب للقضاء على هذه النبتة. فكان لا بُدّ من وجود مُدافعٍ قويٍ يستطيع أن يقف قبالة قريش ويظلّ ملاصقاً لصاحب الرسالة، وما ذلك الإنسان إلاّ عليّ عليه السلام[1] الذي كان من السهل على القريبين منه أن يكتشفوا مقوماته الذاتية وقدراته الخلاقة مع أول تفرُّس في شخصيته.

رجل الإرتباط

منذُ اللحظة التي قرر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله الانطلاق بالدعوة إلى الآخرين، أخذ عليّ بن أبي طالب مواقعه في سلم المسؤولية التأريخية، فقد اختار الكعبة مكاناً لاقتناء العناصر الجيدة، فاتخذ زاوية من المسجد الحرام يتفرس في الوجوه ويقرأ من خلالها ما يعتمل في القلوب، فكان يقترب ممن يقع عليه الاختيار، وهناك يبدأ الحوار ويبدأ الارتباط فيكون اللقاء في مقر الرسالة حيث رسول الله صلى الله عليه وآله ينتظر العناصر الجديدة التي تتقدم لتضع يدها في يد المسلمين، وقد قسم المسؤوليات بينه وبين من آمن به. ففي الأيام الأولى من الدعوة جاء إلى مكة رجلٌ من غفار وفي نفسه رغبة جامحة لمعرفة المزيد عما سمعه عن الدين الجديد.

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل ج٢، ص٥٩ وكان زيد وعلي يلزمان النبي صلى الله عليه وآله وكان صلى الله عليه وآله يخرج إلى الكعبة أول النهار ويصلي صلاة الضحى وكانت قريش لا تنكرها وكان إذا صلى غيرها قعد علي وزيد بن حارث يرصدانه.

ووصل إلى الكعبة وهو يقرأ في الوجوه ما يوصله إلى بغيته ويسمع ما تقوله الألسن عن الدين الجديد فيزداد شوقاً وحباً لمعرفة المزيد. وتوارت الشمس ودبّ الظلام وأبو ذر لا زال يبحث في زوايا المسجد الحرام عن ضالته وفجأة يكتشفه علي بن أبي طالب عليه السلام ويتصافح الوجهان وتنزلق الأسئلة عن لسان علي عليه السلام.

من الرجل؟ ويأتيه الجواب سريعاً.

من بني غفار.

فاطمأن أبو ذر أنه قد مسك بطرف الخيط الذي يبحث عنه. فلم يتباطأ في القيام مع علي عندما دعاه إلى منزله، ولم يكن هناك داعٍ للسؤال طالما حدّثه قلبه بأن علي ممن يدين بالدين الجديد. وصمت علي عليه السلام ولم يخبره بشيء حتى أقبل الصبح فخرج أبو ذر وعاد إلى المسجد الحرام يتصيّد الأخبار ويلتقط المعلومات عن الرسالة الجديدة، وفي الليل التقى بعلي عليه السلام من جديد فدعاه إلى بيته قائلاً: أما آن للرجل أن يعرف منزله وبات الليلة الثانية، وفي اليوم الثالث نَفَذَ صبر أبي ذر فسارع يسأل علياً عن الرجل الذي خرج يدعو إلى الله سبحانه وأخذ عليه العهد ليكتمنّ أمره.

فقال علي عليه السلام إني ذاهبٌ إليه فاتبع أثري.

وعلّمه الرمز..

فإني إن رأيت ما أخاف عليك اعتللتُ بالقيام كأني أُريد أُريق الماء وإن لم أر أحداً فاتبع أثري حتى تدخل حيث أدخُل.

ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى دار الأرقم، فأسلم وكان الخامس من بين من أسلم.

وانتشر الإسلام وأصبح كياناً يقض مضجع المشركين الذين وجدوا في الدين الجديد ما يُشكّل خطراً على مصالحهم، فشهروا سلاح المواجهة

واعتمدوا أساليب الغدر والقهر لإسكات صوت الرسالة.

وكان لعلي دورٌ بارز في الوقوف قبال مؤامرات قُريش في تعبئة المجاميع المؤمنة ومن بينها مجموعة بني هاشم حيث كان هو وأخوه جعفر أبرز شباب هذه المجموعة، فبفضل المؤمنين من بني هاشم وقفت هذه العائلة الكريمة موقفاً شريفاً من النبي ﷺ وحتى الذين لم يؤمنوا ممن أفرادها.

وواصل أبو طالب مهمته في توفير الغطاء الأمني، لما له من هيبة في نفوس زعماء قريش، الذين لم يجرؤوا على النيل من النبي ﷺ، لأنهم كانوا يعرفون أن ذلك يعني مواجهة سافرة مع أبي طالب وهم في غنى عنها، لأنها ستكلفهم ثمناً غالياً فاتجهوا نحو المستضعفين من المسلمين من العبيد والفقراء لارواء غليلهم من الحقد والكراهية فانقضوا انقضاض الغراب على الفريسة على أكوام الأجسام البريئة ومارسوا ألوان العذاب والقهر ولم يتركوا مكاناً من تلك الأجسام الذابلة إلاَّ وأشبعوها من التعذيب.

بدأوا ببلال وهو عبدٌ أسود جاؤوا به من الحبشة ليرموا به على الرمضاء وعلى صدره أطنانٌ من الحقد والكراهية.

وظنوا أن قيمة بلال وقدرته على التحمّل مساوية لسعره عند شرائه، لكنهم اصطدموا بالحقيقة فإذا ببلال أكبر مما توهموا وأكبر مما حسبوا له حساباً، فقد وجدوا أنفسهم وهم يمارسون التعذيب أنهم ليسوا أمام عبدٍ معروف السعر، بل أمام حرٍ لا يمكن حصر قيمته في نطاق الماديات.

وفي زاوية من الصحراء كان هشام بن الحكم وأبو سفيان يُقيمان مهرجاناً من التعذيب على أجساد الأسرة الفاضلة التي فقدت الأب وهو ياسر والأم وهي سمية ولم تخضع لإرادة الجلادين لأنها كانت إرادة جاهلية قاومتها بإرادة ربانية.

وفشلت محاولات التصفية لأن القائمين عليها لم يدركوا أن السياط والقيود لن تستطيع أن تغلق منافذ العقل، بل هي تدفع بالعقل لأن ينطلق أكثر فأكثر وتدع الروح لأن ترتفع وتسمو في سماء العظمة.

كانت مشاهد التعذيب هي الثمرة الطبيعية للإصرار على المبدأ والإلتزام بنهج الرسالة، وكانت النتيجة الفعلية للجهد المتواصل الذي بذله رسول الله ﷺ ورواد الرسالة الأوائل في الدعوة لهذا الدين.

كانت تلك المشاهد تمرُّ بمرأى أو بمسمع من رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام وبقية الرواد فتزيد من إصرارهم على المضي في الطريق الذي اختاره الله لهم والذين انتخبوه طواعية لا كُرهاً. فتلك البطولات النادرة التي ركّعت الطغاة كانت مفخرة لأولئك القادة الذين شيّدوا هذا الدين وتحملوا العبء الأكبر في نشر دعوته بين الناس.

واشتد التعذيب فلم ير المسلمون المستضعفون بُداً من الخروج من مكة والبحث عن مكان أفضل يجدون فيه الراحة، وفرصة الدعوة إلى الإسلام فاختار لهم النبي ﷺ الحبشة ففيها ملكٌ عادل يحبُ الخير، وأعطى قيادة المجموعة لجعفر بن أبي طالب لتحليه بصفات قيادية تقتضيها المهمة وسلم المسلمون المهاجرون من أذى قُريش وفتح الله لهم أبواب الحياة في مكانهم الجديد.

أما الذين مكثوا في مكة من بني هاشم وبعض الصحابة فقد استعدوا لكل الإحتمالات التي تفرضها مرحلة المواجهة مع الشرك القرشي.

ولمّا لم يبق في مكة من المسلمين إلا الوجهاء والشخصيات، فقد كانت المواجهة الدموية هي أبعد ما يكون سيما وأن ظلال أبي طالب لا زالت تبعث بدفء الأمن في نفوس المسلمين وتفرض الحصانة ضد أي عدوان تقدم عليه قريش.

وعندما سقطت كل الخيارات لم يبق أمام قريش إلاّ أن تفرض حصاراً

اجتماعياً واقتصادياً، فبدأت معركتها السلبية مع الإسلام.

وتجمّع المسلمون وبنو هاشم في شعب أبي طالب لتوفير سبل الحماية بصورة أفضل.. فتم إيجاد خطوط دفاعية قوية لمواجهة أية محاولة إجرامية تقوم بها قريش.

وعلى رغم الوضع الأمني المستتب حول الشعبْ، فقد ظلّ أبو طالب يخشى على حياة الرسول ﷺ ففي تلك الأجواء المتشنجة، فقد تقدم قريش على عملٍ دنيء في خلسة من الليل البهيم. فللمزيد من التدابير الاحتياطية كان أبو طالب يطلب من ولده عليّ أن يبيت في مكان رسول الله ﷺ[1].

وكان علي عليه السلام يُسارع إلى الامتثال لأوامر والده، ويضطجع في فراش النبي ﷺ فادياً نفسه من أجل الرسالة.

المهم أن يبقى رسول الله ﷺ لأن بقاء الرسالة مرهونٌ ببقائه، ولا يهمُّ بعد ذلك أي شيء آخر.

فقد تعوّد علي عليه السلام ومنذُ الصغر أن يُفدي بنفسه لابن عمه رسول الله ﷺ لا بدافع القرابة، ولا بدافع العصبية القبلية بل بدافع المبادىء التي آمن بها علي عليه السلام وهو صغير لم يبلغ الحلم، ولم يكتف علي عليه السلام بهذا القدر من المخاطرة بنفسه بل كان يخرج من الشِعب إلى مكة سراً ليأتي بالطعام[2]. إلى المحاصرين، إذا اضطروا في بعض الأيام أن يقتاتوا على حشائش الأرض، واستمر الحصار سنتين أو ثلاثاً على هذا الحال حتى هَزُلتْ أجسامهم وهدّت قواهم، وزادت قريش من حلقة الحصار فتضاعفت المحنة على بني هاشم والمسلمين ففي تلك الظروف الصعبة من يستطيع أن يتحمل مسؤولية ذلك الجمع غير ذلك الشاب الذي كان يبيت في فراش النبي ﷺ لإيهام الأعداء إذا أرادوا الغارة على الشعب، وفي نفس الوقت

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٣، ص٨٤.

(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج١٣، ص٢٥٦

كان يأمن الحدّ الأدنى من الطعام للأطفال والنساء والشيوخ. من كان يستطيع أن يقوم بتلك الأعمال في مثل تلك الظروف الصعبة غير علي بن أبي طالب حيث قضى في الشعب أفضل فترات الشباب حيث دخلها وعمره ١٧ عاماً وخرج منها وعمره عشرون عاماً، فكانت تجربة جديدة في حياته عَوَّدتُه على الإستهانة بالمخاطر.. وجعلته متأهباً مستعداً لمواجهة أي طارىء وعَوَّدته على الفداء. وأعطته فرصة أكثر للإلتصاق بالنبي محمد ﷺ كما وعوّدته على الصبر والطاعة، الصبر على الجوع، وطاعة أوامر أبيه بالمبيت في فراش النبي ﷺ ونقل الطعام إلى الشعب.

وانتهت مهزلة الحضارة بمعجزة السماء. وانحنت هامات المشركين من جديد وخرج المسلمون من شعب أبي طالب بمعنويات عالية لكن بأجسام هزيلة.

وما أن تنفسوا الصعداء إلاَّ وحلّت بهم مصيبة كُبرى فقد توفي أبو طالب بعد أن أدى ما عليه من واجبات نحو الرسالة والرسول.

وبدأت بوفاته مرحلة صعبة من حياة المسلمين محفوفة بالآلام والمعاناة. فقد تبدد بوفاته الغطاء الأمني الذي كان يرفرف على رؤوس المسلمين ويبعث فيهم الطمأنينة والأمن على حياتهم وحياة الرسالة، وكان على علي عليه السلام أن يُضاعف من حرصه على حياة النبي ﷺ فعندما نُقل إليه خبر وفاة عمّه حزن حُزناً شديداً وسمى ذلك العام بعام الحُزن.

رفيق الدعوة

ومنذُ ذلك الوقت أخذت قريش تتجرأ للنيل من النبي ﷺ، فكان يقول ما زالت قريش كاعّة عني حتى مات أبو طالب[1] فكان عليه أن يُغيّر مكانه ويستبدله بمكان أكثر أمناً يستطيع منه نشر رسالته إلى أرجاء أخرى من

---

(١) الأمين سيد محسن أعيان الشيعة ج١، ص٢٣٥.

جزيرَة العرب، فأخذ يعرض نفسه على القبائل، وابتدأ أولاً بالطائف وبعد عشرة أيام من مكوثه هناك لم يلق التجاوب المطلوب وقفل عائداً إلى مكة وعلى رغم الأجواء الصعبة في مكة فقد ظلّ رسول الله ﷺ يبحث عن منفذ ينطلق منه إلى رحاب الأرض، فانتهز فرصة مواسم الحج فأخذ يعرض نفسه على القبائل وكان يرافقه في هذه المهمة علي بن أبي طالب كما ينقل المؤرخون فكان دوره هو الحراسة على حياة النبي ﷺ ومشاركته في أمر الدعوة.

فعليّ كان مع رسول الله ﷺ في الطائف وأخذ معه أيضاً زيد بن حارثة[1].

وعند العودة إلى مكة اصطف الأولاد الصغار والسفهاء صفين وأخذوا يرمون رسول الله ﷺ بالحجارة فوقف علي وزيد يتلقيان الضربات ويمنعان الصبية عن مواصلة اعتدائهم حتى شجّ رأس زيد بن حارثة أثناء المدافعة.

عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بعد تلك التجربة، عاد وهو أمضى عزيمة على الاستمرار ومواصلة الدرب بعرض الدين الجديد على القبائل.

أصبح يتحرك بين القبائل ويبقى أياماً وأسابيع علّه يجد من يلين قلبه للإيمان، هاجر إلى بني شيبان وظلّ هناك ثلاثة عشر يوماً وكان يصحبه في هذه الرحلة علي وأبو بكر[2]. وظلّ هكذا حتى فَتَحَ الله عليه في سنة إحدى عشرة من البعثة عندما إلتقى النبي ﷺ برهطٍ من الخزرج في موسم الحج عند العقبة، فدعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن فآمنوا به ثم عادوا إلى وطنهم يثرب فدعوا أبناء قبيلتهم وأبناء قبيلة أوس إلى التصديق بالنبي ﷺ، فانتشر الإسلام وفي السنة القادمة جاء إثنا عشر، إثنان من الأوس والبقية من الخزرج فبايعوا الرسول ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم سفيراً، فأرسل

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي ١/ ١٢٧ عن المدائني.
(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٤ ص١٢٦.

مصعب بن عمير، فأخذت حركة الدعوة تتصاعد، وبدأ الإسلام يدخُل كل بيت في يثرب وأخذت القلوب تهفو للرسول ﷺ وتنتظر ساعة اللقاء به.

وحلّ موسم الحج وحانت الفُرصة الذهبية لعقد لقاء مباشر بين طلائع يثرب مع قائدهم.

وخرج المسلمون مع مشركي يثرب قاصدين البيت الحرام في مكة، فالتقى بعضهم بالنبي ﷺ فطلبوا منه اللقاء فواعدهم في العقبة في أواسط أيام التشريق ليلاً بعد أن يكمل الحجيج مناسكهم. وفي ليلة الميعاد قاموا من رحالهم بهدوء وسكينة حتى لا يستيقظ أحد ممن كان معهم من المشركين الذين جاؤوا معهم وأخذوا يتسللون إلى العقبة وقد مضى من الليل ثلثه واجتمعوا في الشِعب عند العقبة، وكان سبعون أو ثلاثة وسبعون وامرأتان وتم اللقاء التأريخي في بيت عبد المطلب وكان إلى جانب الرسول حمزة وعليّ والعباس[1] وتمت البيعة على أفضل شكل.

وعلى رغم سرية اللقاء، إذ تمم انعقاده دون علم أحد حتى من المسلمين، إلاّ أن أنباءه قد بلغت مسامع المشركين، تجمّعوا، فجاؤوا مع أسلحتهم إلى مكان الإجتماع، فخرج حمزة ومعه علي بن أبي طالب بسيفهما فسألوا حمزة عن الإجتماع فأنكر ذلك فرجعوا خائبين، وهم على يقين بأن جمعاً من أهل يثرب قد دخلوا الإسلام، وإن ذلك سيشكّل خطراً عليهم لأنه يعني انتشار الإسلام في أنحاء جزيرة العرب، فأسرعوا لإلقاء القبض على الأنصار، فأدركوا سعد بن عبادة فأخذوه وعذبوه وبلغ خبره جبير بن مطعم والحارث بن حرب فأتياه وخلصاه لأنه كان يُجير لهما تجارتهما.

وفي هذه الحادثة يتجلى دور علي بن أبي طالب في ذلك الإجتماع

---

(١) الحلبي السيرة الحلبية ج٢، ص١٦.

الهام حيث كان وجوده هو وحمزة في ذلك المكان ضروري لأنه سيمنح الأنصار صورة جيدة عن الإسلام وعن حماية بني هاشم للنبي ﷺ، كما وأن وجودهما له جانب من الأهمية يتعلق بنوايا قريش وما تخبئه للنبي ﷺ حيث كانت تتوقع هذا اللقاء، فليس مستبعداً توجيه ضربة قاضية للرسالة الإسلامية.

فكان لا بد من أخذ الإحتياطات اللازمة.

ومن ناحية أخرى فإن من واجب الرسول ﷺ أن يوفّر قَدَراً من الحماية للضيوف القادمين من يثرب فاستعان رسول الله ﷺ بأشجع بني هاشم حمزة وعليّ وهما اللذان عُرفا بالشجاعة والقوة.

واختلف المؤرخون فيما بينهم حول مشاركة الإمام علي في هذا الاجتماع، فبينما أكّد صاحب السيرة الحلبية والسيرة النبوية لدحلان وأعلام الورى وبحار الأنوار هذه القضية تجاهلها بعض المؤرخين الذين جاؤوا على ذكر العباس بدلاً عن علي وحمزة بخلاف المتوقع، لأن العباس لا زال مُشركاً في ذلك الوقت. وهل من الممكن أن يشترك العباس ولا يشترك حمزة أو علي وهما مسلمان؟

ليلة الفداء

تمادى الطغاة في إيذاء المسلمين، وواصل المسلمون مغادرة مكة إلى يثرب بصورة سرية فأحسّ المشركون بالخطة وخشوا أن يفلت النبي ﷺ من أيديهم بعدها لا يستطيعون أن يوقفوا المدّ الإسلامي، فقرروا القضاء على النبي ﷺ، فانتدبوا من كل قبيلة شاباً وكلفوه بتطويق بيت النبي ﷺ واغتياله عندما يخرج وعرف رسول الله بالخطة، فقرر أن يهاجر في تلك الليلة التي تقرر فيها إغتياله، ولكي تتم الخطة بنجاح كامل كان لا بُدّ مِن إبقاء من يبيت في مكانه ويردّ الأمانات التي كانت في حوزته، ثم يهاجر بالنساء.

فمن يكون ذلك الشخص المستعد للمخاطرة بنفسه، ويبيت في فراش النبي ﷺ ثم يتحمّل مسؤولية رد الأمانات، ثم حمل النساء الهاشميات والهجرة معهن إلى يثرب.

إنها حقاً لمسؤولية شاقة ومهمة صعبة أن يُخاطر الإنسان بنفسه وينتظر القتل في أية لحظة أثناء نومه، وعلى فرض الموافقة على المبيت من يجرؤ أن يتقبل مسؤولية رد الأمانات وهو لا يعلم بمصيره ولا يعرف هل سيبقى حياً فيكون بمقدوره إعادة الأمانات أم لا.

فمن سيكون لهذه المهمة؟

لم يكن صعباً على النبي ﷺ أن يختار الشخص المناسب للقيام بهذا الدور، فهو قد أعدّ علياً لمثل هذه الأيام العصيبة.

جاء النبي ﷺ إلى علي عليه السلام فأخبره بما يعدّه المشركون هذه الليلة. فبكى علي عليه السلام خوفاً على حياة الرسول..

ولما أبلغه بأن المطلوب منه أن يبيت في فراشه، أجابه على الفور:

أوتسلُم يا رسول الله إن فديتك بنفسي.

ليس المهم حياته.. ولم يعد يشغله السؤال عن مصيره.. بل كان ما يشغله حياة النبي ﷺ، أجابه رسول الله ﷺ.

نعم بذلك وعدني ربي[1].

فتغيّرت ملامح علي عليه السلام وتبدّلت تقاطيع وجهه من الحزن إلى الفرح ابتهاجاً بهذه المهمة، فقد كانت كل خلية منه تنطق بحب رسول الله ﷺ، وكان علي عليه السلام بانتظار أية فرصة يستطيع فيها أن يُبرهن لرسول الله ﷺ عن ذلك الحُب الكامن في أعماقه. وها قد جاءت الفرصة المنتظرة.

---

(١) الحسني سيرة المصطفى ص٢٤٨

ها قد حانت لحظة اختيار الحب، ولم يغب ذلك عن رسول الله ﷺ فهو يعلم بما في قلب علي من حُب وتفانٍ واخلاص لذا لم ينتدب غيره للقيام بهذه المهمة وهو يعرف بماذا سيجيبه علي عليه السلام عندما يكلفه بها فلا داعي للقلق طالما أن هناك مَن يستطيع إتمام الخُطة.

وكان رد علي عليه السلام كما هو المتوقع دائماً.. لم يقل لرسول الله ﷺ تُنجو بنفسك وترمي بي إلى المهالك، أو على الأقل لم يقل له إعفيني من بقية المهام وهي رد الأمانات ونقل النساء. فالطاعة عند علي عليه السلام قيمة حقيقية ترتبط بحجم إيمانه واخلاصه، والمؤمنون الصادقون تصبح الطاعة لديهم لذّة عندما يكون المُطاع هو رسول الله ﷺ الذي لا يتفوّه إلاّ عبر الوحي، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

ثم إن قيام رسول الله ﷺ بالهجرة لا يعني الرغبة، في النجاة من الأعداء بل هي رحلة أكثر مشقة نحو عالم جديد ومسؤوليات جديدة. فقد كان رسول الله يعدُّ العدة لإقامة دولته المباركة على أرض يثرب والتي ستصبح نقطة انطلاق لنشر الإسلام إلى جزيرة العرب ثم العالم وكل ذلك يتوقف على بقاء رسول الله ﷺ حياً ثم هجرته إلى يثرب.

فرسول الله ﷺ لم يكن يُريد الحياة لنفسه بل كان يُريدها لكي يواصل الدرب وتتحقق إرادة الله في الأرض.

كل تلك المعاني كانت حيّة عند علي عليه السلام عندما أعلن عن موافقته على اقتراح النبي ﷺ بالمبيت في فراشه.

وعندما جاء الليل اتشح علي عليه السلام ببردة الرسول ﷺ فاضطجع في فراشه، وجاء فتيان قريش وأحاطوا بالبيت فرأوا من شقوق الباب المصنوع من جذوع النخل أن النبي ﷺ نائم في مكانه المعتاد فاطمأنت قلوبهم من وجوده ظناً منهم أن المتمدد على فراشه هو النبي ﷺ بعينه. فأخذوا يقذفونه بالحجارة لعله يستيقظ ثم يخرج من الدار فيقتلونه لأنهم لم يرغبوا في

بادىء الأمر قتله في الدار، لأن مثل هذا العمل يُعتبر منقصة لهم فانتظروا حتى آخر الليل، فعندما لم يستيقظ داهموا البيت وهجموا عليه بسيوفهم وكان في مقدمتهم خالد بن الوليد فوثب علي عليه السلام من فراشه، فأخذ منه السيف وشد عليهم فأجفلوا أمامه إجفال الغنم وخرجوا من الدار فأمعنوا النظر إليه، فإذا هو علي بن أبي طالب[1].

وأورد الطبري، أنهم قالوا لعلي أين صاحبك، قال: لا أدري أو رقيباً كنت عليه أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه[2] وهذا أمرٌ مستبعد إذ أنهم لو كانوا قد تمكنوا من عليّ لما تركوه بل كانوا يستخدمونه كرهينة للضغط على النبي صلى الله عليه وآله.

ولم يكن المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله هو كل المهمة التي أوكلت إلى علي عليه أفضل الصلاة والسلام، بل كانت تلك هي بداية مهام شاقة لم يكن بمقدور أحد القيام بها.

فتلك نساء بني هاشم ينتظرون مَن يوصلهن إلى يثرب بعد أن خَلتْ مكة من رسول الله صلى الله عليه وآله والأصحاب وكان فيهن العجائز اللائي لا يطقن السفر الطويل وكان فيهم الأطفال الصغار أيضاً وكان على عليّ عليه السلام أن يتكفّل بهنّ وأن يتعهّد بايصالهنّ إلى يثرب سالمات لم يمسهنّ السوء.

وما كان النبي صلى الله عليه وآله ليختار كفيلاً عليهنّ غير علي بن أبي طالب عليه السلام، فبين النساء بناته وعماته وبنات عماته وبنات أعمامه. فلم يك من اللياقة تركهنّ لوحدهن أو إيكال الأمر إلى رجلٍ غريب.

وثمة مهمة أخرى كانت في عهدة الإمام علي عليه السلام، هي إيصال الأمانات المودعة عند النبي صلى الله عليه وآله إلى أصحابها وهم من المشركين بالطبع،

---

(١) الحسني سيرة المصطفى ص٢٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٢، ص١٠١.

فهم قد وثقوا بالنبي ﷺ لأمانته واخلاصه، وأودعوا عنده الأموال والحُلي، ولم يكن رسول الله ﷺ ممن يخل بتعهداته قيد أنملة حتى لو كانت تلك الأمانات لأُناسٍ غير مسلمين. وحتى لو كان في ظروف عصيبة إذ كان يتأهب لمغادرة الوطن إلى أرضٍ أخرى، وحيث تحف به الأخطار من كل ناحية.

ففي تلك اللحظات الحرجة التي ينسى فيها الإنسان كل شيء لم ينس فيه رسول الله ﷺ تلك الأمانات وخاطر بحياة ابن عمه عليه السلام ليؤكد على خلقية الإسلام.

ووقع الاختيار على علي بن أبي طالب عليه السلام أيضاً لأداء هذه المهمة لأنه كان الوحيد الذي يستطيع أن يقوم بالمهمة خير قيام، فهو الأعرف بشؤون النبي ﷺ، فهو بسهولة يستطيع أن يتعرف على أماكن المودعين وإيصال أماناتهم، ثلاث مهام شاقة أوكلت إلى علي عليه السلام، وهو يتقبلها بكل رحابة صدر فلقد أعدّه رسول الله ﷺ للأوقات الحرجة إذ يفزع الإنسان فيها باحثاً عن ملجأ ومكان يأوي إليه، ففيها لا يصمد إلاّ الصابرون الشجعان، والقادة الناجحون في الحياة هم الذين يحظون برفقة أولئك الأفذاذ والشجعان، وكان قَدَرُ الله أن يولد عليٌّ في جنب محمد، لتكتمل أشواط الرسالة الإلهية.

ليصبح محمدٌ نبياً وعليٌّ وصياً وإماماً.

ليصبح محمدٌ ﷺ بانياً وعليٌّ عليه السلام مُرمِماً.

ليكون محمدٌ ﷺ بادئاً وعليٌّ مُكملا.

وبزغ فجر اليوم الأول من الهجرة وسحابة من السلام تُظلل رسول الله ﷺ تتبعه خطوة بخطوة نحو الأرض الجديدة.

وانبلج قلب ابن أبي طالب عليه السلام مع انبلاج الصبح، فقد مضى الليل

الرهيب دون أن يقع أيّ مكروه واستطاع أن يقوم بالمهمة خير قيام.

فها هو قد انتهى من المهمة الأولى وعليه أن يؤدي المهمة الثانية.

أوصل الأمانات إلى مَن يعرفه وما تبقى منها، أقام منادياً بالأبطح قائلاً: ألا مَن كانت له قِبَلَ محمد أمانة فليأتِ لتؤدى إليه أمانته، وبذلك انتهى من المهمة الثانية، وبقيت أمامه المهمة الأخيرة، وهي الرحيل برفقة النساء والأطفال وكان عليه أن ينتظر حتى يأتيه كتابٌ من رسول الله ﷺ ينبئه بسلامة وصوله ويطلب منه اللحاق به.

ووصل رسول الله ﷺ إلى قُبا بسلامٍ وأمان واستقبلته جموع الأنصار، ومن هناك بعثَ بكتابه إلى علي عليه السلام مع أحد أصحابه هو أبو واقد الليثي، وقد قرّر البقاء هناك حتى يصل عليّ عليه السلام.

وهنا يُظهِر رسول الله ﷺ صورة أخرى مفعمة بالحب والتقدير للشاب الشهم الذي أبدى كل استعداد لتحمّل الصعاب والمشاق من أجل الرسالة، فكان على رسول الله ﷺ أن يُكرم هذا الإنسان، وأيّ إكرام أعظم من مكوث رسول الله ﷺ أربعة عشر ليلة[1] في قبا ينتظر رفيق دربه وكفيل عياله ووكيله على أمانات الناس.

وصل كتاب النبي ﷺ إلى علي بعد ثلاث ليالٍ كانت من أصعب الليالي عليه حيث فارق فيها رسول الله ﷺ وهو لم يتعود على مفارقته لحظة واحدة فقد كان لصيقاً به كما ذكر الأصحاب لا يغيب عنه، فكم لاق الإثنان خلال هذه المدة من الفراق؟

وبمجرد وصول كتاب رسول الله ﷺ اشترى عليّ عليه السلام الركائب وأعدّ العُدّة للخروج وأمَرَ من معه من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى وخرج هو ومعه الفواطم، فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأمه فاطمة بنت

---

(١) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٢٣٨.

أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبد المُطلب وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، وتولى أبو واقد الليثي سوق النياق ولشدة خشيته كان يحثُّ الخُطى سريعاً حتى لا يلحق بهم الأعداء.

وصَعُبَ على عليّ عليه السلام أن يرى نساء بني هاشم على تلك الحالة من السرعة في الحركة وهنّ نساء ضعيفات. فطلب من أبي واقد أن يرفق بالنساء وعندما لم ينصاع لأن الموقف كان موقف خوف وهلع يتزلزل فيه حتى الشجعان، إلاّ عليّ عليه السلام الذي منحه إيمانه العميق بالله هدوءاً وأعصاباً من حديد حتى في أحلك الظروف، وأخذ يسوق بنفسه الرواحل سوقاً رقيقاً وهو ينشدُ ليبعث الطمأنينة في نفوس من معه بما فيهم أبي واقد.

ليس إلاّ الله فأرفع ظَنَّكا يكفيك ربَّ الناس ما أهمكا[1].

واستمر على هدوئه حتى وصل إلى مقربة من قرية في الطريق تُسمى ضجنان وهناك أدركته القوة المرسلة من قبل قريش لإعادته إلى مكة بعد أن بَلَغها خبر رحيله هو والنساء.

وكانت القوة تتكون من ثمانية فرسان ملثمين معهم مولى لحرب بن أُمية اسمه جُناح فقال علي عليه السلام: لأيمن وأبي واقد أنيخا الإبل واعقلاها وتقدم فأنزل النسوة واقترب منه الفرسان فاستقبلهم علي عليه السلام لوحده، فقالوا له.. ظننت أنك يا غدّار ناجٍ بالنسوة إرجع لا أباً لك.

لم يخف علي عليه السلام ولم يرتبك بل قال لهم بهدوئه المعتاد:

فإن لم أفعل.

فامتلأوا غيظاً من هذا الكلام.

وقالوا متحدين: لترجعّن راغماً أو لنرجعنّ بأكثرك شعراً وأهون بك من هالك واقترب بعضهم نحو النياق وأرادوا أن يفزعوها حتى يدخلوا الرعب

---

(١) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٢٣٨.

إلى قلوب النساء والأطفال فمنعهم علي عليه السلام من مواصلة ذلك، فأسرع نحوه جناح قائد الكتيبة وأراد ضربه بالسيف لكن الإمام سارعه بضربة على عاتقه فقسمه نصفين حتى وصل السيف إلى كتف فرسه ثم شدّ على القوم ولم يمنحهم فرصة ثانية ليردوا فيها على مقتل رئيسهم، ففروا من بين يديه فزعين خائفين قائلين له:

احبس نفسك عنا يابن أبي طالب.

فقال لهم الإمام فإني منطلقٌ إلى أخي وإبن عمي رسول الله فمن سره أن أفري لحمهُ وأُريق دمه فليدن مني[1] فارتعد الفرسان وردوا على أدبارهم خائبين فواصل علي عليه السلام السير حتى وصل القرية ضجنان فمكث فيها ليلة أو ليلتين ثم انطلق إلى قُبا وكان يسير الليل ويرقد في النهار اتقاء حرارة الشمس إذ كان الفصل هو فصل الصيف والشهر هو تموز كما هو واضح من الروايات.

ومن فرط المشي تفطرت قدماه عليه السلام حتى إن النبي صلى الله عليه وآله عندما شاهده على تلك الحالة بكى عليه وتفل في يديه ومرّ بهما على قدميه، فلم يشكُهما بعد ذلك[2].

---

(١) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٢٣٨.

(٢) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٢٣٨.

الفصل الثاني

مشاركة في بناء الدولة

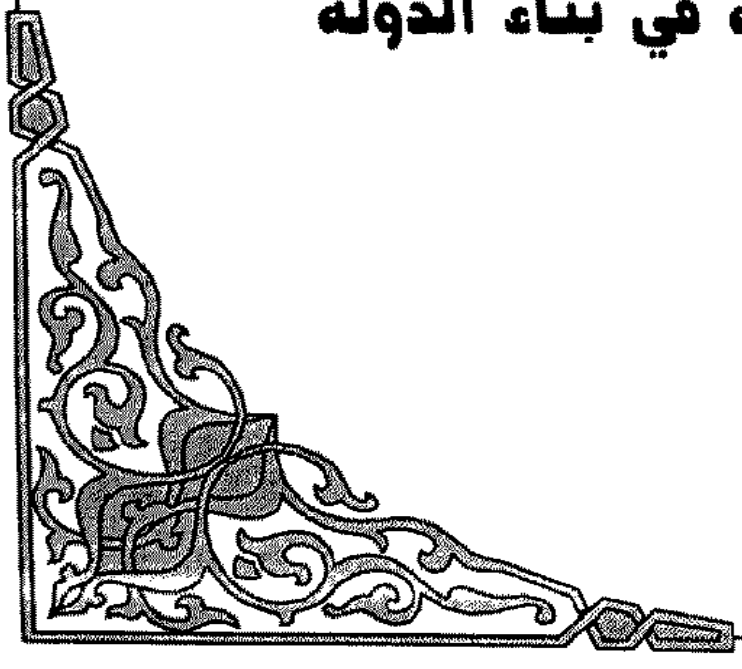

مشاركة في بناء الدولة

استأنف رسول الله ﷺ مهمة بناء الدولة الإسلامية منذ لحظة وصوله إلى المدينة فشرع في بناء المسجد كقاعدة رصينة للحكومة المركزية ثم شرع بإرساء الأواصر الإجتماعية في الكيان الإسلامي، وانطلق من مفهوم الأخوّة الإسلامية لتعضيد الرابطة الإجتماعية، فآخى بين المهاجرين والأنصار، والمتبقين من المهاجرين آخى فيما بينهم لأن عدد المهاجرين يناهز عدد الأنصار بمائة نفر بينما مجموع الأنصار لا يتجاوز الخمسين، ولم يستثن من قاعدة الأخوّة أحدٌ حتى نفسه الشريفة حيث أسَّسَ عقد الأُخوة بينه وبين ابن عمه علي عليه السلام، ذلك لأن الأُخوّة كانت استراتيجية عريضة تشمل ميادين عديدة من العلاقة فبالإضافة إلى مراميها الإجتماعية والاقتصادية تتضمن معاني حركية، فعبر جسر الأخوّة تتمتن العلاقة العملية بين المسلمين فكان تآخي النبي ﷺ مع ابن عمه علي عليه السلام ذا مدلولات عديدة، وهو يكشف عن طبيعة العلاقة العملية التي كانت بين النبي ﷺ وبين علي عليه السلام.

فعليّ عليه السلام هو الوحيد من بين الأصحاب من يستطيع الدخول على النبي ﷺ في أيّ وقتٍ يشاء حتى لو كان عند نسائه.

وهذه رواية ينقلها عبد الله بن مسعود فيقول:

خرج رسول الله من بيت زينب بنت جحش حتى أتى بيت أم سلمة فجاء داقّ فدق الباب فقال ﷺ يا أُم سلمة قومي فافتحي له.

قالت: ومن هذا يا رسول الله الذي بلغ من خطره أن أفتح له الباب وأتلقاه بمعاصمي[1] وقد نزلت فيّ بالأمس آيات من كتاب الله.

فقال ﷺ يا أم سلمة إن طاعة الرسول طاعة الله وإن معصية الرسول معصية الله عز وجل وإن بالباب رجلاً ليس بنزق ولا خرق وما كان ليدخل منزلاً حتى لا يسمع حساً وهو يحبُ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

فقالت ففتحت الباب فأخذ بعضادتي الباب ثم جئتُ حتى دخلتُ الخدر فلما أن لم يسمع وطئي دخل ثم سلّم على رسول الله ﷺ ثم قال يا أم سَلَمَة وأنا من وراء الخدر أتعرفين هذا.

قلت نعم هذا علي بن أبي طالب[2].

وعلى ما يبدو من الرواية أن النبي ﷺ كان على موعدٍ مع علي في تلك الساعة فليس هناك أحدٌ يجرؤ أن يأتيه في مثل تلك الساعة إلاّ ابن عمه علي عليه السلام لأنه منه وهو منه.

وبالطبع لم يكن مجيء علي عليه السلام في تلك الساعة عبثاً وبلا سبب بل كان بالتأكيد هناك أمور لا يمكن تأخيرها، وهي تستوجب مثل هذا اللقاء، وهي قضايا تتعلق بشؤون الدولة الإسلامية ومصير الدعوة.

وقال سليم بن قيس الهلالي في كتابه عن علي عليه السلام.

وكنتُ أدخل على رسول الله في كل يوم دخلة وكل ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يكن يصنع ذلك بأحد غيري وربما كان ذلك في منزلي فإذا دخلت عليه في بعض

---

(١) معاصمي موضع السوار من الساعة.

(٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة ج١، ص١٢٢. الأربلي.

منازله خلا بي وأقام نساءه فلم يبق غيري وغيره[1].

وذكر النسائي في الخصائص عن أبي يحيى قال: قال علي رضي الله عنه كان لي من النبي مدخلان مدخلٌ بالليل ومدخلٌ بالنهار[2].

وإذا ما عرفنا أن مثل هذه اللقاءات كانت تتكرر حتى أوقات متأخرة من الليل لكنا قد أدركنا طبيعة الواجب الخطير الذي كان مُلقى على عاتق أمير المؤمنين والذي كان يتطلب منه لقاءات مكثفة وسرية مع رسول الله ﷺ في أوقات خاصة لصرف النظر عما كان يدور في مثل هذه اللقاءات.

فقد ذكر أحمد بن حنبل في مسنده عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة لم تكن لأحدٍ من الخلائق.

كانت آتية في كل سحر فأُسلّم عليه.

وفي قولٍ ثانٍ.

فأستأذنُ عليه فإن كان في صلاة سبّح وإن كان في غير صلاة أذن لي.

فمن المؤكد أن اللقاء الذي يتم بين رئيس الدولة ومن هو بمنزلة الوزير في الساعات الأخيرة من الليل لهو لقاء هام وذو علاقة بأوضاع الدولة وشؤونها.

هكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وعلي عليه السلام علاقة تتجاوز القرابة وتتجاوز حتى الرابطة الأخوية بل هي علاقة بين رجلين مسؤولين على إقامة أول صرحٍ للإسلام فكان لقاؤهما المتواصل أمرٌ طبيعياً تفرضه أوضاع الدولة وحاجات المجتمع ومتطلبات الدعوة الإسلامية.

---

(١) كتاب سليم بن قيس ص٦٣.

(٢) النسائي خصائص أمير المؤمنين ص٣٠.

أولاً: القائد المتميز

منذُ أن وطأت قدماه مدينة الرسول ﷺ بدأ علي بن أبي طالب عليه السلام العمل جنباً إلى جنب رسول الله ﷺ في تأسيس الدولة الإسلامية فلم يترك ثغرة إلا وسد فرجها، فكان في كل الميادين سباقاً إلى العمل وإلى تثبيت دعائم الإسلام مندفعاً بطاقة ذاتية هائلة لا توازيها طاقة مجموعة كبيرة من الأفراد، هذا هو أكبر ما يُميّزه لنا التاريخ عن غيره، فعليٌّ بشجاعته كان يوازي جيشاً جرّاراً وفي إدارته لشؤون المسلمين يعادل جهازاً كبيراً مترامي الأطراف وفي تتبعه لأمور الولاة وأمور القضاة وما يجري على الناس، وفي علمه كان بحراً زاخراً تتناهىٰ إليه علوم الناس.

فقد ذُكِر أن علوم الناس تنتهي إلى ثلاثة أبو الدرداء وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، وقالوا أيضاً إن أبا الدرداء كان يعود إلى ابن مسعود، وابن مسعود كان يعود إلى ابن عباس وابن عباس كان يعود إلى علي بن أبي طالب، فكان علي عليه السلام المنبع الزاخر بالعلم والذي كان يمدّ القنوات الأخرى كإبن عباس وغيره بالعلم والمعرفة ولا غرو في ذلك أليس هو باب مدينة العلم بنص كلام رسول الله ﷺ «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابُها».

وإطلاله على سيرة علي عليه السلام خلال السنوات العشرة الأولى من تأسيس الدولة الإسلامية تكشف لنا عن خصائص شخصية الإمام علي عليه السلام. فقد كان السبّاق دائماً إلى اقتحام الصعاب وكانت الفترة الأولى من الدعوة الإسلامية بحاجة إلى من يستهين بالحياة الدنيا ويرمي بنفسه في المخاطر ليعلِّم الآخرين الجرأة والإقدام وعليّ كان من هذا النوع النادر من الناس الذين يضعون أنفسهم في المقدِّمة ويسبقون الآخرين إلى العمل فقد كانت التحديات تحيط بالمسلمين من كل جانب ومكان وتطوِّق الكيان الإسلامي الناشيء من كل أطرافه فكان لا بد من نفوس عالية تقارع المخاطر بشجاعة

وجرأة حتى يستطيع هذا الكيان أن يشق طريقه وتتماسك أركانه. ففي كل معارك الإسلام سيما المعارك الأولى لم يمهل المنادي بالمجالدة أن يكمل كلامه حتى كان في قباله يركز رمحه في الأرض ويرفع سيفه في السماء ويطلق لصوته العنان ليزمجر في وجه الطغاة المستكبرين.

وكان رسول الله ﷺ فرحاً مطمئناً على حياة الرسالة لأنه كان يجد بين أصحابه الذخيرة التي يستطيع بها الوقوف قبال المشركين مهما تفاقم الأمر وتكاثر الخطب، فوجود علي عليه السلام كان مبعثاً للطمأنينة على الدولة الإسلامية، كما كان بالأمس وجود أبيه أبي طالب يبعث في نفسه الطمأنينة على الدعوة الإسلامية.

كما وأن وجود علي عليه السلام في المُقَدِّمة يُربي الآخرين على التضحية ويعلّمهم الإقدام ويدفعهم إلى الإقتداء، والأعمال الكبيرة في كل القوى العسكرية تتوقف في العادة على مَن يُبادر على اقتحام الصعاب وعلى أثره ينطلق أفراد الجيش.

وبالإضافة إلى هذا الدور كان علي عليه السلام بحكمته ورويته يُشكِّل الاحتياطي الأكبر في تعزيز الكيان الإسلامي وترتيب البيت الإسلامي، فمع كل مشكلة كان رسول الله ﷺ يستعين بعليّ عليه السلام فقد استبدله بسعد بن عبادة في فتح مكة عندما قال مقالته التي كادت تشعل حريقاً واسعاً في مكة بخلاف الإستراتيجية التي وضعها الرسول ﷺ.

وأرسله إلى جذيمة وانتدبه إلى اليمن عندما كانت تستفحل فيها المشكلات فكان استتباب الوضع بحاجة إلى رجلٍ حكيم وشجاع ويستطيع أن يُدبّر الأمر ويحل حبائل المشكلات المعقدة.

رجل التفوق العسكري

اعتمدت الحروب الماضية على قوة العامل الشخصي فكان

للأشخاص دورٌ حاسم في المعارك وكان لمعنويات المقاتلين دورٌ كبير في حسم المعركة، فالجيش الذي يملك الروح المعنوية العالية يستطيع أن يصنع الإنتصار على عكسه الجيش الذي لا يمتلك المعنويات.

وكانت المعارك تتوقف في العادة على الجولة الأولى فمن يفوز في الجولة الأولى تُحسَمْ له المعركة ولم يشذ المسلمون عن هذه القاعدة. فعادةً كانت المعركة تستأنف بجولة هي فاتحة الانتصار. وفي تلك الجولة كان يتجلى الدور الهام للإمام علي عليه السلام.

ففي معركة بدر خرج عُتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم في البداية عوف ومُعَوِّذ إبنا عفراء وعبد الله بن رواحة وكلهم من الأنصار. فقالوا: من أنتم؟ قالوا من الأنصار، فقالوا: أكفاءٌ كرام وما لنا بكُم من حاجة ليخرج إلينا أكفاؤنا مِن قومنا، فقال النبي صلى الله عليه وآله قم يا حمزة، قم يا عُبيدة بن الحارث، قم يا علي فقاموا ودنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة بن الحارث بن المطلب عُتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد، فأما حمزة فلم يمهلهُ شيبة أن قتله، وأما علي فلم يُمهل الوليد أن قتلهُ واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكرّ حمزة وعلي على عُتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجليه فلما أتوا به النبي صلى الله عليه وآله قال: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟

قال: بلى[1].

وقيل إن عليّ عليه السلام بعد أن فرغ من قتل الوليد صاح به المسلمون، يا علي أما ترى الكلب قد بهر عمك وكانا قد اعتنقا بعد أن تكسّر سيفاهما، فأقبل عليهما وكان حمزة أطول من عتبة فقال له علي طأطىء رأسك يا عم فلوى رأسه فضرب علي عتبة فقدّه نصفين وكرّ علي والحمزة بعد ذلك على

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص١٢٥

شيبة فتقلاه وحملا عبيدة وكانت قد قطعت ساقه فألقياه بين يدي رسول الله ﷺ فاستعبر وقال: ألستُ شهيداً يا رسول الله.

قال: بلى[1].

وبعد هذهِ الضربة انهارت معنويات قُريش وانهزم جيشها وحسمت المعركة لصالح المسلمين وكان لعلي عليه السلام بعد تلك الجولة الأولى دورٌ مؤثر في نتيجة المعركة فقد التقط من جيش الكفر أهم صناديدهم وأهم الشخصيات البارزة في قريش.

فقد قتل نوفل بن خويلد وكان النبي ﷺ قد قال اللهم اكفني ابن العدوية وكذلك قتل حنظلة بن أبي سفيان ثم العاص بن سعيد بن العاص ثم طعيمة بن عدي وعبد الله بن المنذر، وقد أحصى الواقدي أربعة وعشرين ممن قُتلوا بسيف علي وثمانية وعشرين ممن اشترك في قتلهم، وجميع أولئك الذين قتلوا بسيف علي كانوا من الفرسان والشخصيات البارزة الذين فقدت بفقدهم قريش هيبتها بين القبائل.

وفي أُحُد شرعت المعركة عند تقدم حامل لواء المشركين طلحة بن عثمان وهو من شجعان قريش فوقف بين الصفين ورفع صوته:

يا معشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يُعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يُعجله بسيفي إلى الجنة أو يُعجلني سيفه إلى النار؟

فبرز إليه علي بن أبي طالب عليه السلام فضربه، فقطع رجله، فسقط فخشي طلحة أن يقتله علي فكشف عورته وناشده الله والرَّحم، فتركه علي عليه السلام فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر معه المسلمون فرحاً بنتيجة هذه الجولة ثم قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام:

---

(١) الحسني سيرة الأئمة الإثني عشر ج١، ص١٨٦.

ما منعك أن تجهز عليه، قال: إنه ناشدني الله والرحم فاستحيت منه[1].
ثم تقدم بعد ذلك أخوه عثمان فحمل الراية فحمل عليه الحمزة بن عبد المطلب فضربه بسيفه فقتله على أثرها، فحمل اللواء من بعده أخوهما أبو سعيد فحمل عليه علي عليه السلام فقتله ثم أخذ اللواء أرطأة بن شرحبيل فقتله علي عليه السلام وأخذ اللواء من بعده غلام لبني عبد الدار فقتله علي بن أبي طالب وهكذا تعاقب على حمل اللواء تسعة من بني عبد الدار قتلوا بأجمعهم بسيف علي عليه السلام أو سيف حمزة.

وكان آخر من حمل اللواء هو غلام لبني عبد الدار يُدعى صواب فحمل عليه عليّ عليه السلام وقتله وسقط اللواء من بعده في المعركة ولم يجرؤ أحد أن يحمله فدبّ الرُعب في قلوب المشركين وانهارت معنوياتهم وبدت المعركة وكأنها قد حُسمت لصالح المسلمين إلاّ أن عصيان الرماة الموكلين بحماية ظهر المسلمين والمرابطين في الجبل هو الذي غيّر ميزان القوة فاستطاع المشركون أن ينفذوا خلال صفوف المسلمين بعد أن ترك المسلمون الموقع الهام ظناً منهم بأن المعركة قد حسمت فتسارعوا على جمع الغنائم، وتبدّل الأمر واستعاد المشركون معنوياتهم وأحاطوا بالنبي صلى الله عليه وآله فقال لعلي أحمل عليهم وكان إلى جانبه لم يُفارقه خوفاً عليه ففرقهم علي عليه السلام وقتل عدداً منهم ثم أبصر جماعة أخرى فقال له احمل عليهم فحمل عليهم وفرقهم أيضاً فقال جبرئيل للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله هذه المواساة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه مني وأنا منه. قال جبرئيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً في السماء لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي[2] فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك.

فقال لهم:

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص١٥٢.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص١٠٤.

هذا جبرئيل[1].

ويقف التأريخ بشموخ ليروي للأجيال موقف الفداء الذي وقفه الإمام علي عليه السلام في تلك اللحظات الحرجة التي حُوصِرَ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي تلك اللحظات العسيرة التي فرّ فيها المسلمون وأصبح همّ الواحد منهم كيف ينجو بنفسه؟ والبحث عن مكان يأوي إليه ويخفي نفسه عن أعين المشركين.

في تلك اللحظات أين كان علي عليه السلام

بالطبع كان إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله.

لم يخش على نفسه فلم يفر من المعركة.

بل كان كل خشيته على الإسلام، فوقف وقفة الأبطال يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله لأن وجود الإسلام كان يتوقف يومذاك على وجوده.

استشهد حمزة واستشهد مصعب بن عمير وكان حامل لواء المسلمين فأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله الراية إلى علي بن أبي طالب، فأخذ يصدّ الهجمات عن رسول الله صلى الله عليه وآله والراية بيده والسيف باليد الأخرى وكأنه جيشٌ بكامل عُدته وعدده، فلم يستطع المشركون من الإقتراب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واستطاع علي ومعه نفرٌ قليل من المسلمين فيهم أبو دجانة أن يعيدوا المعركة إلى حالتها الأولى من التوازن، وأن يبعثوا الرُعب مجدداً إلى قلب المشركين، وكان هو السبيل الوحيد لانتهاء المعركة دون أن يحرز أحد الطرفين نصراً مؤزراً.

ولأنّ معركة أُحد كانت من المعارك القاسية على المسلمين فقد برزتْ مواهب قتالية ملفتة عن الإمام علي عليه السلام. فقد أبدى الإمام في هذه المعركة حنكة عسكرية في التصدي لأصحاب الألوية، فقتل معظم من حمل لواء

---

(١) الحسني سيرة الأئمة الإثني عشر ج٢، ص٢٠٠.

المشركين في هذه المعركة كما ذكرنا، وقيل إنه قتل تمام التسعة الذين حملوا اللواء. وقد أضاف هذا العمل الشجاع شرخاً آخر في جبهة المشركين. وحتى بعد أن انقلبت موازين المعركة لصالح المشركين كان للإمام أمير المؤمنين عليه السلام دورٌ هام في التصدي للمشركين. فقد عمل المستحيل من أجل إعادة وضع ساحة المواجهة إلى حالتها الطبيعية التي كانت فيها، فكان يخطو بخطوات سريعة وصولاً لحالة التوازن حيث لم يحقق المشركون ما كانوا يصبون إليه وهو توجيه ضربة قاضية للمسلمين تُصفي وجودهم في جزيرة العرب.

وعندما لاح لقريش أنها فشلت في تصفية الكيان الإسلامي عادت تتهيأ مرةً أخرى لتوجيه الضربة النهائية وذلك بالتحالف مع القبائل الجاهلية الأخرى، فجاء أبو سفيان ومعه أربعة آلاف مقاتل من قُريش، وجاءت سليم ومعها سبعمائة بقيادة سفيان بن عبد الشمس وهو حليف حرب بن أُمية، وخرج بنو أسد وفزارة في ألف مقاتل كما جاءت معهم أشجع، وبني مُرّة حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل فملأوا البوادي المحيطة بالمدينة من كل جانب وقد ارتأى النبي صلى الله عليه وآله البقاء في المدينة واكتفى بحفر خندق حولها بعد أن استشار أصحابه فأشار عليه سليمان أن يعمل ذلك.

وغضب المشركون عندما أصبحوا وجهاً لوجه مع هذا التكتيك الحربي الذي لم يسبق لهم أن عرفوه، لكن اندفاعاتهم كانت أقوى وحماسهم للقضاء على الإسلام لم يوقفه حد. فهذه القبائل كلها قد جاءت للقضاء على الإسلام وهي الفرصة الأخيرة لتحقيق ما عجزت عنه قُريش في بدرٍ وأُحد.

فالمشركون أظهروا إصراراً كبيراً على اقتحام المدينة فرغبتهم في القتال كانت كبيرة وهي نتيجة طبيعية لتلك الكثرة من المقاتلين الذين أحاطوا بالمدينة من كل جانب ومكان.

وتقدم أبطال قريش مزهوِّين بجيشهم الجرار، وهم عمرو بن ود العامري وكان يُعادل بألف كما وصفه المؤرخون وجاء معه عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطّاب.

أقبلوا يستعرضون قوتهم وزهوهم أمام المسلمين الذين أخذهم الخوف والهلع مما شاهدوه.

وأخذ الأبطال يستعرضون قوتهم على طول الخندق، وما أن وجدوا ثغرة حتى عبروا إلى الطرف الآخر فازداد المسلمون خوفاً على خوفهم وأصبحوا واثقين من أن الحرب واقعة لا محالة، فهذا جيش المشركين وهؤلاء طلائعهم وهذا فارسهم عمرو بن ود العامري يَطلب المبارزة..

لكن من يستطيع أن يقول أنا له.. فهو المشهور بالشجاعة والبطولة يَشهد له العرب بأنه فارس يليل.. فانتهزها عمرو فرصة ليسخر من عقائد المسلمين ويتحداهم إن كانوا على حق فرفع صوته..

أين جنتكم التي تزعمون أن من قُتل منكم دخلها أفلا يحبُ أحدٌ منكم أن يذهب إليها؟

عند هذا الحد لم يطق علي عليه السلام إلاّ أن يكون هو المجيب.. فتقدم إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال له أنا له يا رسول الله فأجلسه الرسول.

وللمرة الثانية والثالثة طالب عمرو المبارزة فلم يكن يجيبه أحد إلاّ عليّ.. وفي كل مرة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطلب منه الجلوس، ولا ندري ما الذي كان يجول في خاطر رسول الله في تلك اللحظات الحرجة من تأريخ الإسلام.

هل كان يخشى على علي عليه السلام؟

أم كان يُريد بإجلاسه المكرر لعلي إبراز هذا الدور التأريخي لابن عمه كي يبقى شاخصاً عبر الزمن يتناقله عشاق البطولة والأبطال جيلاً بعد جيل.

ولعله كان يريد اختبار بقية الصحابة الذين سيطر عليهم الخوف وربما كان من حقهم أن يخافوا لأن المنازلة مع عمرو بن ود هي موتٌ محقق.. لكن ليس من الإنصاف أن يترددوا في الإجابة على نداء رسول الله ﷺ وقد ضمن لمن يُقتل الجنة، فقد كان يكرر ويقول: من يبرز له وأنا الضامن على الله له الجنة.

ولم يكن من الصالح الإنتظار أكثر من هذا إذ أن التباطؤ في مواجهة عمرو يعني دفع معنويات المسلمين إلى المزيد من الإنهيار. وهذه معركة فاصلة يتقرر فيها مصير الإسلام لأن الشرك قد قدم بكل عدده وعُدته.

أذِنَ النبي ﷺ لعلي فأعطاه سيفه وألبسه درعه وعمامته ورفع كلتا يديه وقال اللهم إنك أخذت عُبيدة يوم بدر وحمزة يوم أُحد وهذا علي أخي وابن عمي فلا تدعني فرداً وأنت خير الوارثين.

وبرز علي عليه السلام تسبقه إلى ساحة المعركة كلمات رسول الله ﷺ.

برز الإيمان كله إلى الشرك كله[1].

أصبح الإثنان وجهاً لوجه.

ومرت لحظات من الذهول على المعسكرين.

المسلمون من جانب كانوا بإنتظار ما سيحدث بعد ساعة بل بعد لحظات، هل سيسقط عمرو بن ود وتنتهي المعركة لصالحهم أم سيستشهد علي فتكون الطامة الكبرى.

والمشركون من ناحية كانوا يتوقعون مصير هذه الجولة بطمأنينة لأنهم كانوا على ثقة بأن عمرو بن ود سيحسم المعركة لصالحهم.

أما عمرو بن ود فقد كان لقاؤه مع علي مفاجأة له.. فهو لا زال شاباً في مقتبل العمر وربما دار في خَلَد عمرو بن ود هذا التساؤل من هذا

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٤، ص٣٢٤.

الشاب الذي تنازل عن حياته وتجرأ للقائه بعد أن تثاقل الجميع.

فالتفت إليه وبادره بالسؤال:

مَن أنت؟

أنا علي بن أبي طالب.

وتزاحمت في ذاكرة عمرو الأسماء والخواطر... من هو صاحب هذا الإسم.

فهذا علي.. أجل الشخص الذي قتل الأبطال في بدر وهزم جيش قُريش في كل المعارك.

هذا هو علي بن أبي طالب والنزال معه معروف النتائج.

فقال له بأدب:

يابن أخي إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فأرجع وراءك خيرٌ لك.

أدرك علي عليه السلام مغزى العبارة وعرف ما يجول في خاطر عمرو ووجدها فرصة ذهبية لأن يعرض عليه الإسلام فهو رجل هداية قبل أن يكون رجل حرب.

قال له: إن قريش تتحدث عنك أنك تقول: لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلاّ أجبت ولو إلى واحدة منها.

قال عمرو: أجل.

فقال له علي: فإني أدعوك إلى الإسلام.

دع عنك هذه.

فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة.

إذن تتحدث عني نساء مكة أن غُلاماً مثلك خدعني.

فإني أدعوك إلى البراز.

إني لا أحب أن أقتلك.

ولكني أحبُّ أن أقتلك.

فاغتاظ عمرو وبغضب نزل عن فرسه وعَقَرَهُ ثم أقبل على علي عليه السلام فتقاتلا، ضربه عمرو بسيفه فاتقاه عليّ بدرقته فأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط يخور بدمه، فعلا صوت المسلمين بالتكبير وفرّ أصحابه من هول ما شاهدوا فلحق بهم علي عليه السلام فسقط نوفل ابن عبد الله في الخندق فنزل إليه عليّ فَقَتَلَهُ[1].

وتلقت قريش هذه الضربة القاسية باستغراب لأنها لم تكن تتوقع أن أحداً يجرؤ على قتل عمرو بن ود، فدبّ الخوف في نفوسهم إلاّ إنهم ظلوا محاصرين للمدينة مدة من الزمن ولم يفكوا الحصار عنها إلاّ بعد أن استخدم النبي تكتيكاً حربياً فجرّ الخلاف بين الأطراف العديدة المشاركة في الحرب. فتفرق الجمع على أثر هذا التكتيك وعاد كل فريق إلى مكانه خائباً.

وفي خيبر ظلّ القتال مستمراً أياماً دون أن تُلحَق الهزيمة باليهود المتحصنين في حصون منيعة وكما جاء في سيرة ابن هشام والطبري والكامل في التأريخ إن الرسول صلى الله عليه وآله أخذ يولي القيادة كل يومٍ رجلاً من أصحابه ويرجع دون نتيجة، فنفذ صبر المسلمين وكاد ينتهي ما عندهم من زاد. فكان لا بدّ من حسم لهذا الوضع فرفعَ النبي صوته في جمع المسلمين وقال والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرارٌ غير فرار.

لو أحطنا بالموقف العسكري في جبهة المسلمين العاجز عن حسم

---

(١) الحسني سيرة المصطفى ٤٩٢، ابن الأثير الكامل في التأريخ ج٢، ص١٨١.

المعركة لصالحهم لعرفنا أهمية العبارة التي أطلقها رسول الله ﷺ والتي اشتمّ منها المسلمون رائحة النصر على يد القائد الموعود.

لكن من سيكون ذلك القائد الذي سيحقق الله النصر على يده بعد أن فشل الآخرون؟

فمن سيكون هذا الشجاع الذي سيواصل المعركة مع اليهود ولن يعود خائباً؟ ومن هو ذلك الرجل الذي وصفه رسول الله ﷺ بأبلغ وصف عندما قال عنه إنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. وكرّار غير فرّار.

أراد النبي ﷺ أن يكون الإعلان عن اسم القائد مفاجأة للمسلمين، حتى يدركوا أهميته وشخصيته الفذة من خلال تلك العبارة المقتضبة، ومن خلال التفكير المتواصل طيلة يوم كامل عمن هو المعنيّ بكلام النبي ﷺ، حتى إن الخليفة عمر بن الخطاب تمنى أن يكون هو صاحب الراية فقال كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية.

إني ما أحببت الإمارة إلاّ ذلك اليوم وتمنيت أن أعطي الراية بعد أن سمعت ذلك من رسول الله ﷺ.

واستيقظ المسلمون في صباح اليوم التالي والتفوا حول النبي ﷺ ينتظرون منه الإفصاح عن إسم القائد، فأدار النبي ﷺ ببصره وتصفح الوجوه فقال أين علي فقيل له إنه أرمد فاستدعاه فجيء به فمسح على عينيه بيده ودعا له فبرئت فأعطاه الراية وقال له خذ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك وقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. ويروي أحد أفراد الجيش وهو سلمة بن الأكوع ما حدث بعد ذلك: انطلق علي يُهرول هرولة ونحن خلفه نتبع أثره حتى ركّز الراية فوق حجارة مجتمعة تحت الحصن فأطلّ عليها يهودي من رأس الحصن وقال من أنت؟

قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي علوتمُ وما أُنزل على موسى.

وقيل ان النبي ﷺ أخبر علياً، إذا طلب اليهود اسمه فيقول له إيليا فقد ورد في كتبهم إن حصونهم تتهاوى على يد قائد اسمه إيليا، ولما أجاب علي عليه السلام بما ذكره له النبي ﷺ أيقن اليهود بأنهم مغلوبون.

وتقدّم علي عليه السلام نحو الحصن وقد أحاط به أبطال اليهود وفرسانهم فقضى عليهم بأجمعهم وكان من بينهم الحارث أخو مرحب وكان مشهوراً بالشجاعة، فلما سمع بمقتل أخيه خرج من الحصن وهجم على الإمام عليه السلام فبارزه الإمام، وكانت النتيجة مقتل مرحب وتقدم الإمام نحو بقية الجيش يقول المؤرخون: إن علياً تناول باباً كان عند الحصن طوله ثمانون شبراً وتترّس بالباب حتى انهزم الجيش فوضع الباب فوق الخندق الذي شقه اليهود حول الحصن وأمر المقاتلين بالزحف نحو الحصن بعد اجتياز الباب.

وذكر المؤرخون عن أبي رافع خادم رسول الله ﷺ، قوله:

لقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[1].

يتبين مما تقدم من وصف للمعارك الأولى في صدر الإسلام إنها حُسمت لصالح المسلمين بفعل الشجاعة النادرة للإمام علي عليه السلام وإن النجاح في المعركة كان مرهوناً بالخطة العسكرية التي كان ينفّذها. كانت خطة الإمام تتركز على السرعة في المبادرة للقضاء على القوة الضاربة للعدو ومن ثم بعث الخوف والهلع في الجيش المعادي الذي سيجد نفسه غير قادر على الصمود ومواصلة الحرب فيختار أحد الحلين إما الفرار أو الإستسلام واستطاع الإمام علي عليه السلام بمواقفه البطولية هذه أن يكون صورة تبعث على الخوف والرُعب في أذهان أعداء الإسلام، فكان مجرد مشاركته في المعركة تكفي لنشر الخوف في نفوس الأعداء فحضوره الدائم بمثابة

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٢٠.

قوة عسكرية ومعنوية تمنح الجيش الإسلامي حالة من التفوق العسكري.

ولذلك كان رسولِ الله يعمل على استثمار هذه النظرة المشوبة بالخوف في جميع معاركه فكان يعطيه الراية في أكثر الحروب التي خاضها ليُزيد هلع المشركين وخوفهم على أرواحهم.

ثانياً: رجل المهمات

في الطريق نحو ترسيخ الدولة الإسلامية كانت تواجه المسلمين مشكلات وعقد عسكرية واجتماعية لم يكن من السهل حلها وكثير من هذه المشكلات كانت نتيجة أخطاء بعض من كانت تناط بهم مسؤولية عسكرية أو إدارية، ففي مثل تلك الحالات المستعصية كان رسول الله ينتدب ابن عمه علي بن أبي طالب لحلها فقد كان على ثقة تامة بحنكته السياسية وحكمته في إدارة المشكلات المعقدة.

وفيما يلي نماذج من تلك الحالات المستعصية التي كان لها الإمام علي عليه السلام:

من الأخطاء التي وقعت في صدر الإسلام، استيلاء القوات الإسلامية على مغانم لبني جُذام وهم لا يعرفون أنهم مسلمون. فقد سبق لزعيمهم رفاعة بن زيد أن التقى بالنبي صلى الله عليه وآله في فترة هدنة الحُديبية، وأهدى لرسول الله غُلاماً وكان رفاعة قد أسلم وحمل معه كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام، فأسلم قومه ولا علم للمسليمن بما حدث لأن الإسلام في تلك المرحلة كان ينتشر بصورة ذاتية ولم يكن بمقدور المسلمين معرفة من أسلم ومن لم يُسلم سيما الذين كانوا يقطنون المناطق النائية، واتفق في تلك الفترة أن دحية بن خليفة الكلبي رسول النبي صلى الله عليه وآله إلى قيصر قد مرّ بأرض جُذام أثناء عودته إلى المدينة بعد إبلاغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قيصر وفي الطريق كمن له الهُنيد بن عُوص الضُليعيان وهو

على رأس فرقة من قُطّاع الطرق فسرقوا من دحية كل شيء فبلغ خبر الحادثة مسامع بني الضُبيّب جماعة رفاعة بن زيد فحاربوا الخُنيد واستردوا منه ما سلبوه من دحيّة فأعادوه إليه وانتشر خير ذلك إلى النبي فسارع إلى إرسال خبر سرية من المقاتلين لمعاقبة الهنيد بن عوص وأناط قيادة السرية بزيد بن حارثة الذي زحف بقواده نحو المنطقة التي يقطن فيها هنيد بن عوص فقتلوه هو وابنه وأسروا الباقين.

ولأن الضليعيان والضبيب[1] يسكنان مكاناً واحداً في الطريق بين الشام والمدينة، فقد امتدّ السبي ليشملهم أيضاً ولم يعرف زيد بأنهم مسلمون وهم يختلفون مع الهنيد ولا يرضون بعمله وجاء بعضهم إلى زيد وقالوا له انهم مسلمون. ولكي يتأكد زيد من ذلك طلب من أحدهم أن يقرأ أُم الكتاب فقرأها أحدهم واسمه حسان بن ملّة عند ذاك طلب زيد من الجيش أن يعيدوا الأموال إلى أصحابها إلاّ أن بعض قادة السريّة لم يرتح من هذا القرار واعتقد أنه من غير الممكن اقناع أفراد الجيش بإعادة الغنائم إلى أصحابها، فبدافع الطمع أخذ هؤلاء القواد يشككون أمام زيد في صحة ادعاء العشيرة بأنها مسلمة، فاضطر زيد وأمام إلحاح ضباطه أن يحتاط في تسليم السبايا[2] عندها عاد هؤلاء الجذاميون إلى زعيمهم رفاعة بن زيد وهو في مزرعته وبين أمواله ولم يكن يدري بالذي حدث.

فقالوا له: إنك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام اسارى قد غرهن كتابك الذي جئت به «أي الكتاب الذي حمله الرسول ﷺ» فسار رفاعة والقوم معه إلى المدينة وأخبروه بالذي وقع لهم وأدرك الرسول ﷺ الملابسات التي عقدت الأمر فبعض المسلمين لم يستقر الإيمان في قلوبهم بعد ولم يندفعوا إلى الإسلام إلا لكسب الغنائم، فبعض أفراد السرية من

---

(١) الضليعيان والضبيّب بطنان من جذام.

(٢) إبن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٠٨

هذا النمط وهم الذين سايروا الإسلام طمعاً في الدنيا فلا يختلف عندهم المسلم عن غير المسلم المهم عندهم هو كيف يحصلوا على الغنائم؟

ومن ناحية أخرى كان قد وقع التباس فعلاً حول هوية القبيلة التي أُغير عليها إذ لم يعرف أحد بإسلامهم إلا رسول الله ﷺ إذ كان أمر الكتاب الذي أرسله به إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام سراً بين رئيس القبيلة ورسول الله ﷺ.

ولم يشأ الكشف عن ذلك إلا بحضور رسول الله نفسه وربما ظن بأن أحداً لا يصدقه إن أراد أن يكشف عن سر الكتاب أو أنه أدرك مغزى هذا الإمتناع عن استرداد الأسرى وهو طمع بعض قواد الجيش بالغنائم فوجد أن المشكلة لا يحلها إلاّ رسول الله نفسه. ووجد رسول الله أنه يواجه معضلة لا يستطيع حلها إلا علي بن أبي طالب فهو بحنكته يستطيع إقناع أفراد السرية بصحة ادعاءات الجذاميين وإنه بهيبته يستطيع أن يفرض هذه الحقيقة على من يرى خلاف ذلك طمعاً بالسبايا.

وفعلاً تمكّن الإمام علي عليه السلام أن يحل المشكلة وأن يُعيد الأموال والسبايا إلى أصحابها.

وإذا كانت هذه المشكلة قد وقعت عن طريق الخطأ، فإن مشكلة أخرى مماثلة تقريباً قد وقعت بعد فتح مكة عن قصدٍ وإصرار فكانت اعقد وأصعب على الحل.

والحادثة الأخرى كما ذكرها المؤرخون وقعت في بني جذيمة وكان رسول الله ﷺ قد بعث السرايا بعد فتح مكة إلى المناطق القريبة من مكة بغية دعوتها إلى الإسلام بطرق سليمة ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن أرسلهم لهذه الغاية خالد بن الوليد ومعه ثلاثمائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار.

وسار خالد بن الوليد حتى وصل منازل بني جُذيمة، فلما عرفوا بذلك حملوا السلاح معتقدين أن المسلمين قد أغاروا عليهم إلاّ أن خالد بن الوليد طلب منهم أن يضعوا السلاح وحكى لهم قصة فتح مكة، وكيف أن قريشاً دخلت الإسلام ولم يبق من العرب أحد إلا وأسلم، فقبلت بني جذيمة هذا العرض، فوافقت أن تدخل الإسلام فأغمدت أسلحتها إلاّ أن خالداً وبعد أن أغمدوا أسلحتهم غدر بهم فطلب من جنوده أن يقيدوا الرجال بالحبال ثم قُتِلَ منهم من قُتل[1].

وكان وراء هذا العمل دوافع جاهلية، واحقاد قديمة يعود تأريخها إلى ما قبل البعثة.

فقبل سنوات من البعثة مَرّت على منازل بني جُذيمة قافلة تجارية متكونة من عوف بن عبد عوف والد عبد الرحمن والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد وقد نزلا مع نسائهما ضيوفاً على بني جُذيمة وهما في طريقهما إلى مكة من اليمن.

وبينما كان الضيفان يتأهبان لمغادرة المكان إذ هجم عليها عددٌ من أفراد القبيلة فقتلوهما وأخذوا نساءهما وتجارتهما ومرت السنين وتمكن عبد الرحمن بن عوف من أخذ الثأر لوالده بقتل واحد من بني جُذيمة ومع ذلك فقد ظلّت هذه القضية التأريخية تُحرِّك العقد الإجتماعية بين جذيمة والمغيرة.

وجاء الإسلام وسطع بنوره على العقد والعادات والتقاليد البالية فأراد محوها من سطح العلاقات الإجتماعية. إلاّ أن بعض النفوس لم تكن قد صفت من الشوائب فقد كانت هذه النفوس تعود إلى جذورها كلما حانت لها الفرص إلى ذلك.

---

(١) ابن الأثير الكامل في التأريخ ج٢، ص٢٥٦.

وفي مثل قضية بني جذيمة يُطالعنا التأريخ عن نموذج آخر من بقايا الروح الجاهلية فقد قتل خالد بن الوليد جمعاً من بني جذيمة انتقاماً لعمه الفاكه[١].

وبعد فعلته هذه أدرك فداحة ما ارتكبه من جُرم فأخذ يبحث عن مسوغ يبرر به قتله لبني جُذيمة فمرة كان يقول: إن عبد الله بن حُذافة السهمي أمره بذلك عن رسول الله[٢] وهو كذبٌ صارخ. وتارةً يدعي أنه قتل بني جُذيمة ثأراً لوالد عبد الرحمن بن عوف حتى يُظهر أنه كان مدفوعاً من قبل عبد الرحمن بن عوف إلاّ أن التأريخ ينقل لنا أن عبد الرحمن نفسه كان مخالفاً لخالد وقد انتقده على فعلته. فيذكر لنا ابن الأثير هذا الحوار بين الإثنين:

قال عبد الرحمن لخالد: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام.

فقال خالد: إنما ثأرتُ لأبيك.

قال عبد الرحمن: كذبت قد قَتَلتُ أنا قاتل أبي ولكنك إنما ثأرت بعلمك[٣].

وانتشر خبر الحادثة ووصلت تفاصيلها إلى مسامع النبي ﷺ فرفع يده إلى السماء قائلاً:

اللهم إني أبرأُ إليك مما صنع خالد بن الوليد.

ولم يكتفِ بالدعاء بل استدعى علي بن أبي طالب عليه السلام وزوده بأموال كثيرة يستعين بها لإطفاء الفتنة وقال له وهو يتهيأ للرحيل:

أخرج إلى هؤلاء القوم وانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدمك[٤].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التأريخ ج٢، ص٢٥٦.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٥٦.
(٣) إبن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٥٦.
(٤) الحسني سيرة الأئمة الإثني عشر ج١، ص٢٣١.

فالفتنة قد بلغت حداً لا يمكن السكوت عليها وهي نذير بعودة الجاهلية على أقبح صورة فإذا لم يتحرك الرسول ﷺ وبسرعة قد تؤدي هذه الفتنة إلى زوال الثقة بين الذين أسلموا حديثاً والقيادة، ومعنى ذلك إن الفتنة كادت تحبط المحاولة الجادة لنشر الإسلام بعد فتح مكة، فكان لا بُد من معالجتها بحكمة وروية، ومن يستطيع أن يقحم نفسه في مثل هذه المشكلات المستعصية غير الإمام علي عليه السلام.

فقد ادخره النبي ﷺ لكل الأعمال الكبيرة ومنها هذه القضية.

انطلق الإمام علي عليه السلام فأعلن لعشيرة بني جذيمة عن شجبه واستنكار الرسول ﷺ لعمل خالد ودفع لهم دية القتلى وما أُصيب من أموالهم.

وبعد أن أكمل المهمة وأعاد الثقة إلى النفوس والطمأنينة إلى القلوب التفت إليهم وقال لهم: هل بقي لكم شيء من مال أو دم فقالوا لا ومع ذلك فقد وزّع عليهم ما تبقى له من المال لاخماد ما تبقى من رماد الاضطهاد والاحساس بالظلم.. ثم عاد علي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من مهمته وقدم للقائد تقريراً بذلك فقال له: أحسنت وأصبت.

وهفوة أخرى وقع فيها الجيش الإسلامي الزاحف نحو مكة لفتحها من أيدي المشركين كادت أن تؤدي إلى كارثة فأسرع رسول الله ﷺ واستنجد بالإمام علي عليه السلام لمعالجة الموقف.

بدأت المشكلة هكذا، قسّم رسول الله ﷺ المسلمين إلى ثلاثة أقسام وأمر كل قسم أن يدخل مكة من نقطة معينة وأمر الجميع بأن يضعوا سيوفهم في الأغماد وأن لا يقتلوا أحداً وأن يكون دخولهم لمكة بصورة سليمة.

والمجموعة التي أوكل لها دخول مكة من نقطة (كداء) تحت قيادة سعد بن عبادة، وقد أخذه الحماس وهو يقتحم أسوار الشرك فرفع صوته قائلاً:

اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحُرمَة، فسمعها أحد المهاجرين فنقلها إلى رسول الله ﷺ فغضب الرسول لهذه العبارة لأنها كانت تخالف الاستراتيجية التي حددّها للمسلمين أثناء دخولهم مكة، فقد قرر أن يكون دخولهم لمكة سليماً للحفاظ على قُدسية بيت الله الحرام.

أما مقولة سعد بن عبادة فبالإضافة إلى ما تحملها من عدم انصياع لأوامر القيادة فإنها تثير ما كمن في القلوب خلال المواجهة المريرة مع المشركين ومن شأنها أن تطلق العنان لحملات الثأر أن تتفجّر وهذا يعني إعلان المواجهة السافرة وانفلات الأمور من أيدي القيادة وهو مخالفٌ تماماً للخُطة التي وضعها رسول الله ﷺ. ولمعالجة الموقف على عجل أرسل رسول الله ﷺ الإمام علي عليه السلام وأمره أن يأخذ الراية من يد سعد بن عُبادة قائلاً له: أدركه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها[1].

واستُبدل شعار سعد بن عبادة بهذه الصيغة اليوم يوم المرحمة اليوم تصول الحُرمة.

وأخَذَ رسول الله ﷺ يردد هذا الشعار ومعه كافة المسلمين الأمر الذي أدى إلى فتح مكة بصورة سلمية.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بإرسال علي عليه السلام لحل المشكلات المستعصية وحسب بل كان يبعثه في كل مهمة تتطلب الحنكة والشجاعة والجرأة. فعندما يعجز الآخرون عن انجاز المهام الموكلة إليهم يسعفهم بعلي عليه السلام فتلك خيبر شاهدة على قدرته الفائقة، وتلك ذات السلاسل شهادة أخرى لعلي عليه السلام في مضائه وشجاعته وجرأته. وبالإضافة إلى المهام القتالية التي ذكرناها فيما سبق هناك المهام الخاصة التي لا يستطيع القيام بها إلاّ مَن تتوفر فيه مزايا معينة.

---

(١) ابن الأثير الكامل، في التاريخ ج٢، ص٢٤٦.

وقرر الرسول ﷺ بعد أن تخلفت قُريش عن تنفيذ اتفاقية الحديبية أن يفتح مكة بصورة سلمية، وجهّز جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف مجاهِد وكانت الخطة تستوجب مفاجأة قريش بهذا الجيش فلا ترى خياراً من الإنصياع والإستسلام وبذلك تتحقق الغاية من فتح مكة سلماً.

وكان أهم عامل لإنجاح الخُطة هو السرية ومنع وصول أنباء التحشيد العسكري إلى قريش، وتسرّب الخبر إلى حاطب بن بلتعة وكان له دارٌ وأهلٌ في مكة فأراد كسب ود قادة قُريش فأرسل لهم كتاباً يحمل معلومات وافية عن تحرك الرسول ﷺ لتحرير مكة، وبعث الكتاب مع امرأة من مُزينة فأخذت الكتاب ووضعته في رأسها ولفّته في شعرها وقبل أن تتمكن مُزينة من الخروج إلى مكة لإيصال الخبر أوحى الله إلى نبيه بذلك الأمر، فأرسل علياً والزبير وأمرهما بأن يُسرعا للقبض على المرأة والحصول على الرسالة.

فجدّ الإثنان في طلب المرأة حتى وصلا إليها فأسرع الزُبير وسألها عن الكتاب فأنكرت كل ذلك وأخذت تبكي، فرق لها الزبير ورجع إلى علي عليه السلام ليخبره بأنه لم يجد عندها شيء وإنها بريئة وطلب منه الرجوع لإخبار الرسول ﷺ بذلك. رفض علي عليه السلام العودة لأنه كان واثقاً من أمر المرأة إذ لا يمكن أن يكذب رسول الله ﷺ وقد أخبره بأمر مزينة من عند الله.

قرر علي عليه السلام أن يواصل المهمة وجاء إلى المرأة فجرد سيفه في وجهها مهدداً إياها:

والله إن لم تُخرجي الكتاب لأكشفنك، فخافت المرأة وكيف لا تخشى من رجلٍ قتل الأبطال وهزم الجيوش، إن مجرد سماعها بعلي عليه السلام ومشاهدتها لسيفه وهو يلمع أمام وجهها يكفي للإعتراف بالحقيقة فأسرعت إلى إخراج الكتاب قبل أن يُنفِّذ فيها تهديده، فعاد علي عليه السلام بالكتاب إلى النبي ﷺ فنجحت الخُطة السلمية لتحرير مكة بفضل تلك المفاجأة التي

صدمت بها قريش، فشلت حركتها فلم يكن أمامها سوى الإذعان للأمر الواقع.

في السنة التاسعة للهجرة وصلت أنباء مزعجة مفادها أن الروم يتجهّزون لغزو الحجاز، فأخذ النبي ﷺ يعدُّ العُدة لمواجهة جيش الروم وبعد صعوبات بالغة تمكن من تجهيز ثلاثين ألف وقيل أربعين ألفاً من المقاتلين وقد لعب المنافقون دوراً مؤثراً في تثبيط العزائم وشلّ الهمم، فتقاعس آلاف منهم الذين بقوا في المدينة وكان يُخشى أن يقوموا بدور تخريبي بعد أن فشلت خطتهم في إحباط عملية التعبئة للقتال. وكان الرسول ﷺ يدرك خطورة هؤلاء المنافقين القابعين في المدينة وقدرتهم على تنفيذ ما يصبون إليه من تضعيف لمعنويات المسلمين وتثبيط عزائمهم.

وقرر الرسول ﷺ أن يكون برفقة المجاهدين وكان هذا يحتم عليه أن يبحث عن رجلٍ مُدبّر يستطيع أن يقوم مقامه في إدارة دَفة البلاد ويستطيع مواجهة مؤامرات المنافقين ويشلّ حركتهم التآمرية. وما كان ذلك الشخص الذي سيقع عليه الإختيار سوى علي بن أبي طالب عليه السلام. فاستخلفه في المدينة وهي الغزوة الوحيدة التي لم يشترك فيها الإمام علي عليه السلام.

وتلقى المنافقون نبأ تنصيب علي لهذه المهمة بشيء من الرّيبة لأنهم كانوا على ثقة بأن خططهم ستفشل مع وجود علي عليه السلام. فعملوا جاهدين على إلغاء هذا التنصيب. فأخذوا يبثون الشائعات وينشرون الدعايات قائلين إن محمداً لم يستخلفه في المدينة إلاّ إستثقالاً له وكُرهاً به ووصِلت الدعاية أسماع علي عليه السلام، فأراد أن يُبطلها بطريقة عملية وسريعة فأخذ سلاحه ولحق بالنبي ﷺ وهو نازل بالجُرف فقال يا نبي الله لقد زعم المنافقون بأنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني فقال له النبي ﷺ: إن المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي أما

ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1].

فرجع إلى المدينة وقام بإدارة شؤونها خير قيام.

وما أن حلّت السنة العاشرة للهجرة حتى أسلمت جزيرة العرب بأغلبها ولم يبق منها إلاّ بعض القبائل ومنها قبائل همدان في اليمن فأرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد ومعه جمعٌ من الصحابة لدعوة هذه القبيلة إلى الإسلام وظلّ خالد في اليمن ستة أشهر دون جدوى فلم يُجبه أحد[2].

إذ لم يتمكن خالد من التأثير في هذه القبيلة فبعث إلى الرسول ﷺ يُخبره بانصراف القوم عنه وعدم إيمانهم بالإسلام حينذاك بعث رسول الله ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام وطلب منه أن يُعيد خالد إلى المدينة ويحلّ محله ويُبقي من شاء وكان البراء بن عازب من بين من كان في ركب خالد بن الوليد وممن بقي في اليمن مع علي بن أبي طالب عليه السلام.

والبراء هو شاهد العيان على ما حدث في اليمن فيقول:

كنت ممن خرج مع خالد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يُجيبوا ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وأمره أن يقفل خالداً ويكون مكانه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا وصلى بنا علي ثم صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ بإسلامهم فأسلمت همدان جميعاً[3] وقيل إن الحادثة وقعت في السنة الثامنة للهجرة وإن لعلي ثلاث مهمات في اليمن الأولى في السنة الثامنة

---

(١) ذكره جمعٌ من المؤرخين والمحدثين منهم أصحاب الصحاح الستة ج١، ص٢٩٩ من فضائل الخمسة من الصحاح الستة وج٢، ص٢٠٣ من الخصائص للنسائي وذَكَرَهُ ابن الأثير في الكامل ج٢، ص٢٧٨.

(٢) إبن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٣٠٠.

(٣) الأمين السيد محسن أعيان الشيعة ج١، ص٤١٠.

والثانية بين الثامنة والتاسعة والثالثة في السنة العاشرة للهجرة.

وهنا يتجلى بُعدٌ آخر من أبعاد شخصية الإمام علي عليه السلام وهو القدرة الخارقة في التأثير والإقناع بحيث أن العشيرة آمنت بالإسلام في يوم واحد بعد أن ظلت ستة أشهر رافضة للإسلام.

وأرسل علي بن أبي طالب عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالخبر السار فخرّ رسول الله صلى الله عليه وآله ساجداً[1] ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان.

وظلت قبيلة همدان في ركب الإمام علي عليه السلام ومن أخلص الناس إليه وكان لها دور هام في التأريخ أثناء المعارك التي خاضها الإمام علي عليه السلام مع التيار الأموي والتيار الإنحرافي المتمثل بالخوارج، فقد كانت همدان مفخرة للتأريخ وطالما مجّد الإمام عليّ مواقفها في حروبه القاسية مع النظام الأموي. فهو الذي كان يُردد دائماً.

ولو كنتُ بواباً على باب جنة لقلتُ لهمدان أدخلوا بسلام

وقد سجّل التاريخ السياسة الحكيمة للإمام علي عليه السلام في اليمن التي أدت إلى اذعان هذه القبيلة وتفانيها في الإسلام كمنقبة خالدة من مناقب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وإذا ما أضفنا هذه اللقطات التأريخية إلى اللقطات السابقة لأدركنا أبعاداً أخرى لشخصية الإمام علي عليه السلام فهو لم يكن فقط البطل الشجاع الذي يهابه الأعداء متى سمعوا باسمه والذي كان وجوده في معسكر المسلمين السبب المباشر لانتصارهم في أغلب الحروب بل جمع إلى جانب البطولة القدرة الكبيرة في البيان والإقناع والقدرة الكبيرة على الإدارة والقضاء، فقد بعثه النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى إلى اليمن ليقضي بين أهلها وذكر المؤرخون جملة من القضايا التي صادفته في اليمن والتي كشفت عن ذكاء خارق وحنكة كبيرة.

---

(١) إبن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٣٠٠.

لقد خاض علي بن أبي طالب كل تلك التجارب والتي أضافت إلى مؤهلاته الأخرى قدرات قيادية جديدة أهَّلتهُ لقيادة الأُمة الإسلامية، فهو مارس وظيفة إدارة الدولة عندما استخلصه النبي ﷺ على المدينة في غزوة تبوك، وقام بأعمال كبيرة لإحباط مؤامرات المنافقين فأوجدت لديه قدرة خارقة لكشف المؤامرات قبل وقوعها وسنعرض ذلك من خلال مطالعة سيرته في الحكم كيف كان يكتشف المؤامرة قبل وقوعها.

وقد مكنه حضوره المستمر في الأزمات من مواجهة كل أزمة سياسية وإجتماعية وإذا عرفنا أن فترة حكمه كانت فترة أزمات في التأريخ الإسلامي لأدركنا عظمة شخصية الإمام عليه السلام حيث تمكن من التصدي لها.

فلم يحنِ هامته لأكبر أزمة واجهته بل وقف يواجهها بروح إسلامية عالية وبصدر كبير. وأخذ يرمي بها بوابل من المبادىء والقيم والمُثل.

ثالثاً: التمثيل الرسمي

مهما أردنا أن نستوضح العلاقة القائمة بين الرسول الأكرم ﷺ والإمام علي عليه السلام لعجزنا عن الوصف لأننا كلما توغلنا في البحث اكتشفنا بُعداً آخر من هذه العلاقة، فهي علاقة مُعلم وتلميذ. فقد علمه ألف باب من العلم وهي علاقة أب لإبنه، لأنه إبنه بالتربية وهي علاقة أخ لأخيه في نطاق الأخوّه الإسلامية التي جمعت كل المسلمين في علاقة مشتركة واحدة، وهي علاقة ابن عم لإبن عمه من حيث النسب والإرتباط العائلي. وهي علاقة والد الزوجة مع صهره فهو زوج ابنته وعزيزته فاطمة الزهراء عليها السلام.

وهي علاقة رجل العائلة الكبير مع امتداده النسبي.

فعليٌّ عليه السلام هو الذي حفظ لرسول الله ﷺ نسله من بنته فاطمة الزهراء. وهي علاقة قائد مع جنديّه. إذ كان جُندياً مطيعاً لا يلوي عنقه لأي أمرٍ يُصدر إليه.

وهي علاقة رئيس دولة مع مساعده الأول حيث كان علي أقرب الناس إليه يستشيره في كل شيء ويكتب له مواثيقه وعهوده.

وكان حاصل جمع هذه العلائق المتينة أن أصبح علي عليه السلام ممثلاً لرسول الله بمفهوم أعمق مما هو متداول في العُرف السياسي.

فقد كان علي عليه السلام هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بصريح الآية الكريمة ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وليس هناك تعبير أشمل وأدق وأوسع من تعبير القرآن الكريم في ترسيم مفهوم التمثيل.

وهكذا كان علي عليه السلام يتصرف بما يريده الرسول صلى الله عليه وآله وما يُفكر به فلو فرضنا جدلاً إن الرسول صلى الله عليه وآله كان في مكان علي عليه السلام لكان قد عَمِلَ نفس الشيء. فقد بلغ التواصلُ الروحي بين الإثنين حداً يصعب على المؤرخ أن يجد أية فروق بينهما إلاّ فرق النبوة. وهذه الفكرة تلقي بظلال ساطعة على سيرة الإمام علي عليه السلام خلال فترة حكمه، وليس أدل على أحقيته في تلك المواقف التي وقفها، عندما نتصور رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواقف. فهل كان يعمل غير الذي عمله علي عليه السلام.

هل كان يسكت على من حمل السلاح بوجهه وأراد شق عصا المسلمين.

إن عبارة ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ هي المنطلق الذي يجب أن نحاكم به كل الذين وقفوا بوجه الإمام علي عليه السلام ومن خلال هذا المنطلق يجب أن ندرس حياة الإمام عليه السلام ونتعرف على مواقفه من الزبير وطلحة ومعاوية وكل من حَمَلَ السلاح بوجهه.

إن رزمة من الأحاديث والروايات التي قيلت في الإمام علي عليه السلام تتجانس تماماً مع هذه العبارة التي سجلها القرآن الكريم وسجلها التأريخ في الحادثة التي ذكرها المؤرخون.

وَفَدَ إلى المدينة جماعة من نصارى نجران، وكانت الغاية التحاور مع المسلمين بهدف التشكيك في دينهم وكان يضم الوفد عدداً من القساوسة وقد قضوا فترة في المدينة يتحاجون مع النبي ﷺ يسألونه الأسئلة المبهمة فيجيبهم عنها فلم يبق لهُم عُذر إلاّ الإيمان أو المصالحة وقد نوّهت الآية الكريمة عن ذلك.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

فعندما جاؤوا للمحاججة ـ دعاهم النبي ﷺ للمباهلة، فطلبوا مهلة حتى يستشيروا زعيمهم وعندما استشاروا العاقب دعاهم إلى الموادعة وفي الغد عندما حضروا المكان المقرر وجدوا النبي ﷺ، محتضناً الحسن وآخذاً بيد الحسين وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ خلفها.

فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يُزيل الجبال لأزالها ولم يباهلوا وصالحوه على ألفي حلّة ثمن كل حلة أربعون درهماً[2].

في السنة العاشرة للهجرة أصبحت السيادة في جزيرة العرب كاملة للإسلام، فأصبح للإسلام كيانٌ سياسي وشعبٌ وأرضٌ وحدود ولم يعد هناك مكانٌ للشرك والوثنية على تلك الأرض التي طَهُرت بالإسلام فكان لا بد من تصفية أي وجود آخر غير الإسلام. فمن غير الممكن القبول بوجود تجمُّع دخيل إلاّ أن يكون تجمعاً غير معادٍ وتحت مظلة الإسلام فنزلت

---

(١) أجمع المفسرون على كلمة أنفسنا المقصود بها علي عليه السلام لأن المرء لا يمكن أن يدعو نفسه إلاّ كناية عن الغير وقد أجمع المؤرخون أن المشاركين في المباهلة هم الحَسَنان وفاطمة وعلي فقط.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٩٣.

سورة البراءة لتحدد معالم المرحلة الجديدة ولترسم معالم العلاقة مع القبائل الوثنية. فقد منح القرآن الكريم وهو دستور الدولة مهلة أربعة أشهر لكل القوى غير الإسلامية لتحدد موقفها وعلاقتها مع التجمع الإسلامي، فالتي نقضت عهدها لا عهد لها مع الإسلام، أمّا التي وفت بعهدها فالمسلمون يمضون معها حتى نهاية الأجل.. كما وقررت الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فلا حق لهم بالحج بعد عامهم هذا ولا حق لهم بالطواف في البيت وهم عراة وكان المطلوب أن تُذاع هذه السورة في الملأ أمام المشركين. وكان أفضل مكان لقراءة هذا البيان هو البيت الحرام وأفضل وقت له هو اليوم العاشر من ذي الحجة حيث سيجتمع المشركون من كل مكان ويلتقون في هذا المحل العام.

حينها ستتوفر كل الشرائط المطلوبة لنشر هذا الإعلان بين القبائل غير المسلمة.

ويورد المؤرخون أن النبي ﷺ أرسل في بداية الأمر الخليفة الأول أبي بكر، وإذا بالوحي ينزل عليه ويأمرُه أن يرسل علياً مكان أبي بكر[1].

فمضى علي نحو مكة وهو على ناقة رسول الله حتى التحق بأبي بكر في ذي الحليفة فلما سمع رغاء الناقة عرفها فخرج فزعاً وهو يظنُه رسول الله ﷺ وإذا هو عليٌّ فأخذ الآيات منه ورجع أبو بكر إلى المدينة خائفاً أن يكون قد نزل فيه ما يُغضب النبي، فقال يا رسول الله أنزَل فيّ شيء فقال النبي ﷺ لا ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجلٌ مني[2].

وربما كان وراء قرار النبي ﷺ باستبدال أبي بكر بعلي هو ما يلي:

---

(١) ورد ذلك في البداية والنهاية وفي الكامل في التأريخ وأوردته كتب الحديث أجمعها ومنها الصحاح الستة وقد جمع صاحب كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة في الجزء ١٢ الصفحة ٣٤٣ وما بعدها كل ما ورد في هذا الشأن.

(٢) ابن الأثير الكامل في التأريخ ج٢، ص٢٩١.

١ ـ المواد الأربعة في اعلان البراءة هي بمثابة الإمضاء على عهد جديد حيث تقرر انتهاء العمل بموجب الاتفاقيات المُبرمة عند انتهاء أجلها وهذا يقضي حضور رئيس الدولة أو مَن ينوب عنه ممن هو أقرب الناس إليه.

٢ ـ اقتضاء الإعلان وما يحملُه من جدية وقرارات حاسمة وخطيرة أن يكون من يتلوه رجلاً معروفاً بالشجاعة والمهابة يستطيع أن يقذف الرُعب في قلوب المشركين أثناء تلاوته للبيان. إذ لا يمكن أن نتجاهل دور الإلقاء في مثل هذه المواقف فلنتصور الموقف برمته في تلك اللحظة التي تجتمع فيها القبائل غير المُسلمة من كل أطراف الجزيرة، ولنتصور ردود فعلها عندما تسمع بتلك القرارات الحاسمة لا يحق لأفرادها دخول مكة في العام القادم، ولا يحق لهم الطواف وهم عراة كما كانوا يفعلون في الماضي، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدته ولا يدخلن الجنة مُشرك فقد كان لا بُدّ لهذه القرارات من وقعٍ قوي وسريع على المشركين يُلزمهم تطبيقها وبالتالي تدفعهم إلى الإسلام إن أرادوا العيش في الجزيرة. فكان لا بُدّ من إيجاد جو من القوة والجدية أثناء تلاوة البيان، ومن يستطيع أن يصنع مثل ذلك الجو غير علي عليه السلام؟ الذي يهابه كل المشركين فمجرد السماع باسمه كان يبعث على الهلع والخوف. وفعلاً أصغى المشركون إلى هذا القرار بقلوب ترتعد من الخوف ثم رجعوا إلى أنفسهم وتلاوموا وقال بعضُهم لبعض.. ما تصنعون وقد أسلمت قريش فأسلموا[1] قبل انقضاء المُدّة المقررة وهي أربعة أشهر.

رابعاً: المشاور الخاص

جاء الإسلام بنظرية جديدة في الحُكم تقوم على مبدأ المشاركة الفاعلة

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٩١.

بين الشعب ومؤسسات الحُكم ومن أُسس هذه المشاركة التشاور بين الحاكم والشعب، فقد أقرّ القرآن هذا الأساس عندما ذكر ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وأمَرَ الله رسوله الكريم بإتباع هذا المبدأ عندما طلب منه وشاورهم في الأمر.

وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه قبل أن ينزل عليه الوحي ليأمره بهذا الأمر وكان من عادته مشاورة أصحابه بأجمعهم في الأمور العامة التي تتعلق بالمسلمين كافة أما في الأمور الخاصة فكان يشاور بعض الأصحاب ممن يثق برجاحة عقلهم وحصافة رأيهم ويأتي الإمام علي عليه السلام في طليعة مَن كان يحظى بثقة عالية عند رسول الله ﷺ فكان محط مشورته في أموره الخاصة وفي الأمور العامة فقد تشاور مع علي في أسرى بدر[1].

وعند تَلبُد الأجواء بالدعايات المغرضة التي كانت تمسّ رسول الله ﷺ في زوجته[2] دعا رسول الله الإمام علي عليه السلام وشاوره في أمر زوجته فقال إن النساء لكثير وسلِ الخادمة تصدقك[3].

فسأل رسول الله الخادمة فقالت والله ما أعلم إلاّ خيراً. وما كنتُ أعيبُ عليها إلاّ أنها كانت تنام عن عجينها فيأتي الداجن فيأكلُهُ.

ويواصل النبي الأكرم مشاورة الإمام علي عليه السلام في قضايا الحرب والسلم في قضاياه الخاصة والعامة واثقاً بأنه أهلٌ للمشورة ولم يكتف النبي ﷺ بذلك القدر من المشورة بل كان يشاور ابن عمه في سن قوانين الدولة أو ما نصطلح عليه بالأحكام.

فعندما نزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص١٣٦.

(٢) على رأي بعض المؤرخين المستهدفة من حديث الافك هي السيدة عائشة ورأي آخر يرى أنها السيدة ماريا القبطية.

(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص١٩٧.

نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ما ترى: دينار، قال الإمام لا يُطيقونه فقال النبي فنصف دينار قال الإمام لا يُطيقونه قال النبي: فكم قال علي: شُعيرة[2].

وفي تفسير الطبري والرازي إن هذه الآية ما عمل بها أحدٌ إلاّ علي بن أبي طالب كان معه دينار فصرفه بعشرة دراهم فكان كلما أراد مناجاة الرسول تصدق بدرهم ثم نسخت الآية قبل أن يعمل بها أحد غير علي[3].

وفي روح البيان عن عبد الله بن عمر أنه قال: كان لعلي ثلاثٌ لو كانت لي واحدةٌ منهن كانت أحبُّ إليّ من حمر النعم تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى[4].

ويذكر لنا أرباب التأريخ أن النبي ﷺ كان يخلو بعلي عليه السلام في أوقات الليل وكانا يتحدثان في شؤون الدولة وأمور المسلمين ومن البديهي أن يستشيره في الكثير من الأمور التي تهمُّ البلاد الإسلامية.

خامساً: بناء الخط الرسالي

كانت الجماعة الإسلامية تزداد عدداً وتتوسع معها المهام فتتراكم المسؤوليات على النبي ﷺ الذي كان يتحمل أعباء المسؤولية الأولى في الأُمة الإسلامية. ولكن النبي ﷺ قد أعدّ لكل شيء عدته فهو الذي أعدّ علي بن أبي طالب لمثل هذهِ المهمة، فقد أوكل إلى الإمام مهمة تربية العناصر الجديدة التي تنتمي للتجمع الإسلامي. فعندما أسلم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب سلمه النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب قائلاً له.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٢) رواه الترمذي في فتح الباري ج١٧ ص١٠٣.

(٣) الطبري جامع البيان في تفسير القرآن ج٢٨ ص٢٠ والتفسير الكبير للرازي ج٢٧ ص٢٧٠.

(٤) روح البيان ج٩، ص٤٠٦.

علّم ابن عمك الوضوء والسُنّة ورُح به إليّ.

فقد اطمأن النبي ﷺ لكفاءة علي بن أبي طالب في مجال تربية العناصر التي سيعتمد عليها الكيان الإسلامي والتي ستتحمل مسؤولية الحفاظ على المعطيات الإسلامية. فكان من أولى المهام التي قام بها علي ابن أبي طالب هو تجميع العناصر الجيدة من المسلمين في خط رسالي أخذ ينمو مع الأحداث ومع الزمن، وقد أدركنا فيما بعد كم كان لهذا الخط من أثر كبير في الحفاظ على الإسلام من الأخطار، ومن التيارات الفكرية، ومن انحراف الحكام؟ كان النبي ﷺ مشغول في توسيع القاعدة، وفي ارسال الرُسل والكُتب لجذب اعداد جديدة إلى الدين الإسلامي. وكان علي مشغولٌ هو الآخر في جذب العناصر المنتقاة ورعايتها وتربيتها على مبادىء الإسلام لتصبح عناصر إسلامية خالصة.

كان النبي ﷺ مشغولاً في توسيع الرقعة طولياً وكان علي مشغولاً في تعميق الرقعة عُرضاً فانت مهمة علي تكملة لمهمة النبي إذ لم يكن مجرد إعلان الإسلام وإقامة الشعائر والعبادات بكافٍ لبناء التجمع الرسالي الذي يفترض به أن يقوم على العقيدة الخالصة وعلى نكران الذات وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

ولطالما اهتم النبي ﷺ بهذا الخط الذي أخذ ينمو على يد علي عليه السلام لأنه الخط المكمِّل لخط النبوة ولأنه الضمانة لاستمرار الرسالة الإسلامية فوجود أفراد من أمثال سلمان والمقداد وأبي ذر وعمّار وحذيفة اليماني وغيرهم في هذا الخط يبعثُ الإطمئنان على استمرارية هذا الدين واستمرارية المبادىء والقيم الإسلامية.

وجاهد رسول الله ﷺ من أجل دعم وتقوية هذا الخط الرسالي، كان يرفده بالعناصر الجيدة التي كان النبي ﷺ يرتقب على يدها الخير، أو بإشاعة جو من الثقة بين المسلمين بهذا الخط.

فقد ذكر ابن مردويه في كتاب المناقب باسناده إلى عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال:

ـ دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت من أحب أصحابك إليك فإن كان أمر كنا معه وإن كانت نائبة من دونه قال هذا عليٌ أقدمكم سلماً وإسلاماً[1].

والظاهر من الخبر إن أبا ذر لم يكن وحده عندما سأل رسول الله بل كان معه جمعٌ من الصحابة فيهم عبد الله بن الصامت ويبدو أن أبا ذر كان يُريد اسماع الآخرين الذين حضروا الإجتماع بهذه الحقيقة وإلاّ فهو يعرف حقيقة العلاقة القائمة بين النبي ﷺ وعلي عليه السلام ويُفهم أيضاً من صيغة السؤال أن عناصر الإمام علي عليه السلام كأبي ذر وغيره كانوا يتحركون بين المسلمين في تدعيم خط الإمام فقد تركز سؤال أبي ذر على ثلاث قضايا هامة الأولى طبيعة العلاقة بين النبي ﷺ وعلي عليه السلام، وإذا وقع الإختلاف مع من يكونوا، وإذا وقعت الكارثة فبأي شيء يلوذون.

وكلها قضايا كان يتوقع وقوعها أفراد خط الإمام. وكان من فرط ذوبان أبي ذر في هذه الحقيقة إنه كان يصرّح بها في كل مناسبة. فقد تعلق بحلقة باب الكعبة يوماً من الأيام كما يذكر حذيفة بن أُسيد وكان حاضراً مع جمعٍ غفير من الصحابة عندما صاح أبو ذر بأعلى صوته..

أنا جندب لمن عرفني وأنا أبو ذر لمن لم يعرفني إني سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول من قاتلني في الأولى والثانية فهو في الثانية من شيعة الدجال، إنما مثل أهل بيتي في هذه الأمة مثل سفينة نوح في لجة البحر من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق ألا هل بلغت[2].

ويبدو أن الجمع كان غفيراً بحيث إن أبا ذر تفوّه أولاً بإسمه الحقيقي

---

(١) طبقات الشيعة ص٢٣٨.

(٢) الشيرازي علي خان طبقات الشيعة ص٢٣٩.

قبل الإسلام قبل كنيته فقد جاؤوا من كل أطراف الجزيرة العربية فأراد أبو ذر أن يستثمر الموقف ليروّج عن خط الإمام علي عليه السلام كما كان في البداية يروّج للإسلام بهذا الأسلوب وحتى آخر لحظة من حياته كان أبو ذر داعية لخط الإمام فما فتأ وهو يُعلن عن حبه لعلي عليه السلام وفضله وماضيه المشرق.

يقول أبو سُخيلة: قال حججتُ أنا وسلمان بن ربيعة فمررنا بالربذة قال فأتيت أبا ذر مسلماً عليه فقال إن كانت بعدي فتنة وهي كائنة فعليكم بكتاب الله والشيخ علي بن أبي طالب عليه السلام فإني سمعتُ رسول الله وهو يقول عليٌ أول من آمن بي وصدقني وهو أول من يصافحني يوم القيامة وهو الصديق الأكبر، وهو الفاروق بعدي يُفرق بين الحق والباطل وهو يعسوب الدين والمال يعسوب الظلمة[1].

أما سلمان (الفارسي) فكان مشمولاً برعاية خاصة من النبي صلى الله عليه وآله.

وفي الإستيعاب عن السيدة عائشة انها قالت كان لسلمان مجلسٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولو كانت صاحبة الرواية غير عائشة لقلنا فيها شيء من الغلو ولكن عندما تكون زوجة النبي صلى الله عليه وآله، هي الناقلة لهذه القضية فما لنا سوى التسليم بها لأنها أدرى بخصوصيات الرسول صلى الله عليه وآله. ويبدو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يلتقي بسلمان في بيته وليس في الأماكن العامة المخصصة للقاءات الرسول صلى الله عليه وآله مع الأصحاب وبالتأكيد هناك قضايا هامة كانت تدور بين النبي صلى الله عليه وآله وأبي ذر، إذ هو الموجب الذي يدفع بالنبي صلى الله عليه وآله لإستقبال أبي ذر في بيته الخاص وفي وقت متأخر من الليل وقد يطول الإجتماع حسب ما يفهم من حديث السيدة عائشة. ويبدو أن اللقاء كان يتكرر لأنه حسب تعبير السيدة عائشة كاد يغلبنا على رسول الله صلى الله عليه وآله فإن معنى ذلك أن هناك أموراً منتظمة كان يتم

---

(١) الشيرازي علي خان طبقات الشيعة ص٢٣٩.

التداول فيها فما هي تلك الأمور يا ترى؟

سأل أبا جعفر الباقر عليه السلام أحد رواة أحاديثهم وهو الفضيل بن يسار.

تروي ما يروي الناس إن عليّ عليه السلام قال في سلمان أدرك علم الأول وعلم الآخر؟.

أجابه الفضيل: نعم.

قال الباقر: فهل تدري ما عني؟.

أجاب فضيل: يعني علم بني إسرائيل وعلم النبي.

قال الباقر ليس هذا يعني! ولكن علم النبي وعلم علي وأمر النبي وأمر علي صلوات الله عليهما[1].

وهي بالطبع قضايا خاصة، لا يُراد لها أن تُعرف من قبل الآخرين وحتى لو كانوا مورد ثقة عند النبي صلى الله عليه وآله.

وما هي تلك القضايا الخاصة فهل كان للنبي أو لعلي قضايا شخصية تستحق هذا الإهتمام؟ أم إنها قضايا خاصة تتعلق بالكيان الإسلامي واستمرار هذا الكيان في الوجود.

وأما علاقة سلمان بعلي عليه السلام فالذي شيدها هو رسول الله صلى الله عليه وآله.

فيوماً رأى سلمان رسول الله صلى الله عليه وآله يضرب فخذ ابن عمه وهو يقول:

محبك لي محبٌ مبغضك لي مبغضٌ ومبغضي لله مبغضٌ.

وفي مرة من المرات سمع سلمان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي وهو يكنيه بإسم ولده الحسن يا أبا الحسن مثلك في أُمتي مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمن قرأها مرة فقد قرأ ثلث القرآن ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاث مرات فقد ختم القرآن.

---

(١) الشيرازي علي خان طبقات الشيعة ص٢٠٩.

فمن أحبك بلسانه فقد كمل ثلث إيمانه ومن أحبك بلسانه وقلبه فقد كمل له ثلث الإيمان ومن أحبك بلسانه وقلبه ونصرك بيده فقد استكمل الإيمان والذي بعثني بالحق نبياً يا علي لو أحبك أهل الأرض كمحبة أهل السماء لك لما عذّب الله أحداً بالنار[1].

فازداد التصاق سلمان بعلي عليه السلام وهو يسمع هذه المقولات من النبي صلى الله عليه وآله فأخذ يتبعه كظِلِهِ مُتقمصاً شخصيته فقد كان علي مثله الأعلى في الحياة كان عطاؤه من بيت المال خمسة آلاف وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين وكان يحطب في عباءةٍ يفترش نصفها فإذا خرج عطاؤه تصدق به.

وقيل ولم يكن له بيت يُظله إنما كان يدور من الظل حيث دار.

ولم يكن له بيت إنما كان يستظل بالجدار والشجر وإن رجلاً قال لي ألا أبني لك بيتاً تسكن فيه قال لا حاجة في ذلك فما زال به الرجل حتى قال له أنا أعرف البيت الذي يوافقك. قال فصفه لي قال ابني لك بيتاً إذا أنت كنت فيه أصاب رأسك سقفه وإن أنت مددت فيه رجليك أصابها الجدار فقال نعم فبنى له.

وكان سلمان يسف الخوص وهو أمير على المدائن ويبيعه ويأكل منه ويقول لا أحب أن آكل إلاّ من عمل يدي وقد كان تعلَّم سف الخوص من المدينة وكان يأكل من عمل يده ويطحن مع الخادمة ويعجم عنها إذا أرسلها في حاجة. ويقول لا تجمع عليها عملين وكان يعمل من الخوص قفافاً فيبيع ذلك بثلاثة دراهم فيرد درهماً من الخوص وينفق على عياله درهماً ويتصدق بدرهم كان لا يأكل من صدقات الناس ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال سلمان منا أهل البيت وكان غالب الناس ممن لا يعرفه يسخرونه في

---

(١) علي خان طبقات الشيعة ص٢١٣.

حمل امتعتهم من السوق لرثاثة ثيابه فربما عرفوه فيعتذرون إليه ويقولون نلحمل عنك فيقول لا حتى أصل إلى المنزل[1].

لم يترك النبي ﷺ فرصة إلاّ وأعلن عن تأييده واسناده للإمام علي عليه السلام فقد روى إبراهيم بن ديزيل الهمداني في كتاب صفين بإسناده عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبي سعيد الخدري قال كنا مع رسول الله فانقطع شسع نعله فألقاها إلى علي عليه السلام يصلحها ثم قال إن منكم من يُقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا فقال عمر بن الخطاب أنا هو يا رسول الله ﷺ؟ قال: لا ولكنه ذا خاصف النعل ويد علي عليه السلام على نعل رسول الله يصلحه قال أبو سعيد: فأتيتُ علياً عليه السلام فبشرته بذلك فلم يحفل به كأنه شيء كان قد عَلِمَهُ من قبل[2].

أما عمار بن ياسر فقد اجتمع به النبي ﷺ يوماً من الأيام على رواية أبي أيوب الأنصاري فقال له يا عمار إنه سيكون بعدي هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً وحتى يبرأ بعضهم من بعض فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي بن أبي طالب. فإن سلك الناس وادياً وسلك علي وادياً فاسلك وادي عليّ وخلّ عن الناس[3].

ويحتمل أن الرسول ﷺ بيّن هذا الأمر لعمار وهو جالسٌ بين جمع من الصحابة أحدهم ناقل الخبر وهو أبو أيوب الأنصاري.

وظلت عبارة النبي ﷺ عالقة في ذاكرة عمار فبعد وفاة النبي حدث ما حدث من تغيّر وتبدّل في مواقف الصحابة إلاّ أن عمار ظلّ على مواقفه الثابتة من علي بن أبي طالب حتى في فترة الصراع المريرة التي خاضها مع

---

(١) علي خان طبقات الشيعة ص٢١٥ ـ ٢١٦.
(٢) طبقات الشيعة ص٣٩٨.
(٣) الطبرسي مجمع البيان ج٣، ص٥٣٤.

من يعتقد البعض بهم صحابة وأئمة فلم يشك عمار لحظة أن علي على حق حتى كان يقول والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا إنّا على حق وأنهم على باطل[1].

وكان البعض يشهدون على أحقية عليّ في ذلك الصراع، من خلال موقف عمار حيث نزهه النبي ﷺ قائلاً له تقتلك الفئة الباغية.

ولم يفتر النبي ﷺ لحظة في تقوية أواصر المودة بين علي وأفراد التجمع الرسالي الذي سيكون عليها الأمل في مستقبل الإسلام.

قال أنس بن مالك، قال بعثني النبي ﷺ إلى أبي برزة الأسلمي فقال له: وأنا أسمع يا أبا برزة إن رب العالمين عهد إليّ عهداً في علي بن أبي طالب فقال إنه راية الهدى ومنار الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع من أطاعني يا أبا برزة علي بن أبي طالب أميني غداً في القيامة وصاحب رايتي يوم القيامة على مفاتيح خزائن رحمة ربي[2].

ومع الزمن اتسعت دائرة هذا التجمع الرسالي وأخذت تضم عناصر جديدة دخلت الإسلام ولم يكن وجود هذا التجمع وجوداً سياسياً وحسب بل كان وجوداً فاعلاً على الساحة الإسلامية، التي كانت ساحة متحركة فتتراكم فيها بعض السلبيات فكان لا بدّ من موقف إيجابي حتى تتواصل المسيرة، فلو اسجمعنا الأحداث التأريخية لاستطعنا أن نرصد مهام التجمع الرسالي المتمحور حول علي بن أبي طالب بهذه النقاط.

١ ـ احتلال المواقع الهامة في الدولة الإسلامية الفتية، فقد كان هذا التجمع يرفدُ الدولة بالكوادر التي يقع على عاتقها مسؤولية إدارة البلاد فقد كان على رأس الجهاز الأمني للدولة الإسلامية حذيفة بن اليمان وهو أحد أفراد هذا التجمع، وعيّن رسول الله ﷺ خالد بن سعيد أحد أفراد مدرسة

---

(١) طبقات الشيعة ٢٧١.

(٢) حلية الأولياء ج١، ص٦٨.

علي عليه السلام عيّنه مُرافقاً للوفود القادمة إلى المدينة لمقدرته الكبيرة على التحدّث وجلب إنتباه السامعين إليه.

وكان يستعمل النبي صلى الله عليه وآله عمار بن ياسر في مهام الإستطلاع العسكري.

كما أنه كان يستخدم أفراد هذا التجمع في مهمة جميع الصدقات، فبعث عُدي بن حاتم إلى طَي وبني أسد وبعث مالك بن نويرة إلى بني حنظلة وأنه بعث بعلي بن أبي طالب إلى أهل نجران أما كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهم الذين يستوجب عملهم معرفة أسرار الدولة، فكان لا بُدّ من اختيارهم ممن يوثق بهم فكان النبي صلى الله عليه وآله يستعين بأصحاب علي لشغل هذه الوظيفة، فكان كاتبه الرئيسي هو علي بن أبي طالب. وبالإضافة إلى علي كان أُبي بن كعب وعبد الله بن الأرقم ممن يقوم بهذه المهمة. فمن المُسلم به أن هذه الوظائف كانت تتضمن على أسرار الدولة وليس كل واحدٍ هو يصلح لها فكان يُختار لها أفراداً تشرّبوا الإيمان والإخلاص والتفاني في مدرسة علي عليه السلام.

٢ ـ مواجهة حالات الضعف وإسناد القيادة في المواقف الحرجة فقد دأب رسول الله صلى الله عليه وآله على مشاورة أصحابه وكانوا في بعض الأحيان يُشيرون عليه بخلاف ما يريده النبي صلى الله عليه وآله تهرباً من المسؤولية وهنا كان أفراد هذا التجمع يتحركون في إضفاء جوٍ من الإيجابية ويبطلون مفعول التيار المحافظ الذي كان يريد أن يسير بالمسلمين نحو اتخاذ مواقف تخاذلية.

ففي معركة بدر عندما استشار رسول الله أصحابه ظهر من بعض الصحابة أقوال تَنُمّ عن ضعف وتردد في خوض المعركة، فسارع المقداد بن عمرو وهو أحد أقطاب التيار الثوري الذي يقوده الإمام علي عليه السلام فتكلّم بعبارات غيَّرت الأجواء وسحنت النفوس.

قال المقداد: يا رسول الله امضِ لأمر الله فنحنُ معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون،

ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق لو سرت بها إلى برك العماد لسرنا معك.

ودفعت هذه المقالة الأنصار ليتخذوا الموقف الحازم وأن يعلنوا موقفهم في أول معركة يخوضونها ضد أهل مكة.

وفي معركة أُحد وعندما قام المنافق ابن أبي سلول بتثبيط ضعاف النفوس عن الجهاد قائلاً لهم ما ندري علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا هٰهنا أيها الناس.

سارع أحد أفراد الخط الرسالي وهو جابر بن عبد الله الأنصاري ليقف بوجه هذه الحركة المضادة لكنه لم يفلح في تغيير موقف المرتدين عن المعركة ومن المحتَّم لولا موقف هذا التجمُّع لكان قد ازداد الإنهيار في الجيش الإسلامي.

وعندما كان المسلمون مشغولين في بناء المسجد النبوي انتحى أحد الصحابة جانباً ولم يُشارك في البناء حتى لا يتعب نفسه ولا يلوث جسمه بالتراب وكان من الممكن أن يتأثّر البعض من موقف هذا الصحابي إلاّ أن عمار بن ياسر حَسمَ الأمر فأخذ يردِّد هذا البيت وهو مشغول بالبناء:

لا يستوي من يُعمِّر المساجدا يدأبُ فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فقد واجه عمار بهذا البيت ظاهرة قد تستشري بين ضعاف النفوس، إذ قد تدفع هذه الحالة إلى انكماش مشاركة البعض في النشاطات المشتركة التي كان يقوم بها المسلمين كالحفر والبناء والقتال.

ولقد دأب أفراد التجمع الرسالي على رصد أية ظاهرة سلبية تبرز في الصف الإسلامي وبسرعة كانوا يواجهونها سواء كانت حركة فردية أو جماعية.

ولولا هذا الموقف لكان من المحتمل أنّ تستشري الحالة السلبية في الجسد الإسلامي.

٣ ـ الحفاظ على القيادة وصيانة الوجود الإسلامي.

كان أفراد هذا التجمع يُشكِّلون طوقاً حول النبي ﷺ أثناء المعارك فكانت من أولى مهامهم الحفاظ على حياة النبي ﷺ من أي خطر قد يوجّه إليه من الأعداء. ففي معركة أُحد فرّ جميع المسلمين إلا أبو دجانة وسهل ابن حنيف كانا قائمين على رأسه بيد كل واحد منهما سيف ليذب عنه[١].

وذكر الزمخشري أن عماراً كان بين يدي النبي ﷺ يذبُ عنه والمقداد كان عن يمينه ﷺ[٢].

أما علي بن أبي طالب فقد طارد المنهزمين من المعركة منادياً فيهم.

شاهت الوجوه وقُطّت وبُطّت ولُطّت إلى أن تفرون إلى النار؟ ويقول بايعتم ثم نكثتم فوالله لأنتم أولى بالقتل ممن أقتل[٣].

وحدث ثانية في معركة حنين حيث انهزم جيش المسلمين ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلاّ عشرة نفر تسعة من بني هاشم والعاشر أيمن ابن أم أيمن وقتل أيمن وثبت التسعة[٤] والتسعة هم علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وعتبة ومعتب إبنا أبي لهب والفضل بن العباس وعبد الله بن الزُبير بن عبد المطلب وهم بأجمعهم ما عدا عتبة ومُعتب كانوا يرتبطون بالإمام علي عليه السلام.

وهكذا في مواقف عديدة أخرى كان أفراد هذا التجمع هم الصف الأول المُدافع عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام والمسلمين.

---

(١) المفيد الإرشاد ج١، ص٧٤.
(٢) الزمخشري ربيع الأبرار ج١، ص٨٣٣ ـ ٨٣٤.
(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٢٠، ص٥٣
(٤) المفيد الإرشاد ج١، ص١٢٦.

ومرة أخرى يقف عمار في يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر هلموا إليّ وأنا أنظر إلى أُذنه قد قطعت فهي تُذبذبُ وهو يُقاتل أشدّ القتال[1].

وكُتُب التأريخ تزخرُ بمواقف هذه الصفوة الطيبة من أبناء الإسلام الذين ضحّوا بكل شيء حتى ترتفع راية الإسلام.

وكان لهذا التجمع دورٌ أكبر في فترة الخلفاء نترك الحديث عنه في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

---

(١) ابن سعد الطبقات الكُبرى ج٣، ص٢٥٤.

اخر وصايا الرسول

لم تكن الحالة التي بلغها المسلمون بخافية على النبي ﷺ فقد دخل الإسلام أفواجٌ وأفواج من العرب سيما بعد فتح مكة، ولم تكن الفرصة سانحة للنبي ﷺ وأصحابه لتربية كل تلك الجموع الغفيرة التربية الإسلامية الدقيقة، كما إن عدداً من شخصيات قريش دخلوا الإسلام عن رهبة وليس عن رغبة، إذ لم يكن أمامُهم خيارٌ آخر غير التسليم للأمر الواقع، كما وأن بعض العادات الجاهلية كانت بحاجة إلى مُدد طويلة لزوالها لعمق تأصّلها في النفوس، منها عادة الانتقام والعصبية القبلية.

لقد كان رسول الله ﷺ على علم تام بما سيؤول إليه وضع المسلمين من بعده لأنه كان يُراقب العلل والأمراض التي أُبتُلي بها هذا المجتمع، وكان على يقين بأنّ أول ضربة من بعده ستُوجّه إلى الخط الرسالي الذي أرسى قواعده الإمام علي عليه السلام لأن وجود هذا الخط سيهدّد مصالح الكثير ممن كانوا يُريدون أن يستفيدوا من الإسلام وليس الإسلام يستفيد منهم.

فما كان منه إلاّ وأن يُعلن موقفه من هذا الخط صراحة ويُبيّن رأيه بأعداء هذا الخط بكل وضوح. فبعين واثقة من المستقبل كان يرى احتراب البعض لعلي ولخط علي. فهذا سعد بن عبادة يقول في ملأ من الناس فوالله

لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «إذا أنا متُ تضلُ الأهواء ويرجع الناس على أعقابهم، فالحق يومئذ مع علي عليه السلام».

فقالوا له: هل سمع هذا الخبر غيرك من رسول الله؟

فقال: معهُ ناس في قلوبهم احقادٌ وضغائن[1].

وكان يكرر ﷺ لأصحابه: إن تستخلفوا علياً وما أراكُمُ فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يحملكمُ على المحجة البيضاء[2].

وقد تقدّم فيما سبق وصية رسول الله ﷺ لأصحابه كلما مرّ بموقف فيه النيل من علي بن أبي طالب عليه السلام.

فهذا بُريدة بن حُصيب ينقل لنا موقفاً يتطلب التأمّل ويستحق التعمق..

يقول بُريدة:

فلما أتيتُ النبي دفعتُ الكتاب إليه فقُرىء عليه فرأيتُ الغضب في وجه رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هذا مكان العائذُ بك بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه فقد بلغت ما أرسلت به فقال رسول الله ﷺ لا يقع في علي عليه السلام فإنه مني وأنا منه وهو ليكُم بعدي..

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لبُريدة: إيه عنك يا بُريدة فقد أكثرت الوقوع في علي عليه السلام فوالله إنك لتقع برجل إنه أولى الناس بكم بعدي[3].

وظلت هذه الكلمات تَرنُّ في ذاكرة بُريدة الأسلمي فكان بعد ذلك من الصق الصحابة بعلي بن أبي طالب.

وعن ابن عباس لما اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه فقال ائتوني باللوح

---

(١) علي خان طبقات الشيعة ص٣٦.

(٢) حلية الأولياء ج١، ص٦٤.

(٣) طبقات الشيعة ص٤٠١.

والدواة ـ أو بالكتف والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لا تضلونَ بعده قال: فقالوا: إن رسول الله يهجر[1].

ثم ذكر ابن عباس أن عليّ بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله؟

قال أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال: ألا ترى أنك بعد ثلاث عبدُ العصا؟ وإني أرى رسول الله سيتوفى في وجعه هذا. وإني لأعرف وجوه بني عبد المُطلب عند الموت فأذهب إلى رسول الله فأسأله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا عَلِمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا قال علي والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً والله لا أسألها رسول الله أبداً[2].

وهذه حقيقة تكشف عن حالة المجتمع الإسلامي ومدى الحساسية البالغة التي تُثيرها مسألة الخلافة ما بعد النبي ﷺ إلاَّ أنه وعلى رغم تلك الأجواء الملبدة فقد فتح النبي الطريق أمام القيادة المرتقبة المتمثلة بعلي بن أبي طالب.

---

(١) الطبري ج٣، ص١٩٣.

(٢) الطبري ج٣، ص١٩٤ الرواية لم يذكرها الشيعة في كتبهم فلعلهم يضعفونها.

الفصل الثالث

رجل المعارضة

خفّت الأضواء عن الإمام عليّ عليه السلام بعد ارتحال الرسول الأكرم إلى رحاب الله جل وعلا. فقد أسدل التأريخ عنه الستار ابتداءً من السنة الحادية عشرة للهجرة ولم تلبث أن عادت الأضواء إليه مع نهاية عام خَمسٍ وثلاثين للهجرة عندما بايعه المسلمون. إذ لم يسجّل أرباب التأريخ شيئاً من حياة الإمام خلال هذه الفترة العصيبة من تأريخ الكيان الإسلامي إلاّ النزر القليل، ذلك التأريخ الذي دُون فيما بعد، والذين دونوا التأريخ دونوه بعين عوراء فقد اقتصروا على تدوين أحوال الخلفاء والولاة وأصحاب المناصب، وما جرى لهم من حروب وثورات.

وبقدر ارتباط الإمام علي عليه السلام بتلك المفردات سُجِّل في كتب التأريخ وهو جزءٌ ضئيل من حياة الإمام عليه السلام، أمّا الجزء الأكبر من حياته والقسمْ الأعظم من أعماله فلم يسجّلها المؤرخون للسبب السابق ولسبب آخر هو اعتقادنا الجازم بأن الإمام عليه السلام في هذه الفترة بدأ يتكتَّم على تحركاته وأخذ ينتهج نهجاً آخر في أسلوب العمل كما سنرى لاحقاً.

وقد دفع هذا الأمر بالبعض إلى إطلاق مقولات لا واقع لها فقالوا عنه أنه كان قعيد البيت لاستدرار العواطف مع أن اللقطات القليلة التي سجّلها لنا التأريخ عن حياة الإمام في هذه الفترة تناقض هذا الإدعاء كما وأن

المسؤولية الجسيمة التي كان يتحملها الإمام عليه السلام في كل فترات حياته تدحض فكرة القعود سيما وإن فُرصاً ذهبية قد سنحت للإمام في عهد الخلفاء كان من الطبيعي أن يستثمرها الإمام في العمل من أجل إعلاء كلمة الدين.

كما وأن حلقات مفقودة من التأريخ عن مسيرة التحرك الذي انتهجه الإمام تؤكد وبلاتردد وجود عمل مكثف من نوع آخر كان يقوم به الإمام في تلك الفترة الهامة من حياة الدعوة الإسلامية.

وعلى رغم الصعوبة البالغة التي تواجه كل راصدٍ لهذه الفترة من حياة الإمام حيث لا يوجد في كُتب التأريخ إلا القليل من المعلومات إلاّ أن المشكلة قابلة للحل وذلك بإعادة النظر إلى أحداث هذه الفترة وتحليل وقائعها بأسلوب يكفل التغطية الشاملة.

علي عليه السلام رجل المبادىء

استقبل الإمام علي عليه السلام الأحداث التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله بأعصاب هادئة، لأنه كان يتوقع ما سوف تؤول إليه الأمور، وحتى النبي صلى الله عليه وآله حينما أحسّ بدنو أجله كان على بصيرة مما سيجري بعد غيابه، فكان يقرأ ما في نفوس البعض من رغبةٍ جامحة إلى السُلطة. وكان يخشى أنْ يؤدي ذلك إلى صراع وحروب داخلية تقوض الكيان الإسلامي الناشىء، فقد حاول النبي صلى الله عليه وآله وهو في أيامه الأخيرة أن يُرتب أمراً يدرأ به مخاطر المستقبل فجهّز جيشاً لمحاربة الروم وأعطى زمام الجيش إلى أُسامة بن زيد وهو شابٌ لم يتجاوز العقدين من العُمر وطلب من المهاجرين والأنصار اللحاق بجيش أُسامة مُؤكداً لزعماء المهاجرين عدم تخلفهم عنه، وهم يُشكلون القوة العسكرية الضاربة التي كان يتخوف من توثبها عن السُلطة وتنصيبها من تريد بالقوة. وذكر ابن سعد أن مرض النبي صلى الله عليه وآله إبتدأ يوم الأربعاء وعقد لأسامة يوم الخميس وكان يخرج للمسلمين وهو معصوب الرأس ويخطب بهم ويقول انفذوا بعث أُسامة يكررها كل مرّة ثلاث مرات.

وقد فسّر الشيخ المفيد أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يُريد الحرب بل كان يُريد إبعاد القوة العسكرية وقادتها عن المدينة وذلك لإبعادهم عن دائرة التوتر التي قد تنشأ بعد وفاته.

وعندما أحسّ النبي ﷺ بتخلف البعض عن جيش أُسامة أرسل إليهم كما نُقِل عن عبد الله بن مسعود[1] وتكلّم بكلماته الأخيرة ومما قال لهم على رواية ابن عباس[2] فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي أبداً فدبّ النزاع بين الأصحاب بين قائلٍ يقول ما شأنه أهَجَرَ استفهموه وأخذوا يكررون هذه العبارة وقد أدركوا ماذا يُريد أن يكتب لهم، فانصرف النبي ﷺ عن عزمه وسكت ولم يُظهر ما كان يُريد.

وارتحل النبي ﷺ إلى العالم الآخر وتحققت التوقعات وتسارعت السيقان وهي تحمل المهاجرين والأنصار إلى سقيفة بني ساعدة لانتخاب الخليفة والنبي ﷺ لا زال مُسجّى وحوله عليٌّ والعباس وأهل البيت مشغولون بتغسيله وتكفينه، واحتدم التنافس في السقيفة بين الأنصار والمهاجرين ولم يسأل أحدٌ نفسه كيف يمكن أن ينتخب خليفة لرسول الله ﷺ وهناك الكثير من المهاجرين لم يُخبروا بالأمر؟ بل كيف يمكن أن يجري هذا الانتخاب في غياب أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه؟

وهل يصحُّ هذا الانتخاب في غياب شخصية مهمة كعلي بن أبي طالب.

وهل سأل أحدٌ ممن حضر السقيفة هذا السؤال؟ هل من الإنصاف ترك جثمان رسول الله ﷺ مُسجى على الأرض والإنشغال بالإنتخابات؟ أما كان هناك متسعٌ من الوقت بعد التفرغ من دفن رسول الله ﷺ؟ أما كانَ من حق النبي ﷺ وهو الذي قدّم كل حياته من أجل الإسلام والمسلمين قليلاً من التأخير؟

أما كان من الأفضل الإنتظار حتى يتمكن بنو هاشم الذين كانوا

---

(١) انظر الطبري ج٢، ص٣٣٥.

(٢) انظر الطبري ج٢، ص٣٣٦.

مشغولين في تجهيز رسول الله ﷺ من المشاركة في الإقتراع.

ومضت الأمور تجري في سقيفة بني ساعدة مُصنفة المسلمين إلى ثلاثة تيارات تيار الأرستقراطية القرشية وهي تُمثِّل طبقة المهاجرين الذين كانوا يُزاولون التجارة وكانت بأيدي هذهِ الطبقة الأموال الكثيرة بالإضافة إلى أنها كانت تُشكل القوة الضاربة في الجيش الإسلامي، والتيار الثاني هو الحزب الأموي بزعامة أبي سفيان، أما الصنف الثالث فهو تيار بني هاشم مع مجموعة من المهاجرين وقد انضم إليهم جمعٌ غفير من المستضعفين والمحرومين.

وكانت التوقعات كلها تُشير ومنذ البداية أن التيار الأول سيفوز بمنصب الخلافة بسبب قدراته المالية الهائلة كما وأنه يمتلك القوة العسكرية الذي أوجد لديه شعوراً مفعماً بالقوة والرغبة في التنافس.

أما الحزب الأموي فقد كان منبوذاً يومذاك، إذ لم يمرَّ على دخول أبو سفيان وأبناءه الإسلام سوى أعوام قليلة وهي غير كافية لأن تُعطي لهذا الحزب شرعية التنافس على الخلافة.

أما التيار الثالث فقد كان مشغولاً بالنبي ﷺ غائباً عن مكان الإنتخاب.

وانتشار أخبار الإجتماع المعقود في السقيفة وتسللت إلى بيت النبي ﷺ وبلغت مسامع الإمام علي عليه السلام وأصحابه فغضب البعض، وجرّد طلحة والزبير سيفهما وتحوّل المكان إلى قطعة من الغضب، أما أبو سفيان فقد سارع إلى علي قائلاً له أبسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً.

فزجرهُ الإمام علي عليه السلام وقال والله إنك ما أردت بهذا إلاّ الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك[1].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج١، ص٣٢٦.

ونتوقف هنا هنيهة للبحث عن الأهداف والدوافع التي بيتها أبو سفيان عندما تقدّم لمبايعة الإمام علي عليه السلام وسرَّ ذلك الموقف الصلب الذي وقفه الإمام.

يبدو أن الحزب الأموي من ذلك اليوم كان يُخطط للوثوب على السلطة واسترجاع الزعامة التي كانت لهم في مكة.

وكان من الطبيعي أن تصطدم هذه الرغبة بوجود النبي صلى الله عليه وآله في الحياة لكن الآن وبعد غيابه فقد وَجَدَ أبو سُفيان الفرصة السانحة لأن يقرع الأبواب الموصلة إلى الزعامة والنفوذ.

وكان الحزب الأموي يُراهن على علي بن أبي طالب الأوفر حظاً من غيره في الخلافة لوصايا النبي صلى الله عليه وآله به ولأن مؤهلاته تجعله المفضّل على الآخرين، ولأن الحزب الأموي يومذاك كان ضعيفاً فكان لا بد له أن يتحالف مع أحد الجناحين الآخرين ولاعتقاد أبي سفيان بأنّ الأمر سيكون لعلي بن أبي طالب، فقد سارع وقبل أن تفوت الفرصة وأقبل لمد يده لبيعة الإمام علي عليه السلام.

وكان باستطاعة الإمام أن يستجيب لأبي سفيان وأن يستفيد من القوة التي يُشكّلها الحزب الأموي للمطالبة بحقه في الخلافة، إلاّ أنّه رفض هذا العرض أولاً لأن وراءه أهداف غير صادقة وثانياً لأن الإمام يرفض مثل هذه الأساليب الملتوية في إقرار حقه بالخلافة. فقد كان الإمام عليه السلام ملتزماً باستراتيجية واضحة تخطّت مساحة تحركه وتحرك أصحابه وأهل بيته وهي صيانة الكيان الإسلامي والتضحية بالمصالح الخاصة من أجل المصلحة العامة وهو موقفٌ أثار إعجاب كل من دوّن لهذه الفترة من التأريخ الإسلامي.

مهام الإمام علي ما بعد السقيفة

وأصل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام طريقة كوريث للرسالة الإسلامية. ولم تكن نتائج الإجتماع الذي انعقد في سقيفة بني ساعدة لتعفيه عن التزاماته نحو الأمور التالية:

١ ـ الحفاظ على الأُسس والقواعِد التي قام عليها الإسلام.

٢ ـ خلق رأي عام حول الخلافة بطريقة سليمة لرفع ما التبس على المسلمين بعد السقيفة.

٣ ـ صيانة الكيان الإسلامي من عوامل الضعف والوهن.

كان الإمام يرى نفسه مسؤولاً عن الرسالة وحتى لو كان بعيداً عن منصب الخلافة وتعامَلَ مع الأحداث بهذه الروح الإيجابية.

فكان أول عملٍ قام به هو جمعه للقرآن الكريم، فالقرآن قد نزل منجّماً[1] فكانت الآيات تنزل حسب الحاجة إلى ذلك وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول صلى الله عليه وآله، كانوا يكتبونه على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها.

---

(١) أي على شكر دفعات.

ومع انقطاع الوحي بوفاة النبي ﷺ كان لا بُدّ من جمع كل ما نزل من الآيات القرآنية سيما وأنَّ بعض الألواح كانت عُرضة للضياع والتبعثُر وحتى عُرضة للتحريف إن لم يُسرع أحدٌ ويُبادر بجمع القرآن وبعد وفاة النبي ﷺ، لم يبق سوى القرآن والعترة. فصيانة القرآن مِن الضياع يعني صيانة الإسلام من عوامل التحريف والتخريب.

من هنا كان على رأس ما قام به الإمام علي عليه السلام بعد ارتحال النبي ﷺ هو جمعه للقرآن فقد عكف ستة أشهر[1] في داره مشغولاً بهذه المهمة وكان يقول لمن يطلبه بالخروج من البيت ومبايعة الخليفة أبي بكر «آليتُ ألاّ أرتدي عليّ ردائي إلاّ لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعه»[2].

وفي الإتقان في علوم القرآن نَقَلَ السيوطي عن ابن حجر أنه قال: وقد ورد على علي عليه السلام أنه جمع القرآن على ترتيب نزوله بعد وفاة الرسول، وذكر أيضاً أن محمد بن سيرين كان يقول لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم.

وعلى الظاهر إن الإمام لم يكتف بجمع الآيات القرآنية فبالإضافة إلى ذلك قام بترتيب الآيات حسب النزول وأشار إلى عامة وخاصة ومطلقة ومقيده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه كما وأشار إلى أسباب النزول وأملى ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوعٍ مثالاً يخصّهُ.

وبهذا العمل الجبار استطاع الإمام أن يحافظ على أهم أصل من أُصول الإسلام وأن يوجّه العقل نحو البحث عن العلوم التي يزخر بها القرآن

---

(١) سيرة الأئمة الإثني عشر ج١، ص٢٧٥.

(٢) السيوطي الإتقان في علوم القرآن ج١، ص٢٠٥.
وهناك قرآن بخط الإمام علي عليه السلام موجود حالياً في الخزانة الملحقة بالروضة العلوية المباركة وهو غير القرآن الذي جمعه في عهد الخليفة الأول لأن الإمام كتبه في عام ٤٠ للهجرة.

ليصبح المنبع الرئيسي للفكر والمصدر المباشر الذي يُستمدُّ منه كل ما يحتاجه الإنسان في حياته من قوانين وتعليمات وبرامج للحياة وبعد أن أكمل جمع القرآن أتى به يحملهُ على جمل فقال هذا القرآن قد جمعته[1].

وبعد أن فرغ الإمام علي عليه السلام من إنجاز هذه المهمة توجّه إلى عمل آخر لا يقلُّ خطورة عن العمل الأول وهو جمع ما دونه مِن أحكام دينية في كتاب واحد سمي بالجامعة أو كتابُ عليّ.

والجامعة كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام مكتوبٌ على الجلد المسمى بالرق[2] ويبدو أن إضافة الجلود بعضها إلى البعض الآخر كَوَّنت منه جلداً واحداً طوله سبعون ذراعاً وقد احتوت هذه الجامعة على جميع الأحكام حتى أرش الخدش[3].

وإذا عرفنا أن أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يتوارثون هذا الكتاب ويعتمدونه كمصدر أساسي في الأحكام الشرعية لأدركنا أهمية العمل الذي قام به أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في تجميع ما دوّنه من أحكام شرعية بإملاء من رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى. ولولا هذا العمل الجبار لاندرست الأحكام الشرعية ولضاعت أو أصابها التحريف وحتى القرآن كان عُرضة للتحريف أو النقصان بسبب الصراع السياسي الذي انفجر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله واستمر لقرون عديدة. من هنا يبرز حجم المهمة التي صرف الإمام ستة أشهر من عمره من أجلها في المحافظة على القرآن الكريم من عوامل الدس والتحريف وما إلى ذلك.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص١٣٥.
(٢) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٩٣.
(٣) الأمين أعيان الشيعة ج١، ص٩٣.

خلق رأي عام حول الخلافة

لم يكن الإمام طامعاً في كُرسي الخلافة وهذه حقيقة يمكن أن يلمسها كُلَّ مؤرخ مطلع على سيرته بعد أن أتته الخلافة عام ٣٥ للهجرة. فقد كان همّه الأول والأخير هو تثبيت الإسلام بعد الذي لحق به خلال العقود الماضية وليس تثبيت كُرسيّ الخلافة، ويجد المتتبع لحياة الإمام عليه السلام أنه ضحى بالكرسي من أجل الإسلام وليس العكس كما فعل خصومه. فلو كان قد تنازل ولو قليلاً عن مبادئه لدامت له الخلافة عقوداً من الزمن.

فتسليط الأضواء على حياة الإمام خلال فترة حكمه تكشف عن مسلك في الحياة انتهجه الإمام في كل الأطوار التأريخية وكان هذا هو موقفه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فعلي كان يرى نفسه الأحق بالخلافة من الآخرين وهذا ما كانت تراه الأكثرية المطلقة من المسلمين ما عدا أقلية من قريش كانت تفضل الأكبر سناً وكانت ترى في علي بن أبي طالب شاباً لا يتناسب عمره والخلافة، وعلى رغم شعوره بالأحقية إلاّ أنه لم يندفع اندفاعة المتهالك إلى الخلافة وكان يكفي حضوره إلى سقيفة بني ساعدة لينتخب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنه كان الرجل الذي تتفق عليه الآراء بين المهاجرين الذين استندوا على أحقيتهم بالخلافة، باعتبار قُربهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وبين الأنصار الذين كانوا يفضلون علياً ويرونه الرجل المُناسب لهذا المنصب كما كشف

عن ذلك وقائع الإجتماع الذي تم في السقيفة، فقد ورد ذكر الإمام علي عليه السلام وهو غائب عن الإجتماع في عدة مواقف أثناء المحاورة بين المهاجرين والأنصار.

فقد قام عبد الرحمن بن عوف وتكلم فقال: يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم على فضل فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي وقام المنذر بن الأرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت وإن فيهم لرجلاً لو طَلبَ هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ـ يعني علي بن أبي طالب[1] ـ.

وعندما احتدم الجدال بين المهاجرين والأنصار حول الرجل المناسب، قالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلاّ علياً[2] فقد كان علي على قاب قوسين أو أدنى من الخلافة لو كان حاضراً في السقيفة.

لكن هل من المعقول أن يترك الإمام جسد رسول الله صلى الله عليه وآله مسجى على الأرض ويذهب لمنافسة الآخرين على الخلافة.

من المؤكد أن الإمام علي عليه السلام وكل المجتمعين في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله قد عرفوا باجتماع السقيفة أثناء انعقاده كما عرف غيرهم بها كأبي بكر وأبو عبيدة إذ من غير المعقول أن يقع مثل هذا الحدث وسط المدينة وفي وضح النهار ولن يصل خبره إلى الإمام علي عليه السلام وربما كان لتباطئه ما يبرره ولربما كان حسن الظن بالمجتمعين أنهم لن يختاروا غيره فقد ذكر ابن أبي الحديد أن علياً عليه السلام كان لا يشك في أن الأمر له وأنه لا ينازعه فيه أحد من الناس وذكر في شرحه لنهج البلاغة هذه المحاورة بين العباس وعلي ويبدو أنها وقعت بعد سماعهم باجتماع السقيفة.

قال عمه العباس: امدد يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك إثنان فقال يا عم: وهل يطمع فيها طامع غيري.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص١٠٣.

(٢) تاريخ الطبري ج٣، ص٢٠٨.

قال العباس: ستعلم!! وكأنه أراد أن ينبهه إلى حسن ظنه المتزايد.

فأجابه الإمام علي عليه السلام: إني لا أحبُ هذا الأمر من وراء رتاج.والرتاج هو الباب المغلوق أي إني أحب أن أنتخب بطريقة علينة وعن قناعة شاملة لدى جميع الناخبين وأرفض الطرق الملتوية.

وعندما بُويع الخليفة أبو بكر وأتوا به المسجد سمع العباس وعلي التكبير في المسجد فقال علي ما هذا. فأجابه العباس: ما رُوي مثل هذا قط!! ما قلت لك؟ يريد أن يُذكره بكلامه السابق عندما قال له ستعلم[1].

وما أن انتهى الإمام من دفن النبي صلى الله عليه وآله حتى بدأ حملته الواسعة في المطالبة بحقه في الخلافة ومعه جميع أصحابه وأهل بيته وهو يُريد بذلك إقرار مبدأين:

الأول: إجتماع السقيفة لم يكن كافياً لانتخاب الخليفة، فقد تم الإجتماع في غياب عشيرة النبي صلى الله عليه وآله.

الثاني: أحقيته في الخلافة بحسب المقاييس التي انتخب على أساسها الخليفة أبو بكر فكان يتنقل بين الأنصار ومعهُ زوجته فاطمة الزهراء.

كانت فاطمة عليها السلام تسألهم النصرة بعد أن تُذكّرهم بمواقف علي بن أبي طالب وتضحياته من أجل الإسلام فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به.

فقال عليّ: أفكنتُ أترك رسول الله صلى الله عليه وآله ميتاً في بيته لم أُجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه.

فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له وما صنعوا، الله حسيبهم عليه[2].

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٣، ص٦٣.

(٢) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٢

ولم يكتف الإمام بالأنصار فقط بل راح يخطب بالمهاجرين من أجل صنع رأي عام حول موضوع الخلافة، طريقة الإنتخاب، مؤهلات المرشحين، فقال: يا معشر المهاجرين الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه فوالله يا معشر المهاجرين أن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا القارىء لكتاب الله الفقيه لدين الله، العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا عن الحقّ بُعداً.

قال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سَمِعَتْهُ الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك إثنان[1].

وتحرك تكتّل بني هاشم وبدأ كل فرد من موقعه في شرح الملابسات التي سادت اجتماع السقيفة وإيضاح بعض ما التبس من الحقائق الهامة التي غابت عن الناخبين والمرشحين فعندما يلتقي الخليفة أبو بكر ومعه بعض أركان الدولة وعمر بن الخطاب، أبو عبيدة الجراح والمغيرة بالعباس عم النبي ﷺ ليلاً لإقناعه بالذي جرى من أمر البيعة والطلب إليه بالمشاركة معهم في أمور الدولة، رفض العباس هذا العرض مُبدياً استغرابه من إعطاء بني هاشم جزءاً من الأمر بينما الخلافة حق في بني هاشم.

قال لهم العباس: رسول الله من شجرة، بني هاشم أغصانها والآخرون جيرانها فخرجوا دون أن يحصلوا على شيء. وعلى هذا النمط تحرّك تكتل الصحابة وانتشروا في المسجد وأخذوا يخطبون بالمسلمين ويحتجون على المهاجرين وتركهم للإمام علي عليه السلام فهذا سهيل بن حنيف يقف بين المهاجرين ليذكرهم بمواقف النبي ﷺ من علي بن أبي طالب وذاك أبو

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٢.

أيوب الأنصاري يناشد المهاجرين أن يتذكروا ما كان يكرره رسول الله ﷺ في كل مقام وكل مجلس.

أهل بيتي أئمتكم بعدي.

أما أبو الهيثم بن التيهان فقد احتج على المهاجرين بمقولة رسول الله ﷺ في يوم الغدير حيث قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، أما سلمان المحمدي وأبو ذر الغفاري والمقداد، فكانوا من أكثر الصحابة نشاطاً في توجيه الرأي العام نحو الخلافة الصالحة.

وعلى الرغم من إقتناع الإمام علي عليه السلام بعدم جدوى محاولاته هذه لأن كل شيء قد تم وبويع أبو بكر البيعة العامة في المسجد إلاّ أنه ومن أجل توكيد المبدأين الأساسيين وهما:

لا يصح الإنتخاب في غياب أهل بيت رسول الله ﷺ.

الانتخاب هو حقٌ لمن تم التأكيد عليه من قبل رسول الله ﷺ.

وكان الإمام في دفاعه عن قضية الخلافة ينطلق من معايير دينية، فهو كان يطالب بحقٍ فرضه الدين عليه وعلى المسلمين وتوقف عن ذلك بمجرد سماعه ارتداد بعض العشائر العربية في أطراف جزيرة العرب فيهب هو وجمعٌ من صحابته للدفاع عن حياض الإسلام.. وهنا نلاحظ الإمام في موقف أخلاقي رائع إذ يقدّم المصلحة الإسلامية العليا على المصلحة الإسلامية الخاصة وينسى خلافاته ويصمت عن حقه وحق عائلته الكريمة ويبدأ وبإيجابية بالتعاون مع السلطة لمواجهة الأخطار المحدقة.

صيانة الكيان الإسلامي

من عوامل الضعف

جرت أحداثٌ جسام بعد وفاة رسول الله ﷺ لم تُنسِ علياً أنه الوصيُّ على هذه الأمة.

فإذا كانت بيعة الخليفة أبي بكر قد رفعت بعض ما عليه من تكليف ومسؤولية إلاّ أن التزامه بوصايا رسول الله ﷺ وحرصه العميق على الرسالة، أليس هو أول المؤمنين بها وأكثر المدافعين عنها وأشدّ المضحين لها. هذان الأمران وصايا الرسول والرسالة جعلاً من أمير المؤمنين في طليعة المدافعين عن الكيان الإسلامي وكلما تحسس بالخطر استشعر بالمسؤولية تجاه الدين.

وبعد غياب النبي ﷺ أحدقت الأخطار شيئاً فشيئاً بالكيان الإسلامي مما دفعت بالإمام إلى تغيير سياسته ازاء السلطة، فكان على أعلى درجات من الإيجابية إلى درجة أصبح منافسيه بالأمس يستشيرونه في أمور البلاد، ويتقربون إليه ويتمنون أن يتحمل جزءاً من أعباء مسؤولياتهم في الحكم، فلم يشكون في نواياه ولم ينظرون إليه نظرة الريبة بعد أن وجدوا علياً عليه السلام أعلا شأناً من أن يتنافس على حطام الدنيا. والذي ليس في اهتمامه إلاّ إعلاءً للدين ورفعة للمسليمن وحسب. وأكبر دليل على صدق نوايا أمير المؤمنين

هو موقف الخليفة عمر بن الخطاب من الإمام يوم أعلن قائلاً لولا علي لهلك عمر ولا جعلني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن فهذه العبارة تدل على مدى ما بلغه الإمام من الإيجابية في علاقته مع الخليفة على رغم ما لديه من تحفظات وإشكالات، كل ذلك مِن أجل المصلحة العامة، وانطلاقاً من هذا الموقف اتخذ الإمام علي عليه السلام سياسة مبنية على الأهداف التالية:

١ ـ صيانة وحدة الصف الإسلامي.

٢ ـ إسداء النصيحة والمشورة للخلفاء.

٣ ـ المساهمة في الأعمال الإيجابية.

٤ ـ الدفاع عن الكيان الإسلامي.

٥ ـ المراقبة المتواصلة والمحاسبة البناءة.

أولاً: صيانة وحدة الصف الإسلامي:

توقّف الإمام علي عليه السلام عن المطالبة بحقوقه حتى حق زوجته في قطعة الأرض التي ورثتها عن أبيها وذلك من أجل المحافظة على وحدة الصف، وتغافل عن عروض أبي سفيان عندما جاءه قائلاً يا أبا الحسن أبسط يدك حتى أبايعك فأبى عليّ عليه ذلك فجعل يتمثّل بشعر المتلمس.

ولن يُقيم على خسفٍ يُراد به ... إلاّ الاذلّان عَيرُ الحيّ والوتَدُ

وهذا على الخسفِ معكوسٌ برُمتِهِ ... وذا يُشجُّ فلا يبكي له أحَدُ

فزجره عليٌّ وقال إنك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة[1].

وقد عرف الإمام بالنوايا السيئة التي تخفيها هذه العروض، فلا زال حنين أبي سفيان إلى الشرك قوياً، وقد وجد في الذي حدث بعد وفاة النبي الفرصة الذهبية لتحقيق مآربه، أما عودته إلى الزعامة أو تمزيق الصف

---

(١) الطبري ج٢، ص٤٤٩.

الإسلامي والعودة بالمجتمع إلى العهد الجاهلي فلم تنطل هذه اللعبة على الإمام علي عليه السلام الذي وقف بوجهه مُنددا وزاجراً حتى ارتدع، وواصل أبو سفيان استثارته لبني هاشم فكان يمرُّ على البيت الذي فيه علياً وجمعٌ من بني هاشم ومن صحابته فكان يُردِّد هذه الأبيات:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدي

فما الأمر إلاّ فيكمُ وإليكمُ ... وليس لها إلاّ أبو حسن علي

أبا حسن فاشدد بها كف حازم ... فإنك بالأمر الذي يُرتجى معي

وأي امرىء يرمي قصياً ورأيها ... منيع الحمى والناس من غالب قصيّ

فقال له الإمام علي عليه السلام: إنك تُريد أمراً لسنا من أصحابه، وقد عهد إليّ رسول الله عهداً فأنا عليه[1].

وعندما يئس أبو سفيان من علي أدار بوجهه نحو العباس بن عبد المطلب فقال له: يا أبا الفضل أنت أحق بميراث ابن أخيك أمدد يدك لأبايعك فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك فضحك العباس وقال يا أبا سفيان يدفعها عليّ ويطلبها العباس فرجع أبو سفيان خائباً[2].

وقد وقعت حوادث كثيرة في تلك الفترة كشفت بوضوح عن عظمة الموقف الذي وقفه الإمام علي عليه السلام حيث آثر المصلحة العامة وجعلها فوق كل شيء، فقد هبّ عتبة بن أبي لهب ليشارك بقصائده في المعركة السياسية إلى جانب الإمام علي عليه السلام.

أخذ يستثير العواطف مُحَرِّضاً المسلمين الدفاع عن حق الإمام علي.

ما كنتُ أحسبُ أن الأمر منصرفٌ ... عن هاشم ثم منها عن أبي حَسَنِ

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعلمَ الناس بالقرآن والسنن

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦، ص١٨.

(٢) المصدر نفسه.

وأقرب الناس عهداً بالنبي ومن ... جبريل عون له في الغسل والكفَنِ
ما فيهم فيهم ولا يمترون به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردّهم عنه فنعلمه ... ها إنّ ذا غُبننا من أعظم الغبنِ

فماذا كان موقف الإمام علي عليه السلام؟

بعث إلى عتبة بن أبي لهب فنهاه وأمره ألاّ يعود وقال سلامة الدين أحب إلينا من غيره[1].

وكان للإمام علي عليه السلام موقفاً آخر هاماً في مواجهة عوامل التمزق والحفاظ على وحدة الصف وذلك عندما انفجرت المعركة الإعلامية بين الأنصار والمهاجرين وكادت أن تنتهي إلى حرب أهلية لا يعرف عواقبها إلاّ أصحاب الوعي والشعور بالمسؤولية من أمثال الإمام علي عليه السلام.

فقد جدّد موقف الأنصار في السقيفة أحقاداً وضغائن قديمة كانت بين المشركين والمسلمين، فعددٌ لا بأس به من زعماء قريش الذين أسلموا بعد الفتح لا زالوا يتذكرون جراحاتهم في بدر وأُحد والخندق فقد تفجرت هذه الأحقاد وتحولت ولفترة من الزمن إلى مناوشات بالكلمات والقصائد بين المهاجرين والأنصار وكادت أن تتحوّل إلى صراع عسكري يحرق الأخضر واليابس.

فقد نقل ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكار حدثاً تأريخياً مروياً عن عبد الرحمن بن عوف، إن نفراً من قُريش ممن حارب النبي صلى الله عليه وآله ثم دخلوا الإسلام وكلهم موتورٌ قد وتَرَهُ الأنصار فيهم سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل، أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدر وأما الحارث بن هشام فضربه عروة بن عمرو فجرحه يوم بدر، وأما عكرمة بن أبي جهل فقتل أباه ابنا عفراء وسلبه درعه يوم بدر زياد بن لبيد،

---

(١) ابن أبي الحديد شرح النهج مروياً عن الزبير بن بكار ج٦، ص٢١.

فقد اجتمع هؤلاء بعد التوتر الذي حدث بين الأنصار والمهاجرين في السقيفة فقام سهيل بن عمرو وقال يا معشر قُريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار وأثنى عليهم في القرآن فلهم بذلك حظٌ عظيم وشأن غالب وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب وعلي في بيته لو شاء لردهم فأدعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلاّ قاتلوهم فوالله إني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نُصرتم بهم، ثم قام كل من الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وتكلما بنفس تلك اللهجة وفي الأثناء دخل أبو سفيان بن حرب فقال:

يا معشر قُريش إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقروا بفضلنا عليهم فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم وايمُ الله لئن بطروا المعيشة وكفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه فأما علي بن أبي طالب فأهلٌ والله أن يُسوَّد على قريش وتطيعه الأنصار.

وعلى الظاهر إن الإجتماع الذي تحدّث عنه عبد الرحمن بن عوف لم يكن اجتماعاً عادياً لأنه ضم أركان الزعامة القرشية في العهد الجاهلي ويُستدل من الكلمات ومن وجود أبي سفيان في هذا الإجتماع إن الهدف منه هو كيفية استثمار الشقاق الذي نشَبَ بين المهاجرين والأنصار لتأجيج الحرب الداخلية بين المسلمين. ويُفهم من الكلمات التي قيلت حجم كتلة الأنصار وحجم التخوّف منهم باعتبارهم أنهم يمثلون الخط الدفاعي الأول عن الرسالة الإسلامية.

كانت الأجواء تُنذرُ بحرب ضارية لا أولَ لها ولا آخر عبّر عنها ابن أبي عزّة بأبيات شعرية:

معشر الأنصار خافوا ربكم ... واستجيروا الله من شرّ الفتن

إنني أرهب حرباً لاقحاً ... يشرق المرضع فيها باللبن

جَرّها سعدٌ وسعدٌ فتنةٌ ليت سعدَ بن عبّاد لم يكُن[1]

وليس هنالك من يشك إن الفتنة سببها هذا النفر القليل من زعماء قريش، لكنهم يحاولون أن يُظهروا الصراع وكأنه بين المهاجرين والأنصار، ويحاولوا أن يُلصقوا أسباب التوتر بالأنصار.

وقد جابه الأنصار هذه الإتهامات باللامبالاة، لأنهم كانوا أحرص على الإسلام من أولئك النفر الضال وكانوا على يقين بأن هنالك خطة تُبيّت في الظلام لاستدراجهم في معركة قذرة نتيجتها تقطيع عُرى الإسلام وتضعيف المسلمين.

وقف خطيبهم وهو ثابت بن قيس ليقول:

يا معشر الأنصار إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قُريش، فأما إذا كان من أهل الدُنيا لاسيما من أقوامٍ كلهم موتورٌ فلا يكبُرَنّ عليكم: إنما الرأي والقول مع الأخيار المهاجرين[2].

وكانت هذه المقالة كافية لإخماد نيران الفتنة قبل تأججها لأنها كشفت عن بواعثها والمسببين فيها.

وما كادت هذه الحادثة أن تنتهي إلاّ واشتعلت فتنة أخرى من جديد وهذه المرة على يد عمرو بن العاص، إذ كان خارج المدينة المنورة عندما وقعت المُشادة بين قريش والمهاجرين وبمجرد وصوله المدينة اجتمع حوله زعماء قريش وقالوا له إنك لسانُ قريش ورمحها في الجاهلية والإسلام فلا تَدَعْ الأنصار وما قالت وأكثروا عليه من ذلك، فراح إلى المسجد وفيه ناسٌ من قُريش وغيرهم فتكلم وقال:

إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها وأيُم الله لوددتُ أن الله خلّى عنا

---

(١) ابن أبي الحديد شرح النهج ج٦، ص٢٥.
(٢) ابن أبي الحديد شرح النهج ج٦، ص٢٥.

وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب ولنحنُ الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهُم عن كل مكروه وقدمناهم إلى كل محبوب حتى آمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم. وكان الفضل بن العباس بن عبد المُطلب حاضراً في المسجد فلم يجبه بشيء لأنه لم يكن يُريد أن يتخذ موقفاً بمفرده. فقد اكتفى قائلاً:

يا عمرو انه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك وليس لنا أن نخيبك وأبو الحسن شاهدٌ بالمدينة إلاّ أن يأمرنا فنفعل.

موقفٌ رصينٌ يُنبأ عن استقامة وطاعة وانضباط. إلاّ ان مقولة عمرو بن العاص كادت أن تُفجّر صراعاً لا يمكن التكهن بنتائجه، فوجد الإمام أن من واجبه أن يوقف هذا الهجوم الكاسح الذي يواجهه الأنصار والذي يُراد له أن يتحوّل إلى معركة داخلية.

وهنا يسارع الإمام ويُبادر لإطفاء نار الفتنة وليدافع عن الأنصار الذين هم القوة الضاربة في الدولة الإسلامية فجاء إلى المسجد واجتمع حوله جمعٌ كثير من قُريش فقال مخاطباً الجمع:

يا معشر قريش إن حبّ الأنصار إيمانٌ وبغضهم نفاقٌ وقد قضوا ما عليهم وبقي ما عليكم واذكروا أن الله رغب لنبيكُم عن مكة فنقله إلى المدينة وكره له قريشاً فنقله إلى الأنصار ثم قَدِمنا عليهم دارَهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نِعَم فقال ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] ألا وإن عمرو بن

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميت والحي، ساء به الواتر وسرّ به الموتور فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت وإنه من أحبّ الله ورسوله أحبّ الأنصار فليكفُف عمرو عنا نفسه[1].

واعتبر الإمام الهجوم على الأنصار بمثابة الهجوم على الرسالة وبالتالي فهو أمرٌ يعنيه وكأنه هو المقصود بهذا الهجوم.

وكان لكلمة الإمام هذه أثرٌ كبير في الأوساط حيث انتشر صداها بين المسلمين وسارع البعض إلى عمرو بن العاص ليقول له:

أيها الرجل أما إذا غضب عليّ فاكفف. واضطر عمرو بن العاص على أثر رد الإمام على محاولته اليائسة في تفجير الصراع بين المهاجرين والأنصار، اضطُّر على ترك المدينة وخرج عنها حتى رضي عنه علي والمهاجرون[2].

وانطلق صوت الشعر ليُهدىء القلوب المتوثبة للحقد والكراهية ولينضم إلى صف المدافعين عن الوحدة الإسلامية.

وانطلق أحد صحابة الإمام علي عليه السلام وهو خزيمة بن ثابت الأنصاري يخاطب قُريشاً..

أيالَ قُريش أصلحوا ذات بيننا ... وبينكُمُ قد طال حَبلُ التماحِكِ

فلا خير فيكم بعدنا فارفقوا بنا ... ولا خير فينا بعد فهر بن مالك

كلانا على الأعداء كفٌّ طويلةٌ ... إذا كان يومٌ فيه جَبٌّ الحوارِكِ

فلا تذكروا ما كان منا ومنكمُ ... ففي ذكر ما قد كان مشيُ التساؤكِ

وتحولت هذه الأبيات شعاراً لكل المسلمين يدفعهم إلى وحدة الصف والتغاضي عن الخلافات الثانوية وتجاهل الماضي والبدأ بصفحة جديدة.

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦، ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه عن الزبير بن بكار.

وهكذا، كان علي بن أبي طالب العين الحارسة على الإسلام الحريصة على وحدة المسلمين.. فعليّ عليه السلام يدرك أهمية الوحدة وأنها كانت رمز قوة المسلمين وانتصارهم في الحروب. فإذا انفرط هذا الصف الذي كان متماسكاً على عهد النبي صلى الله عليه وآله انكسر المسلمون سيما وإن الأعداء قد ازدادوا واتسعت دائرة المواجهة هذه المرة لتشمل المرتدين والمنحرفين عن الدين وكلهم عيونٌ مفتوحة بحثاً عن أية ثغرة تنفعهم فيستغلونها.

ومرة ثانية وثالثة يأتي الإمام ليدافع عن الأنصار المستهدفين في المؤامرة..

وقف في المسجد وخطب قائلاً:

يا معشر قُريش إن الله جعلَ الأنصار أنصاراً فأثنى عليهم في الكتاب فلا خيرَ فيكم بعدهم إنه لا يزال سفيهٌ من سفهاء قُريش وَتَرَهُ الإسلام دفعهُ عن الحق وأطفأ شرفه وفضل غيره عليه يقوم مقاماً فاحشاً فيذكر الأنصار فاتقوا الله وارعوا حقهم فوالله لو زالوا لزلتُ معهم لأن رسول الله قال لهم أزول معكم حيثما زُلتم فقال المسلمون جميعاً رحمك الله يا أبا الحسن قُلت قولاً صادقاً.

وظلّ الإمام يذود عن الأنصار في كل موقع وموقف فقد اعتبر أي هجوم يُشنُّ على الأنصار كأنه هجوم موجّه إلى الإسلام لأنهم يشكلون القوة البشرية والإقتصادية والقدرة العسكرية في الكيان الإسلامي. وإن أية محاولة للهجوم على الأنصار ما هي إلاّ محاولة يائسة لإخراجهم عن دائرة الصراع الحقيقية مع أعداء الإسلام ثم حصر الإسلام في نطاق صغير حيث يسهل تصفيته. وهذا هو طموح أكابر قريش من المهاجرين وقد شاطرهم جمعٌ من أصحاب النعرات والعواطف العمياء خطتهم المشينة تلك التي أريد بها تمزيق الجسد الإسلامي. لكن هذه المؤامرة وكل المؤامرات ارتطمت بصخرة الوعي والصمود المتمثلين بالإمام علي عليه السلام والجمع الذي

حوله.فقد وقف الإمام موقف المحطم للمؤامرة فأعاد الإعتبار للأنصار فلم يجرؤ بعد ذلك أحدٌ المساس بهم أو النيل منهم ولم يكن أمام مُثيري الفتن كعمرو بن العاص إلاّ العُزلة والفرار من المدينة إذ لا وجود لهم في مجتمع الوعي الذي كان يعمل على إيجاده الإمام، والنظرة الفاحصة إلى حوادث وقعت في هذا المجتمع تدل على مدى تنامي الوعي فيه.

وقف الوليد بن عقبة بن أبي المُعيط وكان يبغضُ الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم بدر وضربوا عنقه بين يدي رسول الله وشتم الأنصار وقال شعراً ضدهم ففشا شعره في الناس، فغضبت الأنصار واستنكرت عمله هذا حتى بعض الجماعات من قُريش فتصدى له نفرٌ من زعمائهم فيهم زيد بن الخطاب الذي رد عليه بكلام صريح قائلاً وأما ذكرك الذي كان بالأمس فدع المهاجرين والأنصار فإنك لست من ألسنتهم في الرضا ولا نحن من أيديهم في الغضب ثم تكلّم يزيد بن أبي سفيان فقال يابن عقبة: الأنصار أحقّ بالغضب لقتلى أُحُدُ فأكفف لسانك، فإنّ من قتله الحق لا يُغضب له.

ثم تكلّم ضرار بن الخطاب الفهري ومما قال:

إن الله لم يُفرق بين الأنصار والمهاجرين في الدنيا وكذلك الله لم يُفرّق بينهم في الآخرة[1].

وأقبل حسان بن ثابت مُغضباً من كلام الوليد بن عقبة فدخل المسجد وفيه قومٌ من قُريش فقال يا معشر قريش إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كُفارَكم وحمايتنا رسول الله ﷺ وإن كنتم تنقمون منا منةً كانت بالأمس فقد كفى الله شرها فما لنا وما لكُم والله ما يمنعنا من قتالكم الجبنُ ولا من جوابكم العيّ إنا لحيّ فعال ومقال ولكنا قُلنا إنها حربٌ أولها عارٌ وآخرها ذلٌ فأغضينا عليها عيوننا وسحبنا ذيولنا حتى نرى وتروا فإن قُلتم قُلنا، وإن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦، ص٣٨.

سكتُم سكتنا فلم يجبه أحد من قُريش ثم سكت كلٌ من الفريقين عن صاحبه (كما يقول الزبير بن بكار) في الموفقيات ورضي القوم أجمعون وقطعوا الخلاف والعصبية[1] وانطفأت الفتنة وتبدّد حلم المندسين في صف المهاجرين في تفريق الصف الإسلامي ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى الإمام علي عليه السلام فقد تمكن أن يحقق من خلال مواجهته لهذه الفتنة.

١ ـ أوجد رأياً عاماً معادياً للتمزق والفرقة.

٢ ـ أعاد الإعتبار للأنصار بشكل يحقق التوازن السياسي في المجتمع الإسلامي بينهم وبين المهاجرين.

٣ ـ فضح النوايا الشريرة التي يُبيتُها مثيروا الفتن والمشاكل.

وكان باستطاعة الإمام أن يستغل هذه الأجواء ويُثيرها حرباً شعواء ضد الخليفة ومن يقف إلى جانبه من أصحاب الزعامات القرشية لكنه لم يفعل ذلك حفاظاً على وحدة المسلمين والإسلام. فلم يكن يُريد أن يتصيد في الماء العكر حتى لو كان في المطالبة بحق ثابت ومشروع وهذه منقبة أخرى من مناقب الإمام في عمله السياسي في عهد الخليفة الأول.

ثانياً: إسداء النصيحة والمشورة للخلفاء

وقف الإمام علي عليه السلام بروحٍ مغمورة بالإيجابية ازاء الخلفاء الراشدين الثلاثة. وقد أوصلت هذه الروح العظيمة الإمام علي عليه السلام إلى قلوب الخلفاء حتى كان الخليفة عمر بن الخطاب يقول وهو صادق: يا أبا الحسن لا أبقاني الله لشدة لست لها، ولا لبلية لست فيها.

وكان يقول أيضاً أعوذُ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن.

وهذه قمة في الإيجابية يقفها أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦، ص٣٨.

ورد في كُتب التأريخ أن امرأة قد زنت وشهد عليها أربعة شهداء عدول فأجمعوا على رجمها فلما ذهبوا ليرجموها، مرّ بهم الإمام علي عليه السلام فقال:

ما شأن هذه.

قالوا: مجنونة بني (فلان) زنت فأُمِر بها أن تُرجَم.

فانتزعها علي من أيديهم وردّها إلى مأمنها فجاؤوا إلى عمر فاستغرب من عودتهم فقال ما ردّكم قالوا ردّنا علي فقال عمر: ما فعل أبو الحسن هذا إلاّ لشيء قد علمه فجاء الإمام علي فسأله الخليفة عمر ما بالك قد رددت هؤلاء فقال عليه السلام:

أما سمعت قول رسول الله، رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يعقل فما بال هذه تُرجم؟ حينذاك جعل عُمر يُكبر ويقول لولا علي لهلك عُمر.

هذا النموذج وأشباهه بالعشرات يكشف لنا وبصورة واضحة عن مدى ما ذهب إليه الإمام علي عليه السلام من الإيجابية بحيث أصبح الخليفة يقف منه تلك المواقف ويقول فيه تلك العبارات التي لم يقُلها في أحد غير الإمام.

وتعود خلفية موقف الخلفاء أنهم عرفوا علياً حق المعرفة إنه لا يُساوم في الله وإن ما يقوله وما يفعله ليس لغاية في نفسه ولا لحسد بل كل مواقفه وأقواله منطلقة من الحرص على الشريعة الإسلامية وعلى الكيان الإسلامي، فكانوا يتقبلون منه بصدور رحبة حتى النصيحة الخشنة لأنهم على يقين أنها نصيحة منطلقة من قلب مملوء بالنوايا الحسنة.

فقد دخل على الخليفة عثمان وقال له:

فالله الله في نفسك فإنك والله ما تُبصرُ من عمّى ولا تُعَلَّم من جهالة وإن الطريق لواضح بينٌ وإن أعلام الدين لقائمة فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل هُدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فوالله إن

كلا لبين وإن السنن كثيرةٌ لها أعلامٌ، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شرّ الناس عند الله إمامٌ جائر ضل وأضلّ، فأمات سنة وأحيا بدعة متروكة، وإني أحذرك الله سطواته ونقماته فإن عذابه شديد أليم وأحذرك أن تكون أمام هذه الأمة، الذي يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبّس أمورها عليها ويتركها شيعاً لا يُبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

فقال الخليفة عثمان: قد علمت والله ليقولنّ الذي قُلت[1].

ولو عمل الخليفة عثمان بنصيحة الإمام لما جرى عليه الذي جرى، ولما تألبت عليه الأمصار ولما لقي ذلك المصير الدامي الذي حذّره الإمام من وقوعه.

كان الإمام لا يُفتي بشيء إلاّ عن اطلاعٍ عميق وبعد في النظر، وكان الخلفاء ينظرون إليه كأفضل مشاور لهم.

لم يجد الخلفاء أفضل من علي في المشورة فهو الذي جرّب الناس وعرف مداخل الأمور ومخارجها فوجوده إلى جوار رسول الله خلال ثلاثٍ وعشرين عاماً من تبليغ الرسالة منحته الخبرة والإطلاع الواسع في إدارة الدولة والمجتمع وكان وجوده بالقرب من مركز القرار واستعداده الدائم لإسداء النصح ثروة لا تعوض بأي ثمن، كما وإنّ الإمام ومن فرط حِرصِه على سلامة الكيان الإسلامي لم يدخر رأياً أو فكرة إلا وقدمها للخلفاء عندما وجد عندهم الإستعداد الكافي لسماع آرائه والعمل بها.

وقد عرفوا صِدقه وحسن نواياه ليس مخادعاً ولا مخاتلاً كمروان بن الحكم التي أدت مشورته للخليفة عثمان إلى قتلهِ بتلك الصورة المروعة.

فليس هناك موجب للخداع إذ لم يكن الإمام بحاجة إلى جاه أو مال

---

(١) علي أنصاريان الدليل على موضوعات نهج البلاغة ص٥٣٨ وأيضاً الكامل في التأريخ لابن الاثير ج٣ ص١٥١.

ولم يكن يُريد منصباً بل كان من فرط حرصِه على سلامة الكيان الإسلامي أنه يُسدي النصيحة ويكررها مرةً بعد أخرى باخلاصٍ وصدق.

أمّا موارد المشورة التي شاور فيها الخلفاء الثلاثة علياً عليه السلام فهي كثيرة منها:

١ ـ في زمن الخليفة أبي بكر أراد المسلمون غزو الروم فشاور أبو بكر جماعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله فرفض بعضهم الفكرة ثم إنه شاور علي ابن أبي طالب فأشار إليه بأن يفعل وأخبره بنتيجة المعركة قائلاً:

إنْ فعلت ظفرت. فقال أبو بكر:

بشّرت بخير.. فاطمأن الخليفة من تحقق النصر للمسلمين من كلام أمير المؤمنين فقام في الناس خطيباً وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم[1].

فالإمام لم يكتف بإسداء المشورة وحسب بل رسم أمام الخليفة نتائج المعركة وأنها ستكون لصالح المسلمين ليشجعَهُ على اتخاذ قرار الحرب وليزيد في حماس الصحابة الذين ترددوا في الموافقة قبل أن يُبدي رأيه.

دلّتْ هذه الحادثة ليس فقط على النظرة العميقة والرؤية الثاقبة للمستقبل بل أيضاً على رغبة واعية نحو دفع عجلة الإسلام إلى الامام من خلال الجهاد، فبالجهاد وحده يستطيع المسلمون أن يحلوا مشكلاتهم وأن يتغلبوا على واقعهم ويرتفعوا عن الصغائر.

٢ ـ عندما أراد الخليفة عمر بن الخطاب غزو الفُرس جمع قادة الجيش مع كبار الصحابة الذين كانوا يمثلون مجلساً عسكرياً مهمته اسداء المشورة في الأُمور الحربية وكان من رأي عمر أن يتجهّز ويذهب بجيشٍ من المسلمين ويستقر بين الكوفة والشام ومن هناك تبدأ عملياته الحربية ضد الفُرس.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص١٣٣

فقام كل واحدٍ من القادة العسكريين وأعطى رأيه وجلس ثم قام عثمان وطلب من عمر أن يكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم يسير عمر بجيش من أهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة.

وجاء الدور إلى الإمام علي فلم يُحبِّذ خروج أهل الشام لأنهم محاطون بالأعداء وهم الروم وليس من السليم أيضاً خروج أهل اليمن لأنهم محاطون بأعداء كامنين لهم في بلاد الحبشة. ولم يحبذ أيضاً خروج أهل الحرمين إلى الحرب لأن العرب القابعين في الأطراف يستغلون غياب القوة العسكرية فيفعلون ما يريدون.

وكان مقترح الإمام أن يستقر أهل الأمصار في أماكن سكناهم ويُكتب إلى أهل البصرة فينقسموا إلى ثلاث فرق، فرقة في حُرمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتفضوا ثم تسير فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مَدّداً لهم فقال عمر هذا هو الرأي[1].

٣ ـ أراد الخليفة عمر أن يضع تأريخاً للمسلمين، فكان من رأيه أن يُكتب من ولادة رسول الله ثم قال من المبعث[2] فشاور الإمام علي عليه السلام، فكان رأيه أن تكون بداية السنة من هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وقد أورد ابن الأثير أن كتابة التأريخ جاءت بمشورة من علي بن أبي طالب[3].

٤ ـ واستشار الخليفة عمر جمعاً من المسلمين قائلاً:

إني كنتُ امرءاً تاجراً يُغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يَحِلُّ لي في هذا المال؟ وعليٌّ ساكت، فأكثر القوم فقال:

---

(١) الكامل في التأريخ ابن الأثير ج٣، ص٨.
(٢) تأريخ اليعقوبي ج٢، ص١٤٥.
(٣) الكامل في التأريخ ج٢، ص٥٢٦.

ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره.

فقال القوم: القول ما قال عليّ[1].

٥ ـ شاور الخليفة عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله في سواد الكوفة، فقال له بعضهم نقسمها بيننا فشاور علياً فقال:

إن قَسَّمْتَها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء ولكن تقرها في أيديهم يعملونها. فتكون لنا ولمن بعدنا، فقال: وفقك الله هذا الرأي[2].

وبهذا الرأي وضع الإمام للخليفة عمر معالم السياسة الإقتصادية للدولة الإسلامية.

فهذه السياسة تقوم على ثلاث مبادىء.

الأول: الغاء ملكية الأرض الصالحة للزراعة التي تم الإستيلاء عليها.

فالأرض السواد كانت أرض زراعية تُضيف للثروة الإقتصادية موارد جديدة بشرط أن لا تُستملك.

الثاني: تعزيز السياسة الإنتاجية بوضع هذه الأراضي الصالحة للزراعة في أيدي من يستطيع استثمارها. فهي في حوزته بشرط الإستثمار.

الثالث: وضع خطة انتاجية بعيدة المدى تستطيع أن توفِّر السعادة والرخاء للأجيال القادمة. فقد كان اقتراح بعض الصحابة بتقسيم أرض السواد هو اقتراح قصير النظر بينما اتصف اقتراح الإمام ببعد النظر والإلتفات إلى مصلحة الأجيال القادمة بالإضافة إلى مصلحة الجيل الحاضر.

٦ ـ بعد أن تم توزيع الغنائم التي غنمها المسلمون من معركة القادسية بقي بساط كبير طوله ستون ذراعاً وعرضهُ ستون ذراعاً كانت أكاسرة الفُرس

---

(١) الكامل في التأريخ ج٢، ص٥٠٤.

(٢) تأريخ اليعقوبي ج٢، ص١٥٢.

تستخدمه في الشتاء حيث يتخيلون أنهم في احدى الرياض، إذ أُقيم فوق البساط تماثيل للحيوانات والنباتات وشق فوقهُ الأنهار من فصوص كالدرر، وكانت العرب تُسميه القطيف، فطلب عُمر رأي الصحابة بهذا القطيف فمنهم من رأى تفويض الأمر إلى الخليفة ليرى رأيه، ومنهم من كان رأيه أن يكون ملكاً للخليفة..

أما علي عليه السلام فقال: لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينَك شكاً، إنه ليس لك من الدنيا إلاّ ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أقلت فأفنيت وإنك إن تُبقه على هذا اليوم لم تعد في غدٍ من يستحق به ما ليس له.

فقال الخليفة عمر: صدقتني ونصحتني فقطعهُ بينهم[1].

كان علي عليه السلام هو الشخص المفضّل عند الخلفاء وكيف لا والنبي صلى الله عليه وآله كان يُفضله على غيره وكانوا يسمعون له ويطيعونه واثقين من حسن نواياه ومن رجاحة عقله. ومن جانبه لم يترك الإمام فرصة إلاّ واستثمرها في خدمة الكيان الإسلامي فلم يترك نصيحة إلاّ وقالها ولا رأياً وأشار إليه.

ثالثاً: المساهمة في الأعمال الإيجابية

لا زال المسلمون في عهد الخلفاء الراشيدن يتذكرون ما كان رسول الله يطلقه من أوصاف لعلي بن أبي طالب عليه السلام أقضاكم علياً.. أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ولا زالوا يتذكرون كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله يثق ثقة تامة بعلي عليه السلام. فكان يرسله في المهام الصعبة. وكان يطلبه في المشاكل القضائية المستعصية ليُدلي برأيه.

وكان بديهياً أن يقرر الخلفاء الإستفادة من علي عليه السلام، مِن علمِهِ وحكمتهِ ومن حُسن إدارته لأُمور المسلمين، فقد ذكر ابن الأثير أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب استخلف علياً على المدينة مرتين الأولى في السنة

---

(١) الكامل في التأريخ ج٢، ص٥١٨.

الخامسة عشرة للهجرة عند فتح بيت المقدس[1] ومرة أخرى في السنة الثامنة عشرة للهجرة على أثر تفشي الطاعون في الشام فقرّر الخليفة أن يطوف في البلدان وبدأ بالشام مستخلفاً الإمام علي عليه السلام على المدينة[2].

أما اليعقوبي فقد ذكر في تأريخه أن الذي استخلفه عمر بن الخطاب على المدينة في زيارته إلى بيت المقدس هو عثمان بن عفان[3] ولم يذكر اليعقوبي شيئاً عن استخلافه أثناء زيارته الثانية إلى الشام عام ١٨ للهجرة.

وبالإضافة إلى ذلك، كان الإمام علي عليه السلام يقوم ببعض الأعمال المستعصية على الآخرين كالإفتاء في أُمور القضاء، إذ امتلأت كُتب التأريخ والفقه والقضاء بوقائع قضائية كثيرة حدثت في عهد الخلفاء الثلاثة كان للإمام فيها السهم الأكبر في المعالجة والحل. وقد جمع الاستاذ نجم الدين العسكري هذه الوقائع في كتابه عليّ والخلفاء فذكر عشر مراجعات للخليفة الأول إلى الإمام علي عليه السلام ثم ذكر تسعين مراجعة للخليفة عمر وعشر مراجعات للخليفة عثمان فيصبح المجموع مائة وعشر مراجعة قضائية يتولى الإمام حلها في عهد الخلفاء[4].

وهنا كان لا بُدّ من التنويه إلى حقيقة تأريخية هي أن الإمام لم يتولَ أي منصب معين في عهد الخلفاء، وما قيل عن توليه القضاء في عهد الخليفة عمر بن الخطاب غير مؤكد لدى المؤرخين، فلم يرد عند المسعودي واليعقوبي أيّ ذكر لتولي الإمام علي عليه السلام مهمة القضاء أما ابن الأثير فقد ذكر هذه العبارة:

---

(١) الكامل في التأريخ ج٢، ص٥٠٠.
(٢) المصدر نفسه ج٢، ص٥٦١.
(٣) تأريخ اليعقوبي ج٢، ص١٤٧.
(٤) يراجع في ذلك كتاب علي والخلفاء لنجم الدين العسكري.

وكان على القضاء فيما ذُكِرَ علي بن أبي طالب[1] فهو لا يؤكد هذا الأمر.

أما ما ذكره المؤرخون عن الأحداث القضائية التي تصدى لها الإمام في عهد الخليفة عمر فهي كانت تجري ضمن نطاق المراجعات التي كان يضطر إليها الخليفة عمر عند مواجهته لمشكلة قضائية يستعصي عليه حلها.

فالذي كان يتولى القضاء في عهد عمر بن الخطاب هو نفس الخليفة وليس علي بن أبي طالب كما هو ظاهر من الحكايات المروية عن القضاء في تلك الفترة من عهده.

وكان الخلفاء يشاورون الإمام في القضايا الهامة التي تمسُّ الكيان الإسلامي، وفي المسائل التي تتطلب أحكاماً شرعية.

فنظرة الخلفاء عن الإمام كونه المُفضَّل عليهم استبعَدَ استخدامه كموظف في الدولة الإسلامية فهم يستشيرونه باعتباره الأعلم والأكفأ في أُمور الحكم والأحكام فليس من شأن الإمام أن يكون موظفاً كاتباً في عهد أبي بكر وقاضياً في عهد عمر.

إلاّ أن الإمام وتواضعاً منه وحرصاً منه على الإسلام ومستقبل الرسالة، كان يقوم ببعض الأعمال التي لا يجد بين المسلمين من هو قادرٌ على أدائها. فكان يملأ الفراغات في الحكم أينما وجدها فكان يُفتي في المسائل الشرعية ويُشير في المسائل الإدارية ويتولى زمام الأمور في العاصمة الإسلامية، وعندما يرحل الخليفة عنها للحفاظ على أرواح المسلمين وأموالهم كل ذلك انطلاقاً من مبدأ ثابت التزم به الإمام بعد وفاة الرسول الكريم هو الدفاع عن الإسلام وحماية المسلمين.

في نفس الوقت الذي كان فيه الإمام علي عليه السلام يُساهم في تشييد الدولة

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٤٤٩.

الإسلامية كان قد سمح لأصحابه أن يتولوا مناصب حكومية هامة في الدولة الإسلامية فعلى عهد عمر بن الخطاب بدأ الإنفتاح بين المجموعة الحاكمة والتيار الذي كان يمثله الإمام علي عليه السلام فأخذ الخليفة عمر يستعين بعدد من عناصر التجمع العلوي، فقد عين عثمان بن حُنيف وحذيفة بن اليمان لمسح بلاد السواد وجمع خراجها بعد أن تم تحريرها في معركة القادسية فكان خراج العراق ثمانين ألف درهم[1].

كما وأن الخليفة الثاني استخدم سلمان الفارسي على المدائن[2] بعد سقوط الدولة الساسانية لأنه كان من فارس وأيضاً عمار بن ياسر في ولاية الكوفة، كان موقف عمار من هذا النزاع الموقف المحايد، وكان هناك وجهاء الكوفة كعطارد وسعد بن مسعود من كان يُريد لعمار أن يكون مجرد آلة بأيديهم فلم يفسح عمار لهم المجال فتحايلوا على التخلص منه فأرسلوا الوفود إلى عمر بن الخطاب طالبين تنحيته من الولاية فاستجاب عمر لدعواتهم فعزله وعين محله أبا موسى الأشعري وعندما التقيا قال عمر لعمار: اساءك العزل..

فأجابه: ما سَرّني حين استُعملت، ولا ساءني حين عُزلت[3].

ونُقل عن الخليفة عمر بن الخطاب إنه كتب إلى أهل الكوفة رسالة أرسلها مع عمار:

إني بعثتُ عماراً أميراً وجَعلتُ معه ابن مسعود معلماً[4] وكان ابن مسعود بحمص، فسيره عمر إلى الكوفة للقيام بأمور التعليم.

وتقلّص دور مجموعة الإمام علي عليه السلام في عهد الخليفة الثالث عثمان

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٢.
(٢) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٣١٤.
(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٣٢.
(٤) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٤.

ابن عفان لسببين الأول: اعتماد الخليفة بالدرجة الأولى على العناصر الأُموية في تولي المناصب الهامة في الدولة. السبب الثاني تلبّد أجواء العلاقة بين الخليفة وأنصار الإمام علي عليه السلام لِما آلَ إليه وضع المسلمين نتيجة جور الولاة.

فالعناصر التي كانت تتعاون مع أجهزة الدولة الإسلامية حتى في مستهل خلافة عثمان بن عفان، أخذت تراجع نفسها وتتخذ مواقف تتسم بالنقد والمعارضة.

فقد استغل الولاة ليونة عثمان وتسامحه مع أقربائه فانتهجوا سياسة لا تتفق وسياسة الدولة الإسلامية. فَنَهَضَ جمعٌ من الصحابة لأداء مسؤولياتهم الدينية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان أبو ذر ضمن طاقم الصحابة المشاورين في الشام فَنَهَضَ بمسؤولياته عندما تجاوز معاوية حدود الإنفاق التي حددتها الشريعة فكان رد معاوية على أبي ذر أن طرده من الشام.

وحوادث مشابهة وقعت لعمار بن ياسر، فعندما اضطربت الأوضاع في مصر أرسل الخليفة عثمان وفداً لتقصي الحقائق وكان من بين أعضاء الوفد عمار بن ياسر.

أما مالك الأشتر فكان مستشاراً في الكوفة حيث أرسَلَهُ الخليفة عمر ليكون أحد الأفراد الذين يستعين بهم والي الكوفة وهم بالإضافة إلى مالك أبو خشة الغفاري وجندب بن عبد الله وجثامة بن صعب بن جثامة وهم مَن شَخَّصهم الخليفة مع الوليد يعينونه، فصاروا عليه كما جاء في الكامل لابن الإثير[1].

---

(١) الكامل في التأريخ ج٣، ص٨.

رابعاً: الدفاع عن الكيان الإسلامي

عَمِلَ الإمام علي عليه السلام على المحافظة على الروح الجهادية في المجتمع الإسلامي فقد كان الجهاد هو القوة المحركة للمجتمع الإسلامي والذي دفع بهذا المجتمع إلى السمو والرِفعة والتطلع إلى مستقبل أفضل لأبنائه.

إنَّ تَركْ الجهاد سيؤدي حتماً إلى الجمود وإلى التراجع عن الأهداف السامية للرسالة الإسلامية، وأشدّ ما يخشاه الإمام علي عليه السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله هو التوقف عن الجهاد وهذا يعني بداية التراجع في المجتمع الذي أنشأه النبي صلى الله عليه وآله فكان عليه أن يدفع بالقيادة لكي تواصل مسيرة الجهاد حتى لا تتوقف القوة المحركة عن العمل.

وإذا عرفنا أن الحَذَر أخذ يدبُّ في صفوف القادة العسكريين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لأدركنا أهمية الموقف الذي وقفه الإمام علي عليه السلام، فعندما أراد الخليفة أبو بكر أن يواصل خُطة النبي صلى الله عليه وآله في غزو الروم، أشار علي بضرورة الغزو.

ولم يكتف الإمام بهذا القدر، بل كان من المشاركين في الأعمال العسكرية، بالإضافة إلى حثه لأبنائه وأصحابه على المشاركة في الجهاد.

ففي حروب الردة امتدت القلاقل لتشمل مختلف القبائل العربية المحيطة بالمدينة المنورة.

فقد كانت عاصمة الدولة الإسلامية مهددة بالسقوط وسقوطها يعني سقوط الدولة، وكان أهم شيء لدى المسلمين هو الحفاظ على العاصمة من السقوط.

وكانت المدينة محاطة بالجبال من أطرافها الثلاثة وتوصل بين الخارج والداخل طُرق جبلية تُسمى بالأنقاب وهي الثغرات التي من المحتمل أن يستغلها المتآمرون وهم مجموعة فزارة وغطفان تحركوا إلى جنوب طيبة

وطيء وأقامت على حدود أراضيهم وأسد بسميراء واجتمعت عبس وثعلبة ومرّة بالأبرق وأرسلت القبائل بوفد مشترك التقى بأبي بكر ورفض في اللقاء تقديم الصدقة فأنكر عليهم ذلك وأنذرهم الحرب فرجع الوفد فأخبروا القبائل «قِلّة مَن في المدينة» فطمعوا بغزوها.

وهنا تحرك الإمام علي عليه السلام بسرعة وأوعز إلى أصابه طلحة والزبير وابن مسعود إلى سد الثغرات والمرابطة في انقاب المدينة[1] لصد أي هجوم تتعرض إليه المدينة المنورة. فرابط هو وأصحابه على الأنقاب وبعد ثلاثة أيام وقع الهجوم ليلاً فتصدى لهم المرابطون في الثغور فمنعوهم من دخول المدينة إلاّ أن وجودهم بالقرب من المدينة كان يُشكِّل خطراً دائماً وكان لا بُدّ من دفعهم وكسر شوكتهم فجهّز أبو بكر قوة من المسلمين استطاعت أن تطاردهم إلى المناطق البعيدة من المدينة المنورة.

هذا موقف للإمام وهناك مواقف ومواقف.

كان يُقدم أولاده وأبناء عمومته وأصحابه التابعين له للجهاد.

فالحسن والحسين شاركا في غزو طبرستان تحت قيادة سعيد بن العاص[2] وقد حدثت الغزوة في عام ٣٠ للهجرة في عهد الخليفة عثمان.

وقبل ذلك بعشر سنوات في ١٩ للهجرة شارك الحسن في وقعة نهاوند في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث بعث محمد بن مسلمة لقتال الفُرس وكان للحسن في هذه المعركة دورٌ هام فقد بادر إلى تصفية الجراح بن سنان الأسدي أحد الملوك المتمردين على الدولة الإسلامية والمتحالفين مع الفُرس.

عبد الله بن عباس شارك في غزو طبرستان عام ٣٠ للهجرة مع بقية بني

---

(١) الطبري ج٢، ص٤٦٨ والكامل لابن الأثير ج٢، ص٣٤٤.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣، ص١٠٩

هاشم، وفي السنة ٢٧ للهجرة أرسل الخليفة عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يبلبُ مه غزو أفريقيا وكان مَلِكها يومذاك جرجير ويمتد مُلكهُ من طرابلس إلى طنجة وكان يؤازره في الحكم هرقل ملك الروم لأنه كان يدفع إليه الخراج كل سنة.

وحَسِبَ الخليفة عثمان حساب القوة العسكرية التي ستأتي لدعم جُرجير فرأى من الضروري جداً إرسال قوة من المدينة لدعم وتقوية المسلمين الذاهبين إلى حرب جرجير فجهّز جيشاً من أهل المدينة، كان فيهم عددٌ من صحابة رسول الله ﷺ، وكان على رأسهم عبد الله بن عباس[١].

هاشم بن عتبة كان أحد القادة العسكريين في الجيش الإسلامي، أمَّره أبو عبيدة الجراح على جند العراق، كان له دوراً بارزاً في معركة القادسية.

وبشجاعته في الحرب وحنكته استطاع أن يكسب ثقة القادة العسكريين أمثال سعد بن أبي وقاص حيث كان معه في أغلب حروبه في معركة بُهرسير.

كان لهاشم المرقال موقفاً شجاعاً حيث تقدّم نحو المقرَّط وهو أسدٌ كان لكسرى يأخذهُ الفُرس معهم في الحرب فقتله هاشم فأقبل عليه القادة يقبّلون رأسه للشجاعة التي أبداها في تلك المعركة ونصبه سعد قائداً للجيش الذاهب إلى بهرسير. وكان على رأس الجيش الذي زحف نحو جلولاء واشترك في فتح المُدُن التابعة لفارس. واشتهر هاشم المرقال بحسن اختياره لضباطه وأناطتهم المسؤوليات الهامة في الجيش فمن القادة العسكريين الذين تربوا على أيدي هاشم المرقال كان لهم دوراً بارزاً في معارك فتح فارس والذين شهدت لهم ساحات الجهاد مع العدو القعقاع بن عمرو، زياد بن أبيه، مالك الأشتر.

---

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير ج٣، ص٨٥.

مالك الأشتر كان أحد قادة الجيش الذي شارك في فتح حلب وأنطاكية كما وأنه ساهم في فتح دمشق مع هاشم المرقال.

أبو ذر الغفاري، كان في الشام أحد أعمدة الجيش الإسلامي، وعندما غزا معاوية (الصائفة) عام ٢٣ كان أبو ذر أحد المشاركين في هذه الغزوة، وفي سنة ٢٨ للهجرة غزا معاوية قبرس وكان معه أبو ذر إلى جانب جمع من الصحابة والقادة. وإلى جانب هؤلاء الصحابة ساهم كلٌ من عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وصعصعة بن صوحان وأخيه زيد بن صوحان في المعارك الهامة التي خاضها المسلمون مع الكفار.

خامساً: المراقبة والمحاسبة

تعرّض المجتمع الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ إلى عوامل الإنحراف عن الجادة فقد كان الدور المتكامل للقيادة الرسالية يحولُ دون وقوع أي انحراف، فالنبي ﷺ كان مصدر التشريع وكان هو المُنَفِّذ لأحكام الدين والمراقب على تطبيقها، الأمر الذي يستبعد وقوع المجتمع في انحراف كبير. أما بعد غياب النبي ﷺ فكان احتمال الوقوع في الخطأ والإنحراف مسألة طبيعية، الأمر الذي دفع بالإمام علي عليه السلام والمجموعة التي معه إلى مراقبة تطبيق الأُمة للشريعة الإسلامية. وكان موقف هؤلاء القادة الهاشميين موقفاً نابعاً من مسؤولية دينية، وقد تصور البعض لهذا الموقف على أنه رغبة في السلطة أو تنافس على الحُكْم.

وعُرف عن الإمام عدم مسامحته في قضية الدين حتى مع أقرب الناس إليه. فقصته مع عقيل حين أملق فاضطر لأن يأتي إلى الإمام يطلب منه شيئاً من المال، فلم يعطه الإمام شيئاً وهو دلالة واضحة على صرامة الإمام في الإلتزام بالشريعة الإسلامية، وكان هذا هو موقفه مع الجميع وبلا استثناء، وكانت تلك هي حياته بكل أبعادها وزواياها في كل مكان في البيت وفي المجتمع وفي الحُكم.

ومارس الإمام علي عليه السلام عملية المراقبة لتطبيق الشريعة بمختلف الوسائل. ففي مجال القضاء كان للإمام أدواراً مهمة في تصحيح الجهاز القضائي. وفي تقسيم الغنائم كان للإمام دورٌ بارز في تطبيق العدالة الاجتماعية. ولم يثر مداخلات الإمام في مثل هذه القضايا حساسية معينة لدى رجال الدولة.. إلاّ أن بعضها كانت تتحول إلى قضايا مُثيرة. وقد وقعت أمثال هذه المداخلات عدة مرات في فترات مختلفة من حكم الخلفاء الراشدين فكان لا بد من ابرازها كنموذج عن مواقف المعارضة البناءة التي كان يقفها الإمام في تلك الفترة.

١ ـ حادثة قتل مالك بن نويرة:

هو زعيم من بني تميم وينتمي إلى أُسرة عريقة في الشرف توارثت الحكم أباً عن جد، وقد استعمله النبي صلى الله عليه وآله تقديراً لمكانته على صدقات قومه، وعندما بَلَغَهُ وفاة النبي صلى الله عليه وآله واضطراب الأحوال السياسية أمسك بالصدقة وفرقها في قومه وهو يقول:

فقلتُ خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد

فإن قام بالدين المحوق قائمٌ أطعنا وقلنا الدين دين محمدِ[1].

والظاهر من هذين البيتين إن مالك لم يمتنع عن تقديم الصدقات بخلاً ولا طعناً بالحكم الشرعي بل كان له موقفاً من قضية الخلافة واعتقاده بأن الخليفة شخص غير أبي بكر وهو ما كان يعتقد به عددٌ من الأصحاب. وإيضاح هذه الحقيقة ذات أهمية في الكشف عن الجانب المخفي من ملابسات قتل مالك بن نويرة ودخول خالد بن الوليد على زوجته أُم تميم بنت المنهال.

والحكاية كما ذكرها الطبري وابن الأثير على هذا النحو:

---

(١) الإصابة لابن حجر ج٦، ص٣٦.

كان خالد بن الوليد يدور في البطاح بحثاً عن المرتدين عن الإسلام وقد أعطاه الخليفة أبو بكر علامة لفرز المسلم عن غير المسلم وهي الأذان والإقامة، فإذا سمع صوت الأذان من الحي فَعَلِمَ أن أهل الحي مسلمين فيتوقف عن الغارة عليهم. فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع عن عاصم وعبيد وعرين وجعفر فاختلفت السرية فيهم وفيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنّهم قد أذّنوا وأقاموا وصلوا، فلما اختلفوا فيهم أمَرَ بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيئاً وجعلت تزداد برداً، فأمر خالد منادياً فنادى ادفئوا اسراكم وكانت في لغة كنانة إذا قالوا دثروا الرجل فأدفئوه دفأه قتله وفي لغة غيرهم أدفه فأقتله فظن القوم وهي في لغتهم القتل إنه أراد القتل فَقَتلوهم[1] ويذكر ابن حجر في الإصابة عن الدلائل برواية ثابت بن قاسم إن خالداً رأى امرأة مالك وكانت فائقة في الجمال فقال مالك بعد ذلك لإمرأته قتلتني يعني سأُقتلْ من أجلك[2].

وأقبل خالد بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد وعليه قباءٌ عليه صَدَأُ الحديد معتمراً بعمامة وقد غَرزَ في عمامته أسهماً، فلما دخل المسجد قام إليه عُمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطّمها ثم قال ارثاء قتلتَ امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بأحجارك ولا يكلمه خالد بن الوليد ولا يظن إلاّ أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر منه حتى دخل على أبي بكر فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه فعَذرَه أبو بكر وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك[3].

وتُشير هذه النصوص بصورة واضحة على وقوع حادثة قتل مالك بن نويرة عن عمدٍ وسبق اصرار فقد أراد خالد أن يتخلص من مالك ليخلوا

---

(١) تاريخ الطبري ج٢، ص٥٠٢.
(٢) الإصابة ج٦، ص٣٧.
(٣) تاريخ الطبري ج٢، ص٥٠٤.

بزوجته أم تميم لما كانت عليه من جمال ورونق. ونحن لا نشك أن قول خالد: «أدفئوا أسراكم» ما هو ـ إلاّ سيناريو ـ إما من قبل المؤرخين الذين أرادوا أن يبرّئوا ساحة خالد من هذه الجريمة. أو أنها سيناريو من قبل خالد نفسه حيث كان يخطط للإستحواذ على أم تميم، وهذا ما لا يتم إلاّ بقتل زوجها وبطريقة تبعد عنه أية شبهة، فأطلق تلك العبارة ليمنح نفسه فرصة المناورة وفرصة الدفاع عن نفسه والإدعاء الكاذب بأنه أراد الدفء، بينما وَصف الحادثة على لسان المؤرخين تؤكد بأن خالد أراد القتل وليس الدفء، فهو على دراية بلغة كنانة وما تعنيه كلمة أدفئوا في لغتهم. وكان على علم بأن المؤكّل على سجن مالك من كنانة وهو ضرار بن الأزور، ومما يؤيد قصد الجُرم في عمل خالد دخوله على امرأة مالك وقول مالك لامرأته بعد أن تم أسره ـ قتلتني ـ وكان على يقين بأنه مقتول فقد قرأ في صدر خالد رغبة جامحة في الإقتران بزوجته لما كان عليها من جمال.

أما موقف الخليفة عمر بن الخطاب من خالد بعد وقوع الحادثة والطلب إلى أبي بكر بتنفيذ الحكم الشرعي عليه، على الأقل عزله عن إمارة الجيش، ويُفهم من كلام المؤرخين أن دخول خالد على زوجة مالك بدون أن تنقضي عدتها، وقد ذَكَرَ اليعقوبي هذه الحقيقة من كلام لعمر بن الخطاب عندما واجه أبا بكر بحقيقة الفعلة التي فعلها خالد قائلاً له إن خالداً قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته في يومها[1].

ولم يكن الفاصل الزمني بين قتل خالد لمالك وبين وصوله إلى المدينة سوى أيام معدودة وعند وصوله إلى المدينة كان قد تمت هذه الفعلة.

فإذاً هناك عملان ارتكبهما خالد على حد قول الخليفة عمر بن الخطاب، الأول قتلَهُ مالكاً، والثاني زواجه من امرأته بلا عُدة.

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢، ص١٣٢.

وأمام هذين الفعلين الشنيعين ماذا سيكون موقف الخليفة الذي يتحمل مسؤولية حماية أرواح الناس ومسؤولية تطبيق الشريعة.

لقد تجاهل أبو بكر ما ارتكبه خالد ورفض الإصغاء لنداء عمر معللاً ذلك بقوله تأوّل فأخطأ ولا أُشيم سيفاً سلّه الله على المشركين[1] وهو تعليل يرفضه المنطق والعقل والشرع حيث لا يمكن تفسير تلك الرغبة الجنسية العارمة التي دفعت بخالد إلى ارتكاب القتل ومن ثم الاستيلاء على المرأة المصونة بالتأويل والاجتهاد.

لقد تركت هذه الحادثة أثراً واسعاً على المجتمع الإسلامي الذي فقد لتوه نبيه الكريم ﷺ إذ لم يكد ينقضي على وفاته سوى أشهر قلائل فاصطدم بتلك الحادثة التي حملت أبعاداً هامة هي تعطيل الحُكم الشرعي، وانتهاك حرمة اسرة مسلمة وقتل إنسانٍ مسلم.

فقد جاءت هذه الحادثة بمثابة الخرق الصريح لقيم المجتمع، وسلبت من البعض الشعور بالأمن على النفس وعلى العيال، وأوجدت شعوراً باللاثقة نحو السلطة الحاكمة. فعندما ورد متمم بن نويرة أخو مالك على الخليفة أبي بكر ناشده في دمه وفي سَبيهم فلم يجبه أبو بكر إلاّ برد السَبي فقط.

٢ ـ حادثة زنى المغيرة بن شعبة:

المغيرة بن شعبة شخصية تأريخية لعبت أدواراً عديدة في التأريخ الإسلامي وتسليط الضوء على حياة هذا الرجل يكشف لنا عن واقع المجتمع الإسلامي، وطبيعة الحكم بعد النبي ﷺ.

فقد ذكر المؤرخون في طريقة إسلامه أنه غَدَرَ برفاق تجارته وسرق منهم أموالهم، ووجد أسلم طريق لتأمين الأموال المسروقة وضمان حياته

---

(١) الإصابة ج٦، ص٣٧.

من الإنتقام هو أن يذهب إلى المدينة المنورة ويُعلن إسلامه فيكون في حماية النبي ﷺ[1].

وظلت ترافق المغيرة طيلة حياته بعد إسلامه عُقدة الدونية، فهذا الشعور مسجّل في التأريخ في عدة وقائع.

قَدِمَ مرة إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر وهو والي على الكوفة وهي راهبة عمياء، فاستأذن عليها، فقيل لها أمير هذه المَدَرَة بالباب قالت قولوا له من ولد جبلة بن الأيهم أنت قال: لا، قالت أفمن ولد المنذر بن ماء السماء أنت؟ قال لا، قالت فَمَنْ أنت؟ قال: أنا المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت فما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً، قالت لو كنت جئتني لجمال أو مالٍ لأطلبنك ولكن أردت أن تتشرف بي في محافل العرب فتقول نكحتُ ابنة النعمان بن المُنذر وإلاّ فأيُّ خير في اجتماع أعور وعمياء[2].

والتشكيك في نسبه متوغلٌ إلى أعماقه مما جعل شخصيته مهزوزة همه البحث عن أي عنوان يستطيع به أن يرفع رأسه بين العرب.

كان يبحث عن أية مفخرة يفتخر بها ليسدّ بها نقصه في النسب وفي البدن فهو واحد العين. كان يدعي أنه آخر من رأى النبي ﷺ في قبره وكل من سمع بهذا الكلام خالجه الشك وبمجرد وصوله إلى المدينة كان يذهب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ليسأله عن قصة آخر من رأى النبي ﷺ.

كانوا يأتون إلى علي عليه السلام فيقولون له:

يا أبا الحسن جئنا نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا به.

فكان الإمام يفهم ماذا يُريدون وعماذا يبحثون، فكان يسبقهم بالسؤال. أظنُ المغيرة يُحدّثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ.

---

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في اسلامه ص٨١، ج١٦.
(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٨، ص٣٠٥.

قالوا أجل عن ذا جئنا نسألك..

وبسرعة البرق قال الإمام: كذب، كان أحدث الناس عهداً برسول الله قُثَمَ بن العباس[1].

ويذكر ابن حجر أن المغيرة أول من قدّم الرشوة في الإسلام باعترافه حيث ذكر أنا أول مَن رشا في الإسلام جئت إلى برقا حاجب عمر وكانت أجالسه فقلت له خذ هذه العمامة فالبسها فإن عندي أختها فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب فكنت آتي فأجلس في القائلة فيمر المار فيقول إن للمغيرة عند عمر منزلة إنه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد.

وربما كانت هنالك غايات أخرى من هذا التظاهر (بالقرب من عمر) بالإضافة إلى سد النقص الكامن في نفسه، إن الشعور المتزايد بالنقص صنع من المغيرة شخصية تآمرية قادرة على حياكة المؤامرات والدسائس.

ولو كان الإيمان قد تغلغل إلى أعماقه لصلحت نفسه وطهر قلبه من أدران العُقد النفسية إلاّ أن إيمانه السطحي والمصلحي لم يكن لينفعه في تغيير شخصيته الضعيفة إلى شخصية قوية بدليل أنه ظلّ يمارس عاداته التي كانت متأصلة عنده في الجاهلية وأهمها الإكثار من الزنى.

والزنى نوع من أنواع التفريغ لمشاعر النقص والدونية، عندما يكون للزاني زوجة فقد ظل المغيرة يمارس الزنى حتى في عهد الإسلام وحتى أيام ولايته في البصرة فقد ضبطه أربعة ممن يعرفونه وهو يتردد إلى بيت أم جميل وهي امرأة من ثقيف مات زوجها وقد شاهده أربعة وهو يواقعها، وحاول أبو بكرة أحد الشهود أن يمنعه من أداء صلاة الجماعة، لكنه ظلّ لا يبالي بأقوالهم فأرسلوا إلى الخليفة عمر يُخبرونه بما حدث فأرسل عمر

(١) ذكرها الطبري في تأريخه ج٤ ص٦٩ ـ ٧٢ والأغاني ج١٦ ص٧٩ ـ ١٠١.

على المغيرة وعلى الشهود واستطاع وبطريقة مفبركة أن ينقذ المغيرة من الرجم وهو يعلم أنه زانٍ وأقام الحد على الشهود الثلاثة.

وليس سراً أن يكشف المؤرخون أن الخليفة عمر كان متيقناً من وقوع جريمة الزنا فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الخليفة عمر حج بعد تلك الحادثة فوافق الرقطاء بالموسم فرآها وكان المغيرة يومئذ هناك فقال عمر للمغيرة ويحك أتتجاهل عليّ والله ما أظن أبا بكرة كَذَبَ عليك وما رأيتك إلاّ خفت أن أرمى بحجارة من السماء.

وقد شاع أمر المغيرة وأصبح سُبّةً بين المسلمين. فقد نال منه حسان ابن ثابت بهذه الأبيات يهجوه بها.

لو أن اللوم ينسبُ كان عبداً قبيح الوجه أعَورَ من ثقيف
تركت الدين والإسلام لهواً معَ القينات في العمر اللطيفِ[1]

ولم يقنع أحد بالحكم الذي أصدره عمر في تبرئته.

وكان الإمام علي عليه السلام يقول إن ظفرتُ بالمغيرة لاتبعتهُ الحجارة ـ أي لأقمتُ عليه الحد ـ.

تكتشف هذه الحادثة عن عدة حقائق هامة.

١ ـ ضعف الحركة التغييرية في المجتمع بحيث يبقى الأفراد الذين أسلموا على عاداتهم السابقة ويعود أحد أسباب ذلك إلى انشغال الدولة بأمور أخرى وعدم اعتناءها بهذا الأمر الهام.

٢ ـ إهمال الأسُسْ التي بموجبها يتم اختيار الولاة، فقد كانت عوامل القرابة والمداهنة والقدرة والحيلة والدهاء هي الأُسس التي قامت عليها قاعدة اختيار الولاة إلاّ ما نزر.

٣ ـ ضعف المسؤولية الإجتماعية بحيث تبخّر احساس الفرد

---

(١) ذُكرت الأبيات في الأغاني بشكل آخر فراجع ص١٠٠ ج١٦.

بالمسؤولية التي تفرضها العلاقات الإجتماعية والعلاقة مع السلطة.

فالذين شهدوا على المغيرة إحساساً منهم بالمسؤولية كان الثمن الذي تلقوه مقابل شهادتهم باهظاً وممن (؟) من أعلى سلطة في الدولة وممن يقع على عاتقه حماية القانون والأحكام الشرعية.

فلو أردنا أن نتصور الحادثة بلا رتوش، لكانت في الخلاصة، إن مُجرماً أفلت من العقاب وإن أبرياء عوقبوا بدلاً عنه أنهم شهدوا عليه وهي صورة مؤلمة تتكرر مع الزمن.

ونحن نشك في الدوافع التي قدّمها المؤرخون للخليفة عمر في اعفائه وتبرئته لساحة المغيرة من جريمة وجدوه متلبساً بها، ولعَلّ السبب في ذلك هو ما تشكله هذه القضية من حرج للخليفة باعتباره كان والياً له على البصرة بعد أن رفضه أهل البحرين قبل أن يذهب إلى البصرة.

على أي حال كان الإمام علي عليه السلام هو الشاهد الوحيد على هذا التجاوز لحدود الشرعية وقد أعلنها صراحة إن ظفرتُ بالمغيرة لاتَّبعتَهُ بالحجارة[1] واكتفى بهذا القدر فهو لم يرد تفجير القضية وإثارة زوبعة ضد الخليفة حفظاً على سلامة الدولة الإسلامية وسمعتها بين الأُمم.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ج١٦، ص١٠٠.

موقف الإمام في عهد الخليفة عثمان

اشتد الإنحراف في عهد الخليفة عثمان بن عفان الأمر الذي أوجب على الإمام علي عليه السلام أن يقف موقفاً أكثر صرامة وأكثر حنكةٌ، ولكنه في جميع مواقفه في عهد الخليفة عثمان الذي استمر اثنا عشر عاماً كان أشد رغبة في الإصلاح ومواجهة الإنحراف بكل الوسائل المتاحة، ويعود أسباب تزايد الإنحراف في عهد الخليفة عثمان إلى العوامل التالية.

١ ـ استلم الخليفة عثمان بن عفان مسؤولية الخلافة وعمره يومذاك سبعون عاماً وكانت شخصيته تميل إلى الدعة واللين فهو غنيٌّ من الأغنياء قبل الإسلام وظلَّ على غناه في الإسلام أيضاً، والأغنياء مهما كانوا على تقوى فهم لا يقدرون أن يشعروا بما يشعره المحروم. فكانت دائرة المحرومين تتسع مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وإذا أضيف للحرمان الإقتصادي ظُلم الولاة فقد تكامل عاملان مهمان من عوامل التمرد والثورة.

وبسبب كبر سِنه ووداعته فقد ترك الخليفة أُمور البلاد إلى أقربائه الذين يَطمئن إليهم ويثق بولائهم له.

وقدِم على عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أُمية. والحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي غربه عن المدينة ونفاه عن جواره وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبي المعيط على الكوفة،

وهو ممن أخبر النبي ﷺ أنه من أهل النار وعبد الله بن أبي سرح على مصر ومعاوية بن أبي سفيان على الشام وعبد الله بن عامر على البصرة وصَرَفَ عن الكوفة الوليد بن عُقبة وولاّها سعيد بن العاص[1].

وكان الخليفة ضعيفاً أمام مروان بن الحكم يفعل ما يأمره به فقد وصف الطبري كيف استطاع الإمام علي عليه السلام أن يُهدِيء الأوضاع وأن يُرجع الثائرين إلى بلدانهم وأخذ من عثمان شرطاً أن لا يطيع مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية فأجابه إلى ذلك[2].

لكن بمجرد أن هدأت الأوضاع عاد مروان بن الحكم واقترح على الخليفة أن يخرج ويتكلم بما ينال به من الثوار ففعل الخليفة فانتهره عمرو ابن العاص فرجع علي عليه السلام إلى عثمان مغضباً حتى دخل عليه فقال أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه... الخ.

فلما خرج علي دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة امرأته فقالت أتكلّم أو أسكت؟ فقال تكلمي، فقالت: قد سمعت قول عليّ لك وإنه ليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء، قال فما أصنع؟ قالت تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صاحبك من قبلك فإنك متى أطعت مروان قتلك، وفي كل مرة يحاول الصحابة أن يصلحوا الأمر يأتي مروان إلى عثمان فيغريه أن يفعل ما يُثير الوضع ضده من جديد.

ولو قدِّرَ للخليفة أن يقف الموقف الصارم من أقربائه من بني أُمية ويحاسبهم على كل معصية لما كان يحدُث ما حدث.

٢ ـ افتقار سياسة عثمان المالية إلى حالة من التوازن وإلى قاعدة ثابتة

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) انظر الطبري ج٤، ص٣٥٨.

في التوزيع العادل وكانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة هي افتقار الرقعة الكبيرة من المجتمع الإسلامي وتسابق الأقلية الأموية على اقتناء الأموال والعقارات.

يذكر المسعودي وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور منهم الزبير بن العوام بني داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخَلِفَ الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة.

وكذلك طلحة بن عبد الله التميمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به إلى هذا الوقت المعروفة بالكُناسة بدار الطلحيين وكان غلته من العراق كل يومٍ ألف دينار وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزُهري ابتنى داره ووسّعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة مِن الغنم وبلغ بعد وفاته رُبُع ثمن ماله أربعةٌ وثمانين ألفاً وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل اعلاها شُرُفات.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[1].

ويحاول المسعودي أن يوجد مفارقة بين البذخ في عهد عثمان والزهد في عهد الخليفة عمر فيقول...

وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا[2].

وكان بنو أمية يتعاملون مع بيت المال وكأنه من مالهم الخاص بل أكثر

---

(١) المسعودي ج٢، ص٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه ج٢، ص٣٤٢.

من ذلك كانوا ينظرون إلى ممتلكات الدولة الإسلامية على أنها جزء من ممتلكاتهم الشخصية.

فقد ذكر الطبري كان سعيد بن العاص والي عثمان في الكوفة يسمر مع وجوه الناس فقال مخاطباً الجمع من حوله، إنما هذا السواد بُستان لقُريش[1] ويقصد العراق.

فواجهه مالك الأشتر قائلاً أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بُستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلاّ أن يكون كأحدنا.

وكان الخليفة يشجعهم على اتباع هذه السياسة فقد كتب لمروان بخُمس مصر[2] فتجبروا وطغوا فأشاعوا الفساد والارهاب بين الناس.

وقد أوجد هذا الغنى طبقة واسعة من الفقراء من العرب والموالين الذين كانوا يعملون على الأرض في الزراعة. ولعل أقوى دليل على وجود هذهِ الطبقة الوسيعة من الفقراء حركة أبي ذر الغفاري والتي كان على رأس أهدافها الدفاع عن حقوق المحرومين والفقراء، فكان يقول ويلٌ للأغنياء من الفقراء.

وبشّر الأغنياء بمكاوٍ من نار تكوى جباهَهُم وجنوبهم وظهورهم.

ولولا هذه الحركة التي قام بها أبو ذر للدفاع عن الفقراء والمحرومين لما عرفنا بوجود الفقر في زمن عمثان، إذ لم يتحدث المؤرخون إلاّ عن الأغنياء وعما يمتلكون من أموال وأراضٍ، أما الفقراء فلا نجد ذكراً لهم في صفحات التأريخ.

٣ ـ اتساع الإنحراف في المجتمع الإسلامي، فقد أدّى تزايد الثروة لدى قطاع من المهاجرين والأنصار إلى انتشار روح البذخ والإشراف وإلى اقتناء العبيد والجواري.

---

(١) الطبري ج٤، ص٣٢٣.

(٢) الطبقات الكبري ج٣، ص٦٤.

وكان هؤلاء العبيد يؤدون الأعمال بالنيابة عن سيدهم الأمر الذي أوجد الفراغ في حياة أصحاب الأموال الطائلة فكانوا يضطرون لملئه باللهو والغناء، يقول الدكتور طه حسين عن هذه الظاهرة.

ونشأ عن ذلك أن الذين اشتروا الأرض في بلاد العرب عامة وفي الحجاز خاصة قد أرادوا أن يستغلوا أرضهم فاجتلبوا الرقيق وأكثروا من اجتلابه ولم يمض وقت طويل حتى استحال الحجاز إلى جنة من أجمل جنّات الأرض، وأحسنها ثَمَراً، وأعودها على أهلها بالغنى وما يستتبع الغنى من الترف والفراغ، وما هي إلاّ أن تنشأ في الحجاز نفسه. في مكة والمدينة والطائف طبقة من هذه الارستقراطية الفارغة التي لا تعمل شيئاً وإنما يُعمل لها ما جلبت من الرقيق والتي تنفق وقتها في فنون اللهو والعبث والمجون.

ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جُلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وغيره من بلاد العرب فكان الترف والتبطّل وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطّل فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذي لا يصدر وجداً ولا نشاطاً وإنما يصدر بطالة وفراغاً وتهالكاً من أجل ذلك في اللذة أو عكوفاً من أجل ذلك على النفس وتعمُّقاً لما ينتابها من الهم[1].

وكان ممن جلب الإماء والجواري والي الدولة الإسلامية على البصرة عبد الله بن عامر فيذكر ابن خُرداذَبَه.

كان عبد الله بن عامر اشترى إماء نائحات وأتى بهنّ إلى المدينة فكان لهن يومٌ في الجمعة يلعبن فيه وسمع الناس منهن[2].

ويُستنتج مما تقدم أن الغناء بدأ أول ما بدأ من بيوت الولاة الذين هم قدوة المسلمين وأنهم ولاة لبلادٍ دخلت في الإسلام لتوّها.

---

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى، عثمان ص٧٤٠.

(٢) الأغاني ج٧، ص١٧٩.

أما الخمرة فكانت رفيقة الغناء وهي أيضاً بدأت تنتشر في الأمصار وفي عاصمة الدولة الإسلامية حتى ذكر المؤرخون أن محمد بن أبي حُذيفة قد وجد في حالة سكر وهو ربيب عثمان بن عفان، فأجرى عليه الحد. وكان ممن يُشيع شرب الخمر بعض ولاة الخليفة على الأمصار والأقطار.

وقد بدا كل شيء معكوساً، فإذا الذي يتولى مسؤولية مُراقبة المجتمع ومواجهة مظاهر الإنحراف ويعمل على إقامة الحدود على العاصين أصبح أول من يُمارس الإنحراف ولا يتورع عن شيوع أنباء انحرافه في المجتمع، فكيف سيكون وضع الناس العاديين وعلى هذا فقِس ما سواه.

٤ ـ ظلم الولاة واستئثارهم بالأموال وتجاهرهم بالفسوق.

اتبع الخليفة عثمان سياسة خاصة في نصب وعزل الولاة فلم يعر أية أهمية للمعايير الإسلامية في اختيار الولاة، فقد آثر مصالح العشيرة على المصالح الإسلامية العليا.

فقد ولى الوليد بن عقبة مكان سعد بن أبي وقاص مع علمه التام بأنّ الله أنزل فيه قرآناً وكان والده ممن يُباشر عملية إيذاء النبيﷺ، وكان آخر شيء يُفكر فيه سعد هو عزله وتعيين الوليد مكانه (وهو أخو الخليفة من أُمّه).

ويُذكر أنه عندما دَخَل الكوفة، قال له سعد: أزائراً يا أبا وهب أم أمير قال الوليد بل أمير يا أبا اسحاق قال سعد والله ما أدري أحمقت بعدك أم كستَ بعدي. قال الوليد: ما حمقت بعدي ولا كست بعدك وإنما ولي القوم الأمر فاستأثروا فقال له سعد ما أراك إلا صادقاً[1].

فكان الوليد يمتلك الشجاعة الكافية لكي يقول الحقيقة، إنما ولي القوم الأمر فاستأثروا ويقصد بالقوم بني أُمية.

---

(١) طه حسين اسلاميات ص٨٠.

واسلام الوليد هو إسلامٌ ظاهري، فقال ظلّ على عاداته التي اعتاد عليها في الجاهلية ومنها شُربِه الخمر، وبلغ به الاستهتار حداً أنه تقدَّم إلى صلاة الصُبح وهو سكران، فصلى بهم أربعاً وقال أتريدون أن أزيدكم وقيل إنه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول: ما تُزيد لا زادك الله من الخير والله لا أعجبُ إلاّ ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد فدخل قصره يترنح ويتمثل بأبيات لتأبط شرّاً:

ولست بعيداً عن مدامٍ وقينة ولا بصفا صلند عن الخير معزل

ولكنني أروى من الخمر هامتي وأمشي المَلا بالساحب المتسلسل

وأشاعوا بالكوفة فعله وظهر فسقه ومُداومته على شرب الخمر فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجُندب بن زهير الأزدي وغيرهما فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان وما يدريكما أنه شرب خمراً، فقالا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه فزجرهما ودفع في صدورهما. وقال تنحيا عني فخرجا من عنده وأتيا علي ابن أبي طالب عليه السلام عنه فأخبراه بالقصة فأتى عثمان وهو يقول دفعت الشهود وأبطلت الحدود[1].

واضطر الخليفة أمام ضغط الرأي العام أن يذعن للأمر الواقع ويُقيم الحد على الوليد.

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥.

وأرسل مكانه سعيد بن العاص، وكان الأحرى به أن يُعين شخصاً آخر مقبولاً عند المسلمين ولا يمتُّ له بقرابة ليخفف من حجم المعارضة الساخنة.

فقد فجّر سعيد بن العاص بسياسته الهوجاء حالة التمرد. بمقولته المشهورة: إنما هذا السواد بستانٌ لقريش ـ فهبّ بوجهه جمعٌ من الصحابة وكانت حركتهم بداية انتفاضة تواصلت حتى مقتل الخليفة.

ومن الذين تم تنصيبهم والياً عبد الله بن عامر وكان فتّى لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره تم تنصيبه مكان أبي موسى الأشعري، ليس لشيء إلا لقرابته فهو ابن أُخت الخليفة وقد سبق ما ذكرنا في أحواله أنه كان مولعاً بشراء الإماء.

ومن ولاته عبد الله بن أبي سرح الذي نزلت في حقه آية من القرآن وقد أهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح على رؤوس الأشهاد، والمسلمون يعرفون ذلك ولم ينسوا مواقفه من رسول الله ﷺ وبالرغم من ذلك فقد أرسله الخليفة والياً على مصر وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام لاكتملت الصورة ولأدرك أبسط إنسان يعيش في ذلك اليوم، ان الكيان الإسلامي في خطر وأن الظُلم والتعسف سيسودان الأُمة.

نظرة الخليفة وأعوانه إلى الدولة

كان الخليفة وأعوانه يتصرفون في سياسة الدولة من خلال تصورٍ تفرزه عقيدة ثابتة ترسَّخت لديهم وهي..

١ ـ إن الخلافة هي منحة إلهية، والخليفة مسؤول أمام الله، فعندما حاول بعض الصحابة الضغط على الخليفة وإجباره على خلع نفسه.

قال لهم: لا أنزعُ سربالاً سربلنيه الله، ولكن أنزع عما تكرهون[1] وهذه

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ج٣، ص٦٦.

العبارة تعكس ما يصطلح عليه اليوم بنظرية الحق الإلهي وعلى أساس هذا الإعتقاد كان الخليفة يتصرف وكأنه موكّل من قبل الله في تصريف أُمور الناس وما على الناس سوى الطاعة ولا حق لهم في إرغامه على شيء.

وخطورة هذه الفكرة تكمن في السياسة المالية التي اتبعها الخليفة إذ أعطى النفس الحق في التصرف ببيت المال، فأخذ يوزّع العطاء حسب ما يراه من مصلحة، وقد سار عماله في الأموال بسيرته فأخذوا يتصرفون بالأموال كما يحلو لهم دون ضابط.

٢ ـ المشهور أن بني أُمية لم يدخلوا الإسلام عن قناعة ولم يفهموا الإسلام كما هو مُنَزّل من قبل الله تبارك وتعالى. فكل ما يستطيع أن يدركه شيخ الأُمويين أبو سفيان أن الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله ليس أكثر من صراع للحصول على السلطة. وقد أفصح أبو سفيان عن عقيدته هذه يوم وقف هو والعباس ينظرون إلى كتائب المهاجرين والأنصار، فقال لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فردّ عليه العباس.. ويحك إنها النبوة[١].

فأبو سفيان لم يفهم الإسلام على أنه دين جديد نازلٌ من عند الله. بل كل ما فهمه أبو سفيان وغيره إن الدين الجديد ما هو إلاّ أُسلوب ذكي من محمد للسيطرة على السلطة وظلّ على هذه العقيدة حتى آخر عمره.

وعندما بويع عثمان بالخلافة دخل دار عثمان ومَعَهُ بنو أُمية، فقال أبو سفيان أفيكم أحدٌ من غيركم؟ وقد كان أعمى.

قالوا لا: قال: يا بني أُمية، تلقفوها تلقُف الكرة فوالذي يحلفُ به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرَنّ إلى صبيانكم وراثة[٢].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٤٦.

(٢) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٣٥٢.

نلاحظ في هذا النص أمرين هامين:

الأول: استمرار حالة الشرك عند زعيم بني أُمية أبي سفيان فهو لا زال يشك بالله الواحد القهار ويُقسم بالذي اعتاد أن يُقسم عليه أهل الجاهلية.

الثاني: كل الذي حدث وجرى في جزيرة العرب على أيدي النبي ﷺ ما هو إلاّ تنافس على السلطة وها قد جاء الوقت المناسب لكي يستلم بنو أُمية السلطة من بني هاشم ولا يدعونها تخرج من أيديهم.

وأخَذَ ولاة بني أُمية يتصرفون بعد استلام السلطة وكأنّ كل شيء مُلك يمينهم، وقد أفصح سعيد بن العاص عن هذه النظرة، عندما اعتبر العراق بستاناً لهم يتقاسمونه بينهم، وما توزيع القطائع في الأمصار على بني أُمية إلاّ تطبيق لتلك السياسة التي تعتبر البلاد ومن عليها ملكاً للسلاطين.

وليس أبلغ مقولة تكشف عن هذه النزعة من مقالة زياد وهو أحد ولاة بني أُمية وأصبح يعتبر نفسه سليل البيت الأموي بعد أن لَحِقَهُ معاوية بأبيه.

خطب زياد قائلاً أيها الناس: إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذاده نسوسُكم سلطان الله الذي أعطانا، ونذودُ عنكم بفيء الله الذي خوّلنا.

فكل شيء لبني أُمية طالما كانت السلطة بأيديهم.

ولعلّ أخطر أثر تركته خلافة عثمان هو زرع هذه الفكرة والتي مهدت الطريق لحكم معاوية بن أبي سفيان ومن بعده لملوك بني أُمية الذين حولوا الخلافة الإسلامية إلى ملوكية.

المعارضة

بدأت المعارضة منذُ اليوم الأول مِن اعتلاء عثمان بن عفان منصب الخلافة فقد كانت أول مواجهة للمسلمين مع الخليفة الجديد، تلك هي المواجهة التي حدثت نتيجة تساهل الخليفة مع جريمة القتل التي ارتكبها عبد الله بن عمر بسفكه لدماء ثلاثة لم يثبت جُرمهم،فقد قتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة لمجرد شبهة اشتراك الهرمزان وجُفينة مع أبي لؤلؤة في قتل أبيه. وكان المفترض إقامة حد القصاص عليه لأنه تجاوز على أُناس لم يثبت للحاكم تواطؤهم في جريمة قتل الخليفة عمر، وعلى فرض ثبوت الإدانة بحقهم فالحد لا يُجرى إلاّ بأمر الحاكم وطالما لم يأمر الحاكم بذلك فليس من حق أحد اجراء القصاص.

كيف تصرّف الخليفة حيال هذه الجريمة؟

انقسم المسلمون إلى قسمين، قسمٌ وهُم الأكثرية وفي مقدمتهم علي ابن أبي طالب يُنادي بإجراء حد القصاص على عُبيد الله.

وقسمٌ آخر هم المقربون إلى الخليفة الثاني وممن مهدوا السبيل لخلافة عثمان كانوا يرون التغاضي عمّا ارتكبه عُبيد الله بحجة، يُقتل عمر أمس ويُقتل إبنه اليوم.

وكان أول ضعف كشفه الخليفة عن نفسه عندما مال إلى الطرف

الثاني، ووجد في كلام الداهية عمرو بن العاص ما يُبرِّر له ذلك فقد قال له قد أعفاك الله من هذه القضية فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين سلطان فقال عثمان أنا وليّه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي[1] وبذلك فَلَتَ عُبيد الله من القصاص العادل، وفَلَتَ أيضاً من الدية الواجب تقديمها لأهل المقتول فلم يدفع منها قرشاً واحداً. وقد شكّل هذا الموقف بداية ظهور معارضة علنية ضد الخليفة، فنظّم الشعراء الأبيات في هذه الحادثة منهم زياد بن لُبيد حيث سلب من الخليفة حقّه في العفو، قائلاً:

أتعفوا إذ عفوتَ بغير حق فما لك بالذي تحكي يدان

ولم يمضِ وقتٌ طويل على هذه الحادثة وبعد عام تقريباً عيّن أخيه من أُمّه الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط والياً على الكوفة بدلاً من سعد بن أبي وقاص.

فكان يجاهر في شرب الخمر وقد اضطر الخليفة لإجراء الحد عليه وعَزلِه، ومن بعده أُنيطت الولاية إلى أحد أبناء العشيرة وهو سعيد بن العاص وحتى سنة ٣٠ للهجرة استطاع بنو أُمية أن يُطبقوا سيطرتهم على الدولة الإسلامية، ومع استبداد الولاة كانت المعارضة للحُكم تزداد اتساعاً وتزداد قوةً وأول عمل قامت به المعارضة هو إزاحة سعيد بن العاص عن ولاية الكوفة وذلك في سنة ٣٤ للهجرة.

ويَذكر المسعودي في أحداث هذه السنة أن طلحة والزُبير كانا جالسين أثناء خروج عمرو بن العاص وقد سَمِع ما قيل في اجتماع الخليفة مع ولاته فقالا له:

تعال إلينا فصار إليهما، فقالا: ما وراءك، قال: الشر ما ترك شيئاً من المنكر إلاّ أتى به وأمَرَهُ به وجاء الأشتر فقالا له إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباءَ قد رُدَّ عليكم وأمرَ بتجهيزكم في البعوث وبكذا وبكذا، فقال الأشتر:

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٧٥.

والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء فكيف وقد قمنا وأيم الله على ذلك لولا أني انفذتُ النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعَه دخولها مقالاً له فعندنا حاجتك التي تقوم بك في سفرك. قال: فأسلفاني إذن مائة ألف درهم قال فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم فقَسَّمها بين أصحابه وخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد، ثم قال أما بعد فإن عاملكم الذي أنكرتُم تعديه وسوء سيرته قد رُدَّ عليكُم وأمَرَ بتجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة، وخرج راكباً متخفياً يُريد المدينة أو مكة، فلقي سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف إلى المدينة وكَتَبَ الأشتر إلى عثمان إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنُفسِدَ عليك عملك ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه فابعث إلى عملك من أحببت. فكتب إليهم انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولُّوه فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعري فولوه.

فكان لا بد من وقفة تأمل أمام هذه الحركة لأنها كانت بداية الثورة على الحكم.

١ ـ شمولية المعارضة، فهي لم تكن مقتصرة على جماعة الإمام علي عليه السلام وخطّه بل كانت تشمل آخرين كطلحة والزُبير وعمرو بن العاص، بغض النظر عن نواياهم المبيتة.

٢ ـ كانتا المعارضة في بداية أمرها ملتزمة فهي لا تتجاوز حدود معارضة الولاة الظالمين والمطالبة بتطبيق العدالة ولم تَمس شخصية الخليفة.

٣ ـ حالة الفقر كانت قائمة على رغم ذلك الغنى الذي كان قد استشرى في الحجاز، فالأشتر وهو أحد كبار القادة لا يملك المال لكي يعود إلى العراق فيضطر للإستقراض من طلحة والزُبير (١٠٠ ألف درهم).

٤ ـ سُرعة التحاق الناس بالمعارضة بسبب الجَور الذي لحِق بهم والظُلم الذي نالهم من ولاة عثمان.

ومع دخول عام ٣٥ للهجرة دخلت المعارضة مرحلة أكثر صرامة في المواجهة بسبب إهمال مطاليبهم والتي كانت على رأسها اعتزال الخليفة للعصابة الأُموية التي كانت تحيط به وعَزل الولاة الأُمويين الذين كانوا يحكمون بأهوائهم وليس بأحكام الله.

ومع تجاهل الخليفة لتلك المطالب، توجهت المعارضة نحو تعديل مواقف الخليفة، إلاّ إنها لم تفلح في تغيير الوضع.

وأمامنا ثلاثة نماذج:

١ ـ عبد الله بن مسعود.

كان عبد الله بن مسعود وهو المعروف بأمانته وإخلاصه خازناً لبيت المال في الكوفة وحدث أن اقترض الوليد بن عقبة مقداراً من المال من بيت المال فطالبه ابن مسعود عند الأجل فتجاهل ذلك، وأمام الحاحهِ أرسل الوليد برسالة إلى عثمان يطلب منه تعنيفه، فكتب إليه عثمان إنما أنت خازن لنا فلا تعرض الوليد فيما أخذ من بيت المال. فاغتاظ ابن مسعود وترك وظيفته، وأقام في داره مكتفياً بالوعظ والإرشاد وتحوّل داره إلى معقل للمعارضة ولكل غاضب على السلطة واشتد ابن مسعود في تحركِه ضد الخليفة عثمان فأرسل عليه، فعندما دخل عليه المسجد قابله بكلمات لا تليق بالخليفة وأُخرج من المسجد بالقوة وضرب بالأرض فكسرت احدى أضلعه وقَطَعَ عنه الخليفة العطاء وحظَّر عليه الخروج من المدينة ليصبح تحت عيونهم وساءت أحواله الصحية، فمرض فعاده الخليفة بغية كسب رضاه فلم يبالِ بوجوده فأراد عثمان أن يعيد إليه العطاء فقال له ابن مسعود حبستم عني حين احتجت إليه وتردّه إليّ حين لا حاجة لي به فقال عثمان يكون لأهلك، قال ابن مسعود: رِزقُهم على الله، ثم توفي ابن مسعود وصلى على جنازته عمار بن ياسر، ولم يخبروا عثمان بوفاته فغضب عثمان وهو

يقول: سبقتموني به. قال عمار: فإنه أوصى ألاّ تصلي عليه، فأسرها عثمان في نفسه وكانت من أسباب غضبه على عمار[1].

٢ ـ أبو ذر الغفاري.

أبو ذر نموذج للإنسان المسلم والعربي الذي تربى في الصحراء، فترى باطنه من خلال ظاهره ويفضح لك عن قلبه من خلال لسانه.

أبو ذر ظل حتى آخر لحظة من عمره كما هو في أول اسلامه، يوم نظر إليه النبي ﷺ فقال ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر.

وكان أبو ذر يأتي إلى المدينة من الشام فيجاور قبر الرسول أيام مكوثه في المدينة. وفي إحدى المرّات اكتشف أمراً هاماً لم يخطُر على باله، فقد أعطى عثمان لمروان بن الحكم مالاً كثيراً وأعطى الحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم فتأثر أبو ذر فوقف بوجه مروان يقرأ عليه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فشكاه مروان من هذا التصرف، فأرسل الخليفة إليه مولى له ينهاه، فقال أبو ذر أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله.

وكانت هذه بداية معارضته لسياسة عثمان في العطاء حيث كان يعطي البعض ويقطع عن البعض الآخر والذين يأخذون منه كانوا يتفاضلون في العطاء فأراد عثمان أن يتخلص منه فأرسله إلى الشام.

وفي الشام لم يهدأ أبو ذر لحظة واحدة فقد وجد معاوية يُسرف في أموال المسلمين، في بناء القصور، ويتصرف في بيت المال وكأنه من ماله الخاص.

فتلعلع صوت أبي ذر في وجه معاوية كأنه السيف البتّار، فخاف معاوية

---

(١) طه حسين اسلاميات ص٧٨١.

على نفسه وعلى أهل الشام فأرسله إلى المدينة، وفي المدينة أخذ يواصل رسالته في مقاومة الإستئثار والإسراف في مال المسلمين.

وكان يقول بشّر الأغنياء بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فاجتمع حوله كل مؤمن وكل فقير وأصبح يُشكّل خطراً يهدّد السلطة.

ورُوي أن أبا ذر دَخَلَ على عثمان وكان عليلاً متوكئاً على عصاه وبين يدي عثمان مائة ألف درهم قد حُملت إليه من بعض النواحي وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يُقَسِمها فيهم فقال أبو ذر: لعثمان، ما هذا المال فقال عثمان: مائة ألف درهم حُملت إليّ من بعض النواحي أُريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيي فقال أبو ذر (رض) لعثمان يا عثمان أيما أكثر مائة ألف درهم أم أربعة دنانير فقال: بل مائة ألف درهم فقال أما تذكر إني أنا وأنت دخلنا على رسول الله ﷺ عشاء فرأيناه كئيباً حزيناً فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً، فقلنا له: بآبائنا وأُمهاتنا نفديك، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزيناً، وعُدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً، فقال: نعم كان بقي عندي من فيء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسّمتها وخفت أن يدركني الموت، وهي عندي وقد قسّمتها اليوم فاسترحتُ.

فنظر عثمان إلى كعب الأحبار، فقال: يا أبا بحر ما تقول في رجل أدّى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء، فقال لا لو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شيء فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له يابن اليهودية الكافرة ما أنت والنظر في أحكام المسلمين، قول الله أصدق من قولك حيث قال ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾.

فقال عثمان: يا أبا ذر إنك شيخ خرِفتَ وذهب عقلك ولولا صحبتك للرسول ﷺ لقتلتك، فقال: يا عثمان أخبَرَني حبيبي رسول الله فقال لا

يفتنونك ولا يقتلونك، وأما عقلي فقد بقي منه ما أحفظ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فيك وفي قومك. فقال وما سمعت من رسول الله قال سمعته يقول: إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين رجلاً صيّروا مال الله دُولاً وكتاب الله دخلاً وعباده خولاً والفاسقين حزباً والصالحين حرباً فقال عثمان: يا معشر أصحاب رسول الله هل سمع أحد منكم هذا من رسول الله. فقالوا: لا، فقال عثمان: ادعوا علياً فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال عثمان يا أبا الحسن انظر ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين: لا تقل كذاب فإني سمعت رسول الله يقول: ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر فقال أصحاب رسول الله، صَدَقَ أبو ذر فقد سمعنا هذا من رسول الله فبكى أبو ذر عند ذلك، فقال عثمان: يا أبا ذر أسألك بحق رسول الله إلاّ ما أخبرتني عن شيء أسألك عنه فقال أبو ذر والله لو لم تسألني بحق رسول الله لأخبرتك فقال: أي البلاد أحبُّ إليك أن تكون فيها فقال: مكة حرم الله وحرم رسوله أعبدُ الله حتى يأتيني الموت فقال: لا ، ولا كرامة لك فقال: المدينة فقال لا ولا كرامة لك قال: فسكت أبو ذر فقال عثمان: أي البلاد أبغض إليك تكون فيها فقال: الربذة التي كنتُ فيها على غير دين الإسلام، فقال عثمان سِر إليها فقال أبو ذر صدق الله ورسوله ﷺ[1].

وهكذا انطوت صفحات حياة هذا الصحابي الجليل في قعر الصحراء، لكنها لم تنطوِ في حياة الأُمة التي ظلت على الخط الذي رَسَمَه أبو ذر، فقد تدافع من بعده الدعاة والثوار ليؤدوا مسؤولياتهم الدينية فكان أبو ذر واحداً فأصبح كل مسلمٍ هو أبو ذر وقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: يُبعث أبو ذر أمة وحده.

٣ ـ عمار بن ياسر.

من أوائل مَن آمن برسول الله ﷺ وحتى قبل الخليفة عثمان بن عفان،

---

(١) علي خان الشيرازي طبقات الشيعة ص٢٤٦ ـ ٢٤٨.

وكان الرسول ينظُر إليه نظرة تقدير وإعجاب لإيمانه واخلاصه وصدقه وشجاعته، فقد قال فيه الكثير..

وكذلك كان جميع الصحابة.. كانوا يتعاملون مع عمار بنفس اللغة التي تعامل بها النبي ﷺ.

كان لعمار دوراً مؤثراً في معركة اليمامة أيام الخليفة أبي بكر واستعمله الخليفة عمر والياً له على الكوفة، أما الخليفة عثمان بن عفان فقد كان له رأي آخر في عمار معاكس لكل ما تلقاه عمار من احترام وتقدير من الرسول والصحابة. وتعود العلاقة المتوترة بين عمّار وعثمان إلى مواقف سابقة قبل خلافته.

ذكر المؤرخون..

كان رسول الله وعلي وعمار يعملون مسجداً فمرّ عثمان في بزة له يخطر فأخذ عمار ينشد:

لا يستوي من يعمر المساجدا يظل فيه راكعاً وساجدا
ومن تراه عائداً معاندا عن الغبار لا يزال حائداً[1]

فغضب عثمان وأبقى في نفسه ذلك.

وكان عمار قد سمع ما قال أبو سفيان لبني أُمية[2] وهو ما تقدم فسارع وعلى عجل ودخل المسجد وأفشى ذلك السِر ولام المسلمين على اختيارهم وانصرافهم عن عليّ بن أبي طالب هذه نقطة ثانية ونقطة ثالثة زادت في الهوة بين عمار والخليفة وهي موقف عمار من القضية التي وقعت بين الخليفة وعبد الله بن مسعود حيث وقف عمار إلى جانب ابن مسعود وصلّى على جنازته بعد موته بخلاف المعهود إذ أن الخليفة يُصلي على جنائز الأصحاب عند موتهم.

---

(١) علي خان الشيرازي طبقات الشيعة ص٢٥٩.
(٢) المسعودي مروج الذهب ص٣٥٢.

ومرة رابعة انهارت فيها العلاقة بين الطرفين في هذه القضية التي ذكرها المؤرخون كالتالي..

رُويَ أن المقداد وعمار وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله اجتمعوا وهم خمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار فكتبوا كتاباً عدّدوا أحداث عثمان وما نقموا عليه وخوفوهُ به وأعلموه أنهم مواثبوه إن لم يقلع وقالوا لعمار: أوصل هذا الكتاب لعثمان فلما قرأ عثمان الكتاب طَرَحَهُ ثم قال: أعليّ تقدم من بينهم، فقال: لأني أنصحهم لك قال: كذبت يابن سميّة فقال عمار: أنا ابن ياسر، فأمر عثمان غلمانه فمدوا بيديه ورجليه وضربوه حتى أُغمي عليه وكان ضعيفاً كبيراً.

وقام إليه عثمان بنفسه ووطأ بطنه ومذاكيره برجليه وهي في الخفين حتى أصابه الفتق فأُغمي عليه أربع صلوات فقضاها بعد الإفاقة ثم أنه ألزم بيته إلى أن كان ما كان من قتل عثمان[1].

وقيل أُخرج محمولاً حتى أتي به منزل أُم سلمة زوج النبي ﷺ ويُقال إن أُم سلمة أو عائشة أخرجت شيئاً من شعر النبي ﷺ وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله وقالت هذا شعر النبي ﷺ وثوبه ونعله لم يبلَ وأنتم تعطلون سنته، وضج الناس وخرج عثمان عن طوره حتى لا يدري ما يقول[2].

أما معارضة علي عليه السلام وأصحابه لعثمان فكانت تتحكم بها المصلحة الإسلامية العليا فهي لم تتجاوز الحدود الإسلامية ولم تخضع لرغبات ذاتية أو لمصالح مؤقتة.

وعند استعراض مواقف الإمام علي وصحبه نستطيع أن نرسم خطوطاً عامة لحركة المعارضة ضد عثمان بما يلي:

١ ـ الإصلاح الاجتماعي.. فقد تفشت المفاسد الإجتماعية نتيجة

---

(١) علي خان الشيرازي طبقات الشيعة ص٢٦٣.

(٢) طه حسين اسلاميات (عثمان) ص٧٨٥.

انتشار الخمر والغناء فقد كان من واجب الإمام وصحبه العمل على مواجهة هذه المفاسد، فنشر أفراد حركته في الأقاليم الإسلامية المختلفة أبا ذر في الشام، محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في مصر وعبد الله بن مسعود ومالك الأشتر وصعصعة بن صوحان في العراق وكان على رأس المهام التي كان يقوم بها هؤلاء الدعاة ايقاظ المشاعر الدينية في الناس ومواجهة الفساد وعوامل الميوعة بالموعظة الحسنة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ مراقبة تصرفات الولاة ومحاسبتهم على سلوكياتهم المناقضة للشريعة والأخلاق الإسلامية. فقد قام محمد بن أبي حُذيفة بدورٍ هام في ماسبة والي مصر عبد الله بن أبي سرح حتى تزعزع وجوده في مصر ففضل تركها على البقاء فيها.

وفي الكوفة كان لمالك الأشتر وبقية رفاقه الدور المهم في إزاحة الوليد بن عقبة ومن ثم الثورة على سعيد بن العاص نتيجة لتصرفاتهم المشينة والمخالِفة لروح الإسلام.

وكذلك كان لأبي ذر كما هو معروف الدور الهام في إيقاظ أهل الشام ومحاسبة معاوية بن أبي سفيان على سياسته في الرعية.

٣ ـ الدعوة إلى تطبيق قاعدة الزكاة والإنفاق: فقد ظهرت في عهد الخليفة عثمان طبقة من الأثرياء موغلة في الثراء، بينما كانت الأكثرية من عامة المسلمين يعيشون الفقر المدقع، فكان لا بدّ من إزالة هذه الفجوة باستخراج أموال الفقراء من أموال الأغنياء وذلك بالتأكيد على الانفاق وحُرمة الإكتناز.

٤ ـ تقديم النُصح للخليفة: فقد التزم علي عليه السلام وصحبه سياسة ثابتة وهي مساعدة الخليفة على اجتيازه للأزمة التي كانت يمرُّ بها مع الثوار. وقد أقرّ أقرب الناس إلى عثمان وهي زوجته نائلة بسلامة مواقف الإمام

علي عليه السلام وصحبه وانهم يُريدون له الخير، فكلما اشتدت الأزمة عليه كانت تطلب منه أن يرسل إلى علي ليستعين به على الأعداء[1].

وعلى العكس كان مروان وصحبه يصورون للخليفة أن ما يحدث كلُه بسبب مواقف علي بن أبي طالب[2].

ولم يكن في بيت الخليفة من يؤثر مصلحته ويأخذ الأمور بجدية وحكمة إلاّ امرأة واحدة وهي نائلة فقد ظلت وحدها في البيت عندما هرب بنو أمية وكان عددهم ١٨ نفراً. وقفت نائلة تؤازر زوجها وتُدافع عنه عند الهجوم على الدار بينما فرّ مروان بن الحكم وكلّ الذين كانوا يوحون للخليفة بتلك السياسة التي أودت بحياته.

لقد كان الإمام علي عليه السلام ينطلق في معارضته للسلطة من موقفٍ اسلامي أصيل فكان يُشكل خطاً في المعارضة الإيجابية التي تُساهم في الأعمال الخيرة التي كان يقوم بها الخليفة من الغزو وغيره وتشجّع على الأعمال التي لم يقم بها بينما كان مواقفها من الأعمال المنافية هو تقديم النصح والتخفيف من موجة الإضطرابات وكان رائد هذه الحركة في جميع المواقف هو الحرص على المصلحة الإسلامية والمصلحة الإسلامية فقط.

هل كان لإبن سبأ دور في المعارضة؟

من القضايا الغريبة التي أُقحِمَ بها التأريخ قضية عبد الله بن سبأ، حيث حاول الطبري في تأريخه أن يمنح ابن سبأ الدور المخطط للثورة على عثمان بن عفان. فهو مِن جانب يوجّه أبا ذر لمعارضة معاوية ويطلب منه أن يستبدل عبارة مال الله بمال الناس[3] حتى أن أحد الكتاب تجرأ في كتابه وذكر قائلاً إن ابن سبأ هو الذي حرك أبا ذر الغفاري للدعوة للإشتراكية[4].

---

(١) الطبري، ج٤، ص٣٦٣.
(٢) الطبري ج٤، ص٣٦٥.
(٣) الطبري ج٤، ص٢٨٣.
(٤) أحمد أمين فجر الإسلام ص٢٦٩.

وذكروا أيضاً أن ابن سبأ كان يتنقل بين الأمصار ويتصل بالشخصيات ويبث الدعايات على الولاة وعلى الخليفة حتى أوجدت حركته السرية موجة من المعارضة السياسية فاضطر الخليفة أن يرسل لمواجهة الأحداث في الأمصار جمعاً من الصحابة فرجعوا جميعاً إلى المدينة إلاّ عمار حيث ذكر الطبري أن ابن السوداء قد استماله وقد انقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر[1].

ومن نشاطاته حسب ما نَقَلَ عنه المؤرخون، إنه كان يزوِّر الكتب والرسائل ويستثير هذا على ذاك.

ويقولون أيضاً أن ابن سبأ كان يهودياً ودخل في الإسلام متآمراً من أجل التنكيل به فلم يترك فرصة إلاّ واستغلها في بث دعاياته ضد الإسلام وقد برز نشاطه في عهد عثمان حتى تمكن من تأليب الأمصار عليه، أو كان من أكبر من ألّبَ الأمصار على عثمان عند البعض[2].

وقد حاول البعض في الجانب المعاكس أن ينكر وجود هذه الشخصية بالكامل[3] وبعيداً عن التنازع حول ابن سبأ بين القائلين بوجوده والقائلين بعدمه، كان لا بدّ من ذكر حقيقة هامة وهي أن ربط كل ما حدث من معارضة في عهد عثمان وهو تحريفٌ للتاريخ وتبسيطٌ للأُمور.

فأبو ذر وعمار لهما مواقف معروفة ومشهودة في الدفاع عن الحق ومقاومة الباطل وليسا بحاجة إلى من كان بالأمس يهودياً حتى يأخذا منه دينهما.

فأبو ذر الذي رد بقوة على كعب الأحبار عندما أراد أن يفتي في مجلس الخليفة عثمان قائلاً له: يابن اليهودية ما أنت وما ههنا[4] مستنكراً

---

(١) الطبري، ج٤، ص٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٢) وهذا رأي الكاتب أحمد أمين في فجر الإسلام انظر صفحة ص٢٦٩.

(٣) من هؤلاء السيد مرتضى العسكري حيث أثبت في دراسته أن عبد الله بن سبأ من مخترعات سيف بن عمرو الأموي رمنهُ أخذ الطبري أنظر (عبد الله بن سبأ للسيد مرتضى العسكري).

(٤) الشيخ الطوسي رجال الكشي ١٠٦ ـ ١٠٩

عليه تجرؤهُ في إعطاء رأيه في الدين من غير الممكن أن يتأثر بيهودي آخر تحوم حوله الشبهات سيما وأن موقف الإمام علي عليه السلام من عبد الله بن سبأ كان صارماً.

ونحن هنا نضم صوتنا إلى القائلين بوجود هذه الشخصية وأن المبالغة التي رسمها سيف عن ابن سبأ لا تعني أنه ابتدع هذا الاسم أو أنه مجرد وهم فقد ذكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي المتوفى في ٣٨٥ للهجرة عن الباقر والصادق عليهما السلام عدة روايات حول أحوال عبد الله بن سبأ منها أنه كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين هو الله فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فدعاه وسأله، فأقرّ بذلك، وقال: نعم أنت هو وقد كان ألقى في روعي أنك أنت الله وأني نبي.

فقال له الإمام: ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتُب فأبى فحبسهُ واستتابه ثلاثة أيام فلم يتُب فأحرقه بالنار وقال أن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك.

فهو شخصٌ منحرف العقيدة وقال نال جزاءه ولا ينكر مشاركته في الإنتفاضة على عثمان، لكن أن يُعطى له الدور الرئيسي فيها فهو مخالف للحقيقة ويُشم ممن قال بهذه الفكرة الرغبة الجامحة في تبرئة الخليفة والذين حوله من بني أمية من كل ما جرى وتوجيه الطعن لمعارضيه والإدعاء بأن دوافعهم لم تكن شريفة حيث كانوا دُمى لأصابع يهودية.

وهذا ما يخالف أحداث الانتفاضة ومناقض لواقع المشاركين فيها فهم كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد نسي الذين نسجوا هذه الفبركة أن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة كانوا أيضاً من المؤلبين على عثمان فهل اتسع تأثير ابن السوداء على هؤلاء أيضاً؟

فماذا سيكون جوابهم حينذاك؟

الفصل الرابع

الإمام علي عليه السلام رجل الدولة

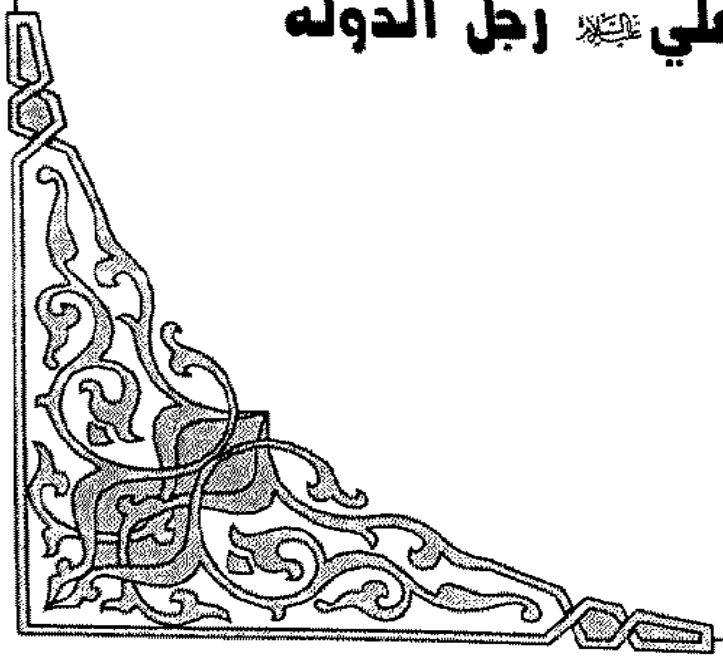

البيعة للإمام

توالت الأحداث في نهاية عهد الخليفة عثمان إلى تلك الصورة المفجعة التي ذكرها التأريخ، حيث اقتحم الثوار دار الخليفة وقتلوه وهو بين أهله وعياله ثم انطلقوا لاختيار البديل. لكن من الذي يجرؤ ويتقدم ويتقبل هذه المسؤولية بعد كل تلك الأحداث الجسام.

بقيت المدينة بعد مقتل الخليفة عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب، وهم يلتمسون من يُجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدون، يأتي المصريون علياً فيختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة، فإذا لقوه باعدهم وتبرّأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، فأرسلوا إليه حيث هو، فباعدهم وتبرّأ من مقالتهم ويطلب البصريون طلحة فإذا لقيهم باعدهم وتبرّأ من مقالتهم مرةً بعد مرة وكانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يهوون فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مُجيباً جمعهم الشر على أول من أجابهم وقالوا لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمعٌ فاقدم نبايعك فبعث إليهم أني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال.

ثم أنهم أتوا ابن عمر عبد الله فقالوا: أنت ابن عمر، فقم بهذا الأمر

فقال: إن لهذا الأمر انتقاماً والله لا أتعرض له، فالتمسوا غيري فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر أمرهم[1].

وتعود هذه الممانعة إلى الأسباب التالية:

١ ـ الظروف السياسية الصعبة التي نشأت بعد مقتل الخليفة، فقد زاد هذا الحادث الأمور تعقيداً ولم يعد هنالك أمل بحل المشكلة طالما أن الفئات السياسية التي اشتركت في قتل الخليفة لا زالت مُصرة على البقاء في لاعاصمة وهي وإن اشتركت في قتل الخليفة لكنها مختلفة في الأهواء والنوايا، فأهل الكوفة كانوا مع الزبير، وهوى أهل البصرة مع طلحة، أما أهل مصر فكانوا مع علي[2].

فكان المطلوب من الخليفة الجديد مواجهة كل هذه التيارات التي كانت متوحدة حتى مقتل الخليفة، لكنها من الآن أصبحت متفردة في أهدافها ساعية من أجل تمكين رموزها في السلطة.

٢ ـ لم يكن من المعقول أن يتقدم أحدٌ من الصحابة على علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو الأحق بها حتى لو أبدى عدم رغبة. فوجود الإمام علي عليه السلام كان يحبط أية رغبة لدى الصحابة في استخلاف عثمان بن عفان.

٣ ـ من أصعب ما كان يواجهه الخليفة الجديد هو السيطرة على الثوار الذين كانوا متوترين إلى أعلى درجات التوتر وهم يملأون المدينة المنورة ويفرضون عليها أحكاماً عُرفية. فما كان ليقنع هؤلاء الثوار بالتوقف والعودة إلى أوطانهم إلاّ اطمئنانهم بالخليفة الجديد الذي سيتولى مسؤولية إدارة البلاد الإسلامية واطمئنانهم إنه سوف لا يسلك الطريق الذي سلكه الخليفة عثمان وأنه على استعداد تام لإصلاح الأوضاع السابقة سياسية كانت أو اقتصادية.

---

(١) الطبري ج٤، ص٤٣٢.

(٢) طه حسين إسلاميات ص٨٤٠.

٤ ـ القضية التي كانت تواجه الخليفة هي القصاص من قتلة الخليفة، ولأن الحادثة قد وقعت بصورة مضطربة، فقد كان من الصعب تحديد الجناة ثم إن هناك جدلاً كان يدور حول شرعية تلك الثورة، وهل كان من حق الثوار اقتحام دار الخلافة ثم قتل الخليفة أم لا؟ لأن الذين ثاروا على الخليفة واقتحموا داره كانوا يعتقدون أنهم على حق وانهم يقومون بما هو صواب وحق، فمن الذي يستطيع في ذلك الجو المشحون أن يقول لهم إنكم على باطل بقتلكم الخليفة، وعلى فرض وضوح المسألة من الوجهة الشرعية وحتى الوجهة الواقعية، أي أن القاتل قد شُخّص للسلطات، وشخّص أيضاً أنه ارتكب قتلاً عن عمدٍ حينذاك من يستطيع أن يمسك بزمامه ومن يستطيع أن يُقيم عليه الحد في تلك الظروف المشحونة بالثورة والهيجان الشعبي.

بالطبع لم يكن أحد من الصحابة على استعداد لتوريط نفسه في هذه المشكلة العويصة باستلامه زمام الخلافة إلاّ رجلٌ واحد. وهو رجل المهمات الصعبة الذي كان يقتحم الصعاب في زمن الرسول، ذلك هو علي ابن أبي طالب عليه السلام الذي كان دائماً يُوثِر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

فقد جاؤوا إليه وكرروا المجيء لكنه كان يردّهم لأنه لا يرى أي مكسب في خلافة تأتيه في تلك الظروف الغامضة ولا يرى أية مصلحة في ركوبه هذا المركب الصعب الذي لا رغبة لأي أحد فيه. فقد كان يقول لهم لا حاجة لي في أمركم ولم يقلها عن غضب كان يقولها ويزيد الصحابة اطمئناناً بأن موقفه سيكون إيجابياً كما كان دائماً مع الخلفاء الثلاث.

فكان شعاره هو: أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيتُ به.

رضيتُ به دون أن يعرف من هو وما سيكون موقفه، إنه موقف الإنسان الواعي والمدرك لمخاطر هذا المنصب. وموقف الزاهد عن تلك الخلافة

التي جاءته في وقت رغب عنها أبسط الناس.

لكن عندما وجد المسلمين وقد مضى عليهم أياماً وهُم بلا خليفة، تغيّر موقفه وقرر أن يستجيب لرغبة المسلمين..

وكم هي كارثة أن تظل أزمة الخلافة لأمد أطول، فالأعداء يحيطون بالدولة الإسلامية من كل مكان.

وهؤلاء الثوار الذين قدموا من كل مكان لا بدّ لهم أن يعودوا إلى أوطانهم لينشغلوا بالانتاج وبالدفاع. فأية مصيبة كان يمكن أن تحدث للمسلمين لو استمر الأمر على هذا المنوال.

هكذا وجَدَ الإمام أن من مسؤوليته الشرعية أن يقبل بالخلافة إيثاراً منه للمصلحة العامة. ومرةً أخرى يدوس الإمام على رغبته الشخصية ويقبل شيئاً لم يتمناه وهو الخلافة في تلك الظروف الصعبة.

وكان متيقظاً بأن أحداً لن يتمكن من تهدئة الأوضاع والسيطرة على الثوار غيره، فصمّم على تحمل المسؤولية، لكن على شرط.. والشرط الذي وضعَهُ الإمام يكشف عن عمق إدراكه لأسباب المشاكل التي اجتاحت المسلمين.

قال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ وأتيتُم وإني قائلٌ لكم قولاً إن قبلتموه قبلتُ أمركم وإلاّ فلا حاجة لي.

قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله.

فجاء فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال: إني قد كنت كارهاً لأمركم فأبيتُم إلاّ أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم إلاّ أن مفاتيح مالكم معي إلاّ وأنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم رضيتم قالوا: نعم.

قال اللّهم اشهد عليهم ـ ثم بايعهم على ذلك[1].

---

(١) الطبري ج٤، ص٤٢٨.

لقد وضع الإمام يده على الجُرح.

فالمال وتقسيم المال بدون ضوابط هو السبب الرئيسي وراء كل تلك الظواهر السلبية التي اتسم بها الحكم.

فكان لا بُدّ من وضع نهاية لهذه الحالة المَرضية. وذلك بوضع سياسة مالية في التوزيع قائمة على العدالة والمساواة.

وقد ضَرَبَ الإمام مثلاً عن نفسه عندما قال وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم ليفهم الجميع فحوى هذه السياسة التي يتساوى فيها الحاكم والرعية دون تفضيل لأحد. ولم يكن الإمام ليتحمل تلك المسؤولية إلاّ بعد قبول الجميع شرط المساواة في العطاء، وبهذا القرار الذي حدّده الإمام كشرط للبيعة دشن المسلمون مرحلة جديدة من التأريخ الإسلامي في ظل نظام عادل أقامه الإمام علي عليه السلام بتحديه الكبير للظروف السياسية والاجتماعية، فكان لا بدّ من وقفة طويلة وواعية مع ذلك النظام الذي أصبح امثولة في التأريخ ونموذجاً يُضرب به المثل.

الحكم والسلطة

الحكم والسلطة عند الإمام علي عليه السلام..

السلطة، هي وظيفة شرعية عند الإمام علي عليه السلام وليست كرسياً يتصارع من أجله، وهذه هي حجر الأساس في كل ما يتعلق بحكومة الإمام علي في النظرية والتطبيق.

ولا يمكن فهم فترة حكم علي عليه السلام، إلاّ إذا تشبعنا بتلك الرؤية الإلهية التي يرى من خلالها الإمام السلطة.. وكل تقييم لحكم الإمام لا ينطلق من هذا المفهوم فهو تقييم خاطىء...

فكثيرون لم يعرفوا مرامي الإمام وأهدافه فتخبطوا خبط عشواء، ولا نلومهم على ذلك فقد كان هناك عدد من المسلمين في زمن الإمام لم يفهموا تلك المرامي حتى بادرهم الإمام قائلاً: وليس أمري وأمركم واحداً، إني أُريدُكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم[1].

من هنا فالإمام.. قولاً وفعلاً هو شخصٌ واحد فكانت سيرته وسياسته منطلقة من مقولاته، وأول مقولة له.. العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه.. أجل فقد كان في النظرية والتطبيق شيئاً واحداً قلما يحدث في تأريخ الحكومات.. من هنا كان الحُكم عند الإمام على مستويين.

---

(١) أنصاريان، دليل نهج البلاغة ص٤٣٢.

١ ـ مستوى النظرية، ومستوى الميدان والممارسة والتطبيق، فكان لا بدّ من الإلمام بالجانبين معاً.

فللإمام نظرات معلنة عن الحُكم الإسلامي السليم صرّح بها في فترة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه وله وصايا لولاته وخُطب قالها في المناسبات وتعليقات على الأحداث التي جرت في فترة حكم الإسلام ابتداءً من تكوين الدولة الإسلامية وحتى فترة حكمه وكل هذه النظرات والتصورات تُشكِّل بمجموعها نظرية متكاملة كان لا بدّ من كشف معالمها وتبيان بنودها وقد جمعت في نهج البلاغة.

وقبل الخوض في تفصيلات ومرتكزات الحكم عند الإمام كان لا بدّ من إثارة موضوع ناقشه العلماء حول هوية صاحب النهج.

فقد جرى جدل واسع بين العلماء حول مصداقية نهج البلاغة وهل هي خطب الإمام جمعها الشريف الرضي أم أنها من صنعه وأنها تُنسب للإمام علي عليه السلام، وقد ناقش ابن أبي الحديد هذا الموضوع بالتفصيل في شرحه على الصفحة ٨ ـ ٩ الجزء الأول[1] وكان أول من شكَّكَ بنهج البلاغة قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان إذ ذَكَرَ في صفحة ٣١٣ الجزء ٣ من وفيات الأعيان.

وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل هو جَمَعَهُ أم جمع أخيه الرضي؟ وقد قيل إنه ليس من كلام علي وإنما الذي جمعه ونَسبَه إليه هو الذي وضعَهُ والله أعلم... انتهى كلام ابن خلكان.

ومن جاء من بعد ابن خلكان أخذ بهذا الرأي.

ولا قيمة لرأي ابن خلكان للأسباب التالية:

١ ـ لم ينفرد الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ للهجرة في ذكر

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج١، ص٨ ـ ٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

خطب نهج البلاغة، فقد جاء على ذكرها صاحب كتاب تحفُ العقول المتوفى سنة ٣٣٢ وقبل أن يولد الشريف الرضي حيث كانت ولادته سنة ٣٥٩ للهجرة.

٢ ـ ذكر المسعودي المتوفى عام ٣٤٦ في مروج الذهب ومعادن الجوهر في الجزء ٢ صفحة ٤٣١.. والذي حفَظَ الناس عنه من خُطَبِهِ في سائر مقاماته أربعمائة خُطبة ونيف وثمانون خُطبة يوردها على البديهة وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً[١].

وهذا ما يؤكد أنّ هذه الخُطب كانت محفوظة في صدور الناس حتى جاء الشريف الرضي وكان ما جمعه هو (٤٨٥) خُطبة وهو نفس ذلك العدد الذي ذَكَرَه المسعودي.

٣ ـ إن حال ابن خلكان لا يبعث على الإطمئنان، فقد ذُكِرَ في ترجمته في مقدمة موسوعته وفيات الأعيان في صفحة ٩٠ إنه كان متهماً بالكذب في النسب وأكل الحشيش وحب الغلمان فلم يُنكرها بل أكد عليها. وكان يعمل في خدمة السلاطين، عمل تأريخياً للملك الطاهر ووصل نَسَبُهُ بجنكيزخان، فلما وقف عليه، قال هذا يصلح أن يكون وزيراً أُطلبوه وربما كان لوجود خُطب أمير المؤمنين بين أيدي الناس في ذلك الزمن ما يُثير المسلمين على الظالمين ويدفع بهم إلى أخذ حقوقهم من السلاطين والولاة مما دفع بهذا المؤرخ إلى إنكار نسبتهما إلى الإمام أمير المؤمنين ليقلِّل من شأن تلك الخُطب السياسية ومما قيل في حقه عندما عُين قاضياً في دمشق:

بدمشق آية قد ظهرت للناس عاماً كلما ازدادوا شموساً زادت الدنيا ظلاما

إذا كان في دمشق ثلاثة قضاة يحملون اسم شمس الدين فيهم ابن خلكان وهذين البيتين يكشفان عن سيرة ابن خلكان في القضاء بالإضافة إلى ما تقدّم من سيرته مع الملوك والسلاطين[٢].

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٤٣١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان ج١، ص٦ ـ ٩.

نظرية الدولة

يُقسَم أركان الدولة حسب النظرية الحديثة إلى ١ ـ الشعب، ٢ ـ الإقليم، ٣ ـ السلطة السياسية.

وباختلاف واضح بين طبيعة الدولة في الفكر السياسي الحديث والفكر الإسلامي ينتج تغيّر في مفهوم الشعب وفي مفهوم الإقليم.

فالشعب أُناس يرتبطون فيما بينهم برابطة الأرض، بينما الأمة يرتبط أفرادها برابطة العقيدة الواحدة. فهناك حدود الأرض هي التي تحدُّ مواطني الدولة. بينما هنا حدود العقيدة هي التي تحدُّ هؤلاء المواطنين.

من هنا فالإقليم في الدولة الإسلامية ممتد بامتداد العقيدة الإسلامية وهو ليس بثابت لأنه يتسع ليشمل الأرض كلها.

من هنا قامت نظرية الإمام علي عليه السلام.

أولاً: الرعية والأُمة:

درج المسلمون على اطلاق مصطلح الرعية على الشعب وهي مأخوذة من الرعاية ومستلهمة من الحديث الشريف كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، وقد ظلّ المسلمون يستخدمون هذا المصطلح حتى حل الإستعمار الغربي في بلادنا الإسلامية، فأخذوا يطلقون لفظة الرعية على رعايا الدول المستعمرة، فكفّ المسلمون عن استخدام هذا المصطلح واستبدلوه

بمصطلح الأمة حيث عمّ استعماله منذُ عهد جمال الدين الأفغاني وحتى الآن. والرعية عند الإمام علي عليه السلام جزءٌ مكمِّل للراعي، فلم نجد استعمالاً للكلمة منسلخة عن الراعي، إذ لا رعية بلا راعٍ، كما وأن لا قدرة للراعي أن يعمل شيئاً بدون الرعية، فهناك تفاعلٌ مشترك بين الراعي والرعية، وهناك حقوق متبادلة بينهما، وتُشكل هذه الحقوق نظام العلاقة المتينة بين القاعدة والقمة. يقول الإمام عليه السلام:

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي.

فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كُلٍّ فجعلها نظاماً لألفتِهم وعِزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرعية، وقيام كل طرف بما عليه من مسؤولية سيؤدي إلى سلامة المسيرة.

فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقّه وأدى الوالي إليها حقها عزّ الحق بينهُم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجَرَت على اذلالها السُنن فَصَلُحَ بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئِسَتْ مطامع الأعداء[1].

وتنطلق هذه الرؤية مِن إنسان مسؤول وليس من فيلسوف أخذه الترف الفكري وهو يرتقي بمستوى الرعية ليضع أمامها مسؤولية كُبرى.. ففي خُطبة له في أول خلافته:

اتقوا الله في عبادهِ وبلادهِ فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم[2].

فمسؤولية كل فرد في الأُمة هي مسؤولية شاملة للعباد والبلاد.

فالمسؤولية على العباد قضية لا تقبل الشك والشبهة.

أما المسؤولية على البلاد فهي تمتد لتشمل كل البقاع وكل ما يرتع فوقها من البهائم.

---

(١) أنصاريان الدليل ص٦٩٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد خطبة ١٤٨، ج٩، ص٢٨٨.

وهنا يلتقي مفهوم الرعية بمفهوم الإقليم فأينما وُجِدَ إنسان مسلم فالأرض التي يقف عليها أرضَهُ والعلاقة التي بينهما هي علاقة المسؤولية.

وعندما يكتب الإمام علي عليه السلام ولاية العهد لمالك الأشتر.. يصف له الرعية وصفاً دقيقاً يتصاغر أمامه كبار الأدباء والعلماء.

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قُضاة العدل ومنها أعمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السُفلى من ذوي الحاجة والمسكنة.

وكل قد سمى الله له سهمه وَوَضعه على حده فريضة في كتابه أو سُنَّة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً.

فقد تضمنت تلك القطعة الخالدة تحليلاً اقتصادياً وسياسياً للمجتمع الإسلامي، تناول فيه الإمام الأدوار الاجتماعية لأفراد المجتمع وتصنيفاتهم على أساس وضعهم الاقتصادي والسياسي والأدوار التي يقومون بها في المجتمع، فالرعية على قسمين من حيث الموقع الإجتماعي والسياسي.. الخاصة والعامة.

فالخاصة هم الطبقة الأرستقراطية التي تتكون على بعد شبر من السُلطة.

والعامة هم طبقة الأكثرية وهم الطبقة الفعالة في المجتمع التي تتحمل جميع أعباء العمل في الدولة.

فأين سيكون موقع الخاصة من السلطة؟

وأين هو موقع العامة؟

فالخاصة هم أثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء وأقل معونة له في البلاء. وأكره للإنصاف.

وأسأل بالالحاف.

وأقل شُكراً عند الاعطاء.

وأبطأ عُذراً عند المنع.

وأضعف صبراً عند مُلمات الدهر.

أما العامة. فهم عماد الدين.

وجماعُ المسلمين.

والعُدّة للأعداء والعامة من الأُمة.

وعماد الدين بمعنى إقامته وتطبيقه وهو ليس فقط الصوم والصلاة بل السياسة والاقتصاد والحكم والعدل أيضاً. وهم يشكلون اجماعاً في الأُمة، فكان لا بُدّ للوالي من اعتمادهم والأخذ برأيهم، فرأيه هو الرأي العام.. كما وإنهم يمثلون القوة المستعدة دائماً لمقارعة الأعداء.. وهم إلى جانب ذلك يمثلون الأكثرية في الأُمة.

والإمام يضع قاعدة هامة وهي الأخذ برأي الأكثرية وهو لا يضع هذهِ القاعدة جُزافاً.. فالأكثرية لا لأنهم الأكثر عدداً في المجتمع، بل لأنهم يقومون بأدوار بنّاءة هامة. فهم عماد الدين وجماع المسلمين والعُدة للأعداء.

وأخيراً هم العامة من الأُمه أي الأكثرية.

أما الأقلية التي تحاول دائماً التقرب إلى السلطة والهيمنة على الوالي فهي أبعد ما تكون عن تحمل المسؤوليات لأنها طبقة همها الأول والأخير هو الإستئثار بالسلطة والإستفادة مِن إمكانات الدولة فهي تندفع لتأمين مصالحها الشخصية وليس لها اهتمام بمصالح الدولة.

وبعد هذا التوضيح المقتضب لمفهوم الرعية وتقسيماته الإجتماعية، كان لا بُد من وقفة تأمُل مع مفهوم الأُمّة.

فالأُمّة هي الرعية لكن ليس في زمن محدَّد بل في كل زمان، فالأُمّة الإسلامية هم الأفراد الذين دخلوا الإسلام منذ عهد رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا وبهذا المعنى استعمل الإمام علي عليه السلام مصطلح الأُمة.

فالأُمة لفظ عام بينما الرعية لفظٌ خاص يستعمل لزمنٍ معين، يقول الإمام علي عليه السلام لن تُقَدَّس أُمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقَّهُ من القوي غير متتعتع[1].

ويقول عن الأكثرية المتفاعلة مع الوالي بأنها العامة من الأُمة فالأُمة أشمل من الرعية، والأُمة هنا كل الذين يجمعهم جامع الدين ووظيفة العمل من أجل الدين. أما الأُمة هنا فهم الأفراد الذين آمنوا بالإسلام وعملوا به والذين ينظمون حياتهم وسلوكهم على أساس الدين.

على هذه الرؤية يطلب الإمام من واليه.

ولا تُنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأُمة وهم المسلمون الأوائل الذين عكسوا الدين على سلوكهم وتفكيرهم فكانوا مثلاً لغيرهم، وأصبحت سيرتهم قانوناً يسير عليه بقية المسلمين.

فالأُمة إذن هي التي اصطبغت بصبغة الإسلام والتي تمتاز بعقيدتها في التوحيد وفي اخلاقها الإسلامية.

هنا يبدو لفظ الأُمة أخصُ من لفظ الرعية لأن الرعية تشمل حتى غير المسلمين.

فإذاً بين اللفظين خصوصٌ وعموم.

فالأُمة هم المؤمنون بالاسلام على مدى الزمن.

بينما الرعية هم رعاية الدولة الإسلامية في زمن معين فهم المسلمون وغير المسلمين. الأُمة هي ظاهرة اجتماعية تتلخص في وجود جماعة من

---

(١) البيومي النُظم السياسية أُسس التنظيم السياسي ص٣٦.

البشر يسود بينهم روح الترابط والاتحاد وتجمعهم الرغبة في العيش المشترك فوق إقليم معين نتيجة لتظافر عدد من العوامل التي حولتهم إلى قوم يتميزون عن غيرهم من الجماعات البشرية.

وينتج عن تلك الفوارق بين الأمة والرعية وجود شخصية قانونية للرعية.

فالرعية تتشكل من وجود رابطة سياسية قانونية بينما الأُمة الرابطة الاساسية فيها هي العقيدة والتعبير المرادف تماماً لتعبير الرعية هو الشعب.. إذ الرابطة التي تربط أفراد شعب الدولة هي أيضاً رابطة سياسية قانونية تفرض عليهم الولاء للدولة والخضوع لقانونها وتفرض على الدولة في المقابل حماية أرواحهم وأموالهم وكافة حقوقهم التي يقرها لهم القانون[1].

أما مسؤولية الأُمة فيحددها الإمام علي بما يلي:

وأما حقي عليكم:

١ ـ فالوفاء بالبيعة.

٢ ـ النصيحة في المشهد والمغيب.

٣ ـ والإجابة حين ادعوكم.

٤ ـ والطاعة حين أمرُكم.

يستعرض الإمام هذه الواجبات في إطار نظام الحقوق المتبادلة بين الراعي والرعية.

ثانياً: الإقليم الإسلامي:

يتحدد الموقف الإسلامي من الأرض على اعتبارين:

الأول: إن مسؤولية المسلمين تمتد إلى آخر بقعة من الأرض.

---

(١) صادق أبو هيف القانون الدولي العام ط٧، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع وهي الأماكن غير المسكونة البعيدة عن المدن والأمصار. بمعنى آخر البقاع هي الأراضي التي لا يسكنها أحدٌ من المسلمين والتي لم يصل إليها طلائع الفتح الإسلامي.

الثاني: الأرض الخاضعة للدولة الإسلامية، فالمسلمون يتحملون مسؤولية استثمارها.

يقول الإمام أمير المؤمنين:

ألا وإنَّ الأرض التي تُقِلكم والسماء التي تُظلكم مطيعتان لربكم وما أصبحتا تجودان لكم ببركتها توجعاً لكمُ، ولا زُلفةً إليكم ولا لخير ترجوانه فيكم ولكن أُمِرتا بمنافِعِكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا[1].

فالأرض والسماء كلها لله وقد خلقهما الله لخدمة الإنسان ولا يحق لأية قوة أن تقف بوجه استثمارها.

وليست الأرض التي تقل البشر وحدها في خدمة الناس بل السماء التي تظلهم أيضاً هي في خدمة الإنسان.

فعلاقة الإنسان ليست بالأرض التي يقطن فوقها بل بالسماء التي تظلله وهذه العلاقة هي أخيراً علاقة استثمار لما أودَعَ الله فيها من بركات أو ما ينزل من السماء من أمطار. وفي مقابل ما تقدّمهُ الأرض من نعم وبركات لا بُدّ من حمايتها والدفاع عنها أمام أي اعتداء أو غزو.

يقول الإمام: ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت وإلى أمصاركم قد افتتحت وإلى ممالككُم تُزوى وإلى بلادكم تُغزى.

انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم ولا تثاقلوا إلى الأرض فتُقروا

---

(١) الدليل ص١٧٧.

بالخسف وتبؤوا بالذُل ويكون نصيبكم الأخسّ[1].

فالأرض التي تعطي للإنسان كل ما يحتاج إليه لا بُد له من الدفاع عنها عندما تتعرض إلى العدوان.

وهذه هي العلاقة المتبادلة التي تنشأ من وجود الإنسان على أرضٍ ما وتُسمى تلك الأرض في الاصطلاح الحديث بالإقليم وهو بقعة محددة من الأرض يستقر عليها مجموعة مترابطة من الناس يُمارسون نشاطهم فوقها بشكل دائم.

وإذا كان توصُّلْ الفكر القانوني إلى مبدأ الإقليم الجوي، جاء متأخراً فإن الإمام أمير المؤمنين قد أشار في النص المتقدم إلى انضمام السماء إلى جانب الأرض في نطاق الإستثمار البشري وهو إشارة واضحة إلى مبدأ الإقليم الجوي.

ثالثاً: السلطة السياسية:

يستمد الإمام علي عليه السلام تصوره عن السلطة السياسية من النظرة القرآنية التي احتوت على تصورٍ كامل لعناصر السلطة السياسية.

فالقرآن يُصرح.

١ ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2].

٢ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[4].

٤ ـ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

---

(١) الدليل، ص٦١٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٩.

٥ ـ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[١].

٦ ـ ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

٧ ـ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[٣].

وآياتٌ كثيرةٌ وكثيرةٌ تصفُ لنا رئيس الدولة الإسلامية، وتضع حدوداً لصلاحياته وترسم العلاقة القانونية بينه وبين أفراد الأُمّة.

والإمام علي هو ابن القرآن، فقد تربّى في أحضان الوحي ونزل القرآن وهو ابن عشر سنوات وهو لصيق برسول الله ﷺ وما زال معه وآيات القرآن تتقاطر دون انقطاع.

وعلى أساس هذه النظرية العميقة إلى القرآن وجدنا أمير المؤمنين يضع منهجاً لمعرفة القيادة من القرآن الكريم عندما سأله سائل قائلاً:

فانظر أيها السائل فما دلَّك القرآن عليه من صفته فائتم به واستضيء بنور هدايته.

فالقرآن هو دستورٌ للدولة... ومنهج للأُمة فيه كل ما تستطيع الأُمة أن تبني به نفسها وتُشيد به مجدها وترسم طريق مستقبلها.

القرآن منطلق عند الإمام علي عليه السلام فعلى أساسه المتين يضع الإمام أُسس السلطة السياسية التي سنوضّح معالمها عبر هذه الدراسة المقتضبة.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٧.

طبيعة السلطة

السلطة في الإسلام هي الجهة التي ترعى شؤون الناس، تحتضن الخيرين منهم وتُربي الأشرار، فهي كالوالد الرحيم كما يقول أحد أحفاد الإمام علي وهو أبو جعفر الباقر عليه السلام.

لا تصلح الإمامة إلاّ لرجلٍ فيه ثلاث خصال، ورعٌ يحجزهُ عن معاصي الله، وحلم يملكُ به غضبه وحسن الولاية على مَن يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم[1].

فالسلطة هي وظيفة ربانية..

يقول الإمام: إني أُريدكُم لله وأنتم تُريدونني لأنفسكم[2].

فهي ليست مُلوكية، وقد قبّح القرآن هذا اللفظ لما يحمل من معاني الاستئثار والاستبداد.

والاستئثار هو قرين للملوكية كما يقول الإمام..

مَن ملك استأثر[3].

أما السلطة في الإسلام فهي إمامة عن الأُمة أي أن يكون في مُقدمة

---

(١) الكليني الأصول من الكافي ج١، ص٤٠٧.

(٢) الدليل ص٤٣٢.

(٣) الدليل ص٣٨١.

القوم في كل الصفات الخيرة.

من نَصَبَ نفسَهُ للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلِّم نفسه ومؤدِّبها أحقّ بالاجلال من مُعلِّمِ الناس ومُؤدِّبهم[1].

فالإمام هو معلمٌ للأُمة وهو معلم لنفسه قبل أن يكون معلماً للآخرين وقبل أن يصبح رئيساً للدولة.

وعندما يكون الحكم ربانياً تستقيم الأُمور وتنتظم الحياة وفق كتاب الله وسنة نبيه.

فليست تصلُحُ الرعيةُ إلاّ بصلاح الولاة، ولا تصلُح الولاة إلاّ باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقُه، أدى الوالي إليها حقها عزّ الحق بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السُنَنْ فصَلَحَ بذلك الزمان وطُمِع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء[2].

---

(١) الدليل ص٤٥١.

(٢) الدليل ص٦٩٣.

وظائف السلطة

إن وجود السلطة مرهونٌ بالوظيفة التي تتحملها، فبعد أن تتكون الأُمة فوق إقليم جغرافي، يلزم قيام هيئة منظمة تتولى إدارة شؤون الأُمة ومراقبة تطبيق القانون ورعاية مصالح أفراد الأُمة.

ووظائف السلطة في نظر الإمام هي:

١ ـ جباية الخراج، ٢ ـ استصلاح العباد، ٣ ـ جهاد الأعداء، ٤ ـ عمارة الأرض وهذه العناوين الأربعة التي حدّدها الإمام تشتمل على وظائف مالية وعسكرية وثقافية وتعليمية واقتصادية وتتحمل الهيئة التي تتولى السلطة هذه الوظائف، ولا يحق للسلطة أن توسّع من دائرة صلاحياتها لأكثر من تلك الوظائف الأربع التي هي جباية الخراج وجهاد العدو واستصلاح العباد وعمارة البلاد.

فجباية الخراج وظيفة عامة تقتضيها طبيعة ودور السُلطة في الأُمة.

فهي تجبي الخراج لأنه المورد المالي الرئيس للدولة.

وكذلك تتهيأ لجهاد الأعداء بإنشاء مراكز للتدريب واقتناء الأسلحة وتعبئة المتطوعين، وتقوم بتوجيه الأُمة عبر ما يصطلح عليه اليوم بوسائل الإعلام وذلك بغية خلع الحوافز الخيّرة لدى الأُمة وتجنيبها السقطات التي تلتهم المجتمعات الإنسانية.

وأخيراً تقوم الهيئة الحاكمة ببناء الدولة، بناءً اقتصادياً وعمرانياً، بإنشاء الطرق وإقامة المراكز الصحية وتوفير وسائل العمل المنتج سواءٌ في الزراعة أو الصناعة. هذه هي حدود مسؤوليات الحكومة ولا حق لها أن تمتد خارج هذه الحدود. وفي خُطبة أخرى للإمام عليه السلام يضع بين أيدي الناس حقوقهم التي لا بُدّ لهم أن ينالوها من رئيس الدولة فيقول:

أيها الناس إن لي عليكم حقاً ولكم عليَّ حقٌ فأمّا حقكُم عليَّ فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كي تعلموا.

وقد جاءت هذه العبارات في معرض مجموعة نصائح قدّمها الإمام.

فكان تركيزه على الجانب الإرشادي من وظائف السلطة بالإضافة إلى الجانب الاقتصادي وهو توفير الفيء أي تكثير الانتاج.

وفي مكان آخر يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

إنه ليس على الإمام إلاّ ما حُمِّل من أمر ربه، الإبلاغ في الموعظة والإجتهاد في النصيحة والإحياء للسُنة وإقامة الحدود على مستحقيها، فهذه هي واجبات محددّة في إقامة الحدود والموعظة وتوزيع العطاء بين الناس.

مميزات الحكم

من النظرة الأولى إلى أنظمة الحكم المتنوعة يمكن تشخيص مميزاتها وفروقاتها.

فأنظمة الحكم الديمقراطية تمتاز بسيادة الأكثرية من الأُمة التي تتخذ من البرلمان منبراً لفرض إرادتها سواء كانت على حق أو باطل.

وتمتاز الأنظمة الدكتاتورية بسيادة فرد في السلطة، وهو أما أن يكون ملكاً أو رئيساً للجمهورية ويصبح لهذا الفرد الحق في السيطرة وإصدار القرارات سواء كانت هذه القرارات حق أم باطل.

أما امتياز نظام الحكم عند الإمام علي عليه السلام إن السيادة فيه هي للحق والحق وحده.

عندما نصّب مالكاً والياً على مصر بعث إلى أهل مصر يطلب منهم ما يلي..

فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق.

فالمعيار في الأوامر والنواهي هو الحق وليس مجرد الأمر إذ يبرز البعض ممن ينفذون أوامر الظالمين مع يقينهم أنها على باطل إنه عبدٌ مأمور إن هذه اللغة لا تنسجم مع القاعدة التي يضعها الإمام علي عليه السلام في مطابقة

الأوامر للحق. فالحاكم إذا التزم بالحق فكل شيء يسير وفق سنن الله والطبيعة، أما إذا مالَ عن الحق بمقدار انملة فإن نهايته ستكون الهلاك، فقد حذّر الإمام مغبة الإنحراف عن الحق قائلاً:

من أبدى صفحته للحق هلك.

فالسيادة إذاً للحق..

وكتاب الله هو الحق.

وقانون المجتمع والدولة في كتاب الله.

إذن السيادة في الإسلام للقانون.

يقول الإمام علي عليه السلام:

إنّا لم نُحكّم الرجال، وإنما حكّمنا القرآن..

وقد قال سبحانه ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فردُّوه إلى أن نحكُم بكتابه وردُّوه إلى الرسول أن نأخذ بسنته[1].

وكتاب الله بين أظهُرِكُم ناطقٌ لا يَعيا لسانُهُ وبيتٌ لا تُهدَمُ أركانهُ وعزٌّ لا تُهزمُ أعوانُهُ.. كتابُ الله تُبصرون به وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضهُ على بعض[2] فانظر أيها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمَّ به واستضيء بنور هدايته[3].

ويقول الإمام عن الذين يتجاوزون كتاب الله.

كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم.

فهؤلاء جعلوا من أنفسهم أسياداً وقدموا أنفسهم على القرآن، فأخذوا يحكمون بما تهواه أنفسهم دون التقيُد بالقانون الإلهي.

---

(١) الدليل ص٢٤٨.

(٢) الدليل ص٢٤٨.

(٣) الدليل ص٢٤٩.

وعندما تكون السيادة في الدولة للقرآن تصبح الدولة دولة قانون لا تتحكم بها الأهواء والشهوات، ويكفي لضمان الحريات والحقوق أن تتقيد الأُمة بقانون وفِقهْ.

وطالما كانت الدولة الإسلامية تعمل بالقرآن كانت تسير بخطاً سليمة نحو الهدف المرجو منها وعندما لم يبق من القرآن إلاّ رسمه هيمنت الأهواء على الحكم فضاعت الحقوق وانتهكت الحريات.

مبادىء الحكم

تقوم نظرية الحكم عند الإمام علي عليه السلام على مبادىء ثلاث:

١ ـ الشورى، ٢ ـ المساواة، ٣ ـ العدل.

فغياب أصل واحد من هذه المبادىء يعني أن السيادة ليست للحق، لأن بالشورى يستطيع الحاكم أن يقترب كثيراً إلى الحق والمساواة هو اعطاء الحق الأولوية على القربة والعشيرة وبالعدل يصل الإنسان إلى الحق، فهذه المبادىء الثلاثة التي أكد عليها الإمام أمير المؤمنين، وهو بذلك يترجم القرآن في دنيا الحكم والسياسة.

فعن الشورى قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وعن المساواة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾[1].

وعن العدل قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

وعلى نهج القرآن سار الإمام علي عليه السلام، فأرسى نظاماً للحكم قائماً على المبادىء المتقدمة.

١ ـ الشورى:

الشورى في الحكم مبدأ ثابت لا مناقشة فيه.

فالإستشارة عين الهداية[3] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام فبدون الاستشارة يستبد الحاكم برأيه فيسقط في المهالك والمزالق.

من استبد برأيه هلك[4].

لا ظهير كالمشاورة[5].

فالمشورة جدارٌ صلب يتكىء عليه الحاكم متى ما عصفت به الرياح وتراكمت عليه الأمواج[6].

بالمشورة يستطيع الحاكم أن يقلب الأُمور فيختار الرأي الصائب.

من استبد برأيه هلك، ومن شاوَرَ الرجال شاركها في عقولها[7].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.
(٣) الدليل على موضوعات نهج البلاغة ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) الدليل على موضوعات نهج البلاغة ص٧٠٦ ـ ٧٠٧.

وليس منا من لا يُريد أن يُشاركه الآخرون في تجاربه الحياتية.

ولكن لمن يختار الوالي أو الحاكم إذا أراد المشورة؟

يجيب الإمام..

وأُكْثِرْ مُدارسة العلماء، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صَلَحَ عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

فالعلماء يمنحون الحاكم الرأي المستند إلى العلم أما الحكماء فهم يمنحون الحاكم الرأي المُدعم بالتجربة. والرأي حتى يُختمر ويصبح صائباً بحاجة إلى عنصرين، علمٌ وتجربة، فبالعلم يثق بصواب الرأي وبالتجربة يطمئن إلى مطابقة الرأي للواقع.

ولا بُد للحاكم أن يتأمل كثيراً في المشاورين فيدقق النظر في اختيارهم فلا يختار من هبّ ودبّ.

يقول الإمام علي عليه السلام:

ولا تُدخِلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدلُ بك عن الفضل، ويَعدُكَ الفقر، ولا جباناً يُضعِفُك عن الأُمور، ولا حريصاً يُزيّنُ لك الشره بالجور فإن البُخل والجُبن والحرص غرائز شتى يجمعُها سوء الظنِّ بالله.

ولا يكفي للحاكم أن يطلب المشورة من رجال الأُمة بل على الأُمة نفسها أن تقدم المشورة باستمرار للحاكم وأن لا تكتفي فقط بما تقدمه من رأي بل عليها أن تواصل مُراقبة الحاكم حتى لا يزلَّ أو لا يخرج عن طريق المشورة.

يقول الإمام:

فلا تكفوا عن مقالة بحقٍ، أو مشورةٍ بعدل، فإني لستُ في نفسي بفوق أن أُخطىء، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفيَ الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيرُهُ. يملكُ منا ما لا

نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كُنا فيه إلى ما صَلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالةِ بالهُدى وأعطانا البصيرة بعد العمى.

والإمام يُمثّل بنفسه وقصده من يقوم مقام الحُكم وإلاّ فهو إمامٌ معصوم لا يصدر منه الخطأ.

أمّا هو فقد بين موقفه من الشورى يوم طلب طلحة والزُبير أن يشاورهما فقال الإمام.. ولو وقع حكمٌ ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة بُرهانه واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه[1].

٢ ـ المساواة:

لم يكن للإمام علي عليه السلام أُسلوب آخر غير المساواة لمواجهة تراكمات عهد الخليفة عثمان ولمعالجة ما آل إليه الواقع الإجتماعي من تفشي للطبقية وتمييز على أساسٍ قبلي أو قومي.

فالمساواة ليست كلمة عابرة أو شعاراً براقاً بل هي أساس لنظام قويم في الحياة يعيش فيه أفراد المجتمع بسلام ووئام.

والمساواة هي أول كلمة قالها الإمام بعد البيعة.

فقد كان بيانه الأول بعد استلامه زمام الأمور المساواة في العطاء.

إني قد كنتُ كارهاً لأمركم فأبيتم، إلاّ أن أكون عليكم ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم إلاّ أن مفاتيح مالكم معي ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم.. رضيتم.

قالوا: بلا.

قال: اللهم اشهد عليهم، ثم بايعهم على ذلك[2].

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص٢٢.

(٢) الطبري ج٤، ص٤٢٨.

وبعد أن أصبح خليفة للمسلمين ظلت قضية المساواة شغله الشاغل ووصيته التي لا تنته لولاته وعماله..

يقول في وصيته لمالك..

واخفض للرعية جناحك، وابسط لهم وجهك، وألنْ لهم جانبك، وآسي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عَدلِك[1].

قاعدة ذهبية يضعها أمير المؤمنين عليه السلام ليس فقط قبالة واليه بل أمام كُل من يُريد إدارة الناس.

يطلب منه المساواة حتى في توزيع لحاظ العيون، فكيف لو كان الأمر في توزيع العطاء من بيت المال سيّما وأن هذا المال هو مالهم وليس شيئاً متعلقاً بالوالي.

وبخلاف سياسية الخليفة عثمان فقد وضع الإمام علي قانوناً في توزيع بيت المال هو..

ألا وإن حقّ مَن قِبلكَ وقِبَلَنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواءٌ يَردونَ عندي عليه ويصدرون عنه[2].

سنّ هذه القاعدة عندما لاح لسامعيه إن واليه على أردشير خرّه مصقلة ابن هبيرة الشيباني قد مال إلى أقربائه فأخذ يستأثرهم في العطاء فكتب له:

بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك، إنك تقسمُ فيء المسلمين الذي حازتُه رماحُهُم وخيولُهم وأُريقت عليه دماؤهم فيمن اعتاقك من أعزب قومك، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك علي

---

(١) الدليل ص٧٢٠.

(٢) الدليل ٧٣١.

هواناً ولتخفنّ عندي ميزاناً فلا تستهين بحقِ ربك لا تصلح دُنياكَ بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً.

وكان علي عليه السلام رائد المساواة فساوى بينه وبين أضعف الناس فقراً في طعامهم ومصائبهم.

أأقنع من نفسي بأن يُقال هذا «أمير المؤمنين» ولا أُشاركُهُم في مكاره الدهر أو أكون أسوةً لهم في جشوبة العيش[1].

والمساواة في حكومة الإمام علي عليه السلام تشمل حتى غير المسلم.

فهو يقسم الرعية لمالك واليه على مصر على صنفين.

إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلقِ[2].

٣ ـ العدل:

والعدل مبدأ آخر في نظام حكم الإسلام الذي أرسى قواعدهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسار على نهجه أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ينبِّه الإمام ولاته إلى أهمية هذا المبدأ.

وليكُن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحقِّ، وأعمُّها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية.

فعندما يُريد الحاكم أن يتخذ قراراً من بين القرارات أو يضع لائحة فلا بد له أن يتمسك بميزان دقيق يقوم على ثلاث أعمدة.. أن يكون هذا القرار أقرب ما يكون إلى الحق وهو من بين القرارات أقدر على تحقيق العدل وأكثرها انسجاماً مع إرادة وأهداف الرعية.

فمعيار الحق والعدل ورضى الناس هي القاعدة التي ينطلق منها كل

---

(١) الدليل ص٤٨٨.

(٢) الدليل ص٦٩٧.

حاكم في رسم سياساته في مختلف شؤونه التنفيذية. والحصيلة هي انتشار العدل.

والعدل عند الإمام علي عليه السلام حالة نفسية تنطلق من الجوارح أولاً، فكان لا بُد للحاكم من أن يبدأ بنفسه أولاً.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومَن لك فيه هوًى من رعيتك.

فأول ما يقوم به الحاكم هو أن يعدل بين نفسه وبين الناس، وبين نفسه وبين الله وفي المرحلة التالية يعدل بين الناس وبين أقرب الناس إليه.

وعندما لا تُرسى العدالة على شاطىء النفس أولاً لا تستطيع أن تتحرك لتسود المجتمع فتكون النتيجة هي انتشار الظلم.

لنواصل متابعة كلام الإمام..

فإنك الا تفعل تظلِم ومن ظَلَمَ عباد الله كان الله خَصمُه دون عباده ومن خاصمَهُ الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزعَ أو يتوب فلا خيار للحاكم إلاّ العدل ولا طريق للعدل إلاّ أن يبدأ بنفسه وبأهله وإلاّ فإن الأفضل له أن يتخلى عن هذا المنصب.

ومن مظاهر العدل أن ينصف الحاكم بين المُحسن والمسيء.

فيقول الإمام:

ولا يكونَنَّ المحسنُ والمسيءُ عندكَ بمنزلةٍ سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الاحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الأساءة.

فعدالة الحاكم تصنع الأجواء المناسبة لتربية الأُمة وتعويدها على عمل الخير.

يقول الإمام..

واعلم أنه ليس شيءٌ بأدعى إلى حُسن ظنِّ راعٍ برعيته من إحسانه إليهم

وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلهم.

وكان على الوالي الناجح أن يعتبر بتأريخ الحكومات التي سبقته، فالحكومة العادلة يُكتب لها البقاء بينما الحكومات الظالمة يصبح مآلها إلى السقوط، فكان لا بدّ من الأخذ بأسباب القوة والمنعة.

يقول الإمام علي عليه السلام:

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة وذلك بقصد الإقتداء بها واتباعها.

إذا كان علي عليه السلام هو معلم العدالة، فكيف ستكون عدالته؟

إن التأمل في العبارة التالية تكفي لإيضاح هذه الحقيقة:

(ولقد أصبحت الأُمم تخافُ ظُلم رعاتِها وأصبحتُ أخاف ظُلم رعيتي).

عبارات من ذهب تنسج لنا صورة عن علي بن أبي طالب..

فعليّ من فرط عدالته أصبح يخشى ظلم الرعية.

وبالضبط على عكس ما هو قائم في الأنظمة الدكتاتورية وحتى بعض الأنظمة الديمقراطية حيث الرعية تخشى الحاكم..

أما في حكومة علي عليه السلام فالعكس هو الصحيح.

وهكذا عندما يتقلد الحاكم قلادة العدالة يتغيّر كل شيء في المجتمع يصبح الشعب هو الحاكم ويصبح الحاكم هو الشعب.

من هو الإمام؟

الإمام الذي يأتي على رأس السلطة السياسية، وقد ورد لفظ هذا المنصب في العديد من آيات القرآن الكريم، كما ورد على لسان رسول الله ﷺ.

فاللفظ لم يكن غريباً على لسان الإمام علي عليه السلام وهو يضع أُسس الإمامة في الدولة الإسلامية.

فأولاً يحدد الإمام أصحاب الحق في الإمامة وهم الأئمة من قريش.

إن الأئمة من قُريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلُحُ على سواهُم ولا تصلُح الولاة من غيرهم.

ويرادف هذا القول مع قول رسول الله ﷺ لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قُريش[1].

ويعلل ابن خلدون اشتراط النسب في الإمام قائلاً:

ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب من هذه المذاهب فنقول إن الأحكام الشرعية كلها لا بُد لها من مقاصد وحِكَم تشتمل عليها وتُشرع لأجلها. ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو في المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص١٩٤.

حاصلاً لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلا بُدّ إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها، وإذا سَبَرنا وقسمنا لم نجدها إلاّ اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفُرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكُن إليه المِلة وأهلها وينتظم حبلُ الأُلفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عُصبةً من مُضر وأصلهم وأهل الغَلب منهم وكان لهم على سائر مُضَر العزة والكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جُعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدرُ غيرُهُم من قبائل مُضر أن يرُدُّهُم عن الخلاف ولا يحملهمُ على الكُرهَ فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة[1].

ولكن البعض لم يأخذ بهذا الشرط ويعلل ابن خلدون ذلك إلى تفشي الميوعة وحبُ الدنيا في قُريش مما أبعدها عن الزعامة فيقول:

لما ضعف أمرُ قُريش وتلاشت عصبيتهم بما لهم من الترف والنعم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية[2].

وما ذكره ابن خلدون هو حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها، لكن أية طائفة من قُريش ابتُليت بحالات الترف والنعم.

لو دَقّق ابن خلدون قليلاً وكان منصفاً مع التأريخ لوجد أن من بين أبناء القبيلة جماعة واحدة لم تخدعها زخارف الدنيا ولم تُغيرّها الأموال ولا العقار، وهم أهل البيت.. وهم المعنيون بكلام رسول الله ﷺ لمّا كان الذي كان مِن إقبال الخلفاء على زخارف الدنيا تاركين الخلافة والأُمة ضاربين

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٩٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص١٩٤.

بالقيم الإسلامية عرض الحائط. ولما تجرّأ البعض كالباقلاني إلى القول بعدم اشتراط القرشية، إذ لم يكن من الحكمة اشتراط ذلك وهو يرى بأُم عينيه ما آل إليه حال الأُمويين والعباسيين.

وبالإضافة إلى السبب الذي ذكره ابن خلدون في اشتراط النسب، هناك عاملٌ آخر مهم هو أن بني هاشم وبالذات أهلُ البيت امتازوا بالعلم والخُلق فهم قدوة الناس كما كان رسول الله ﷺ وهم الأدرى بالإسلام لأنهم الأقرب إلى الرسالة وإلى الرسول. فالأُمة بحاجة إلى قيادة تقتدي بها في السلوك والأخلاق وتأخذُ منها معالم دينها..

يقول الإمام عليه السلام: ألا وإن لكُلِّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طُعمه بقُرصيه[1].

فمن الذي يستطيع أن يكون هكذا يكتفي من طعامه بقرصين من الخبز ومن الملبس بطمرين من الملابس؟ مَن غير أهل البيت الذين هم قدوة الناس ومنبع الفضيلة والعلم.

إنهم العترة من أهل البيت.. وقد مات رسول الله ﷺ ورَحَلَ عن الأمة بعد أن ترك لهم كتاب الله والعترة كما جاء في المستدرك بعدة أسانيد عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزلَ غدير خم أمر بدوحاتٍ فقمن فقال كأني قد دُعيت فأجبت إني قد تركتُ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنَّهُما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض[2].

فهم الذين قصدهم النبي ﷺ الأئمة من قُريش.

ثانياً إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهُم بأمر الله فيه[3].

---

(١) الدليل ص٤٤٦.

(٢) الحاكم النيسابوري المستدرك على الصحيحين ص١٠٩.

(٣) الدليل ص٤٤٢.

شرطان آخران بعد شرط النسب.. القُدرة على القيام بواجبات الإمامة، والثاني العلم بما يريده الله ممن يلي أمر المسلمين. فعندما تجتمع القدرة مع العلم تكتمل المؤهلات.

وأحق الناس بالإمامة الأقدر والأعلم.

بعد ذلك هل يجوز تنصيب المفضول مع وجود الأفضل.

في نظر الإمام وهو نظر الإسلام.. لا يجوز ذلك. لأن وجود المفضول في الحكم مع وجود الأفضل سيُسَبِبْ اختلال في الموازين وسينشأ عن ذلك تعطيل للوظائف وانهيار للمقاييس الإجتماعية، بينما في الحالة الأولى تستقيم الأُمور وتسير سيرها الطبيعي.

لنواصل القراءة في نهج البلاغة.

فإن شَغَبَ شاغِبٌ استُعتب فإن أبى قُوتِلَ[1].

إذن سيهبّ المسلمون لنجدة الحاكم العادل صاحب الولاية الصميمية. فلا مجال للمتمردين ولا سبيل لأية مؤامرة طالما كانت الأمة في يقظة تامة.

وثالثاً العدالة شرطٌ أساسي في الإمام، لأنه تُعبِّد الطريق أمام الأحكام الإسلامية الأخرى التي تتوقف أساساً على العدالة.

فالنظام الإسلامي لا يمكن إقامته إلاّ على أرضية العدالة.

وعندما لا يكون الإمام عادلاً يصبح من غير الممكن إقامة أي نظامٍ اقتصادي أو اجتماعي.

يقول الإمام:

فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل هُديَ وهَدى، فأقام سنةٌ معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإن السفن لنيرة لها أعلامٌ وإن البدع لظاهرةٌ

---

(١) الدليل ص٤٤٢.

لها أعلام وإن شرّ الناس يصونون مصونُه ويُفجرون عيونُه يتواصلون بالولاية ويتلاقون بالمحبة.

فعندما تستَتبْ العدالة ستَجد حتى الأشرار يخوضون غمار النباء جنباً إلى جنب الخيرين لأن العدالة تُشيع حالة شاملة من الإيجابية في المجتمع الإسلامي فيغدو كل شيء وهو يعمل للخير، وسترسوا العلاقة الإيجابية مع القيادة، وستحل علاقة المحبة بين أفراد المجتمع بدلاً من البغضاء والكراهية، فالإمامة هي مسؤولية كبرى لأن عليها يتوقف بناء الدولة والأمة.

يقول الإمام..

وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعُرفاؤه على عباده، ولا يدخلُ الجُند إلاّ مَن عَرَفهُم وعرَفوه ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهُم وأنكروه[1].

الأئمة قوام الله على خلقه أي يقومون بمصالحهم وقيّم المنزِل هو المُدبّر له وعرفاؤك على عباده جمع عريف وهو النقيب[2].

رابعاً: الإمام لا يصانع ولا يُضارع ولا يتبع المطامع..

قال الإمام..

لا يُقيم أمر الله سبحانه إلاّ مَن لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع..

المصانعة بدل الرشوة.

يُضارع من الضراعة وهي الخضوع[3].

فهو لا يقبل الرشوة ولا يخضع لأحد لأي سبب كان ولا يأخذه الطمع.

أما تلك الصفات السلبية التي متى ما أُتصف بها أحد كان يجب استبعاده عن الحكم..

---

(١) الدليل ص٤٤١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج٩، ص١٥٤.

(٣) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج١٨، ص٢٧٤.

يقول الإمام: وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل فتكون في أموالهم نهمتهُ ولا الجاهل فيظلمهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطِل للسُنة فيهلك الأُمة.

هذه هي أهم شروط الإمامة في نظر الإمام عليه السلام.

وكان هو عليه السلام أول مَن جسّد تلك الشروط، حيث يقول عن نفسه:

والله لأن أبيت على حَسَكِ السعدان مسهداً أو أُجرَّ في الأغلال مصفداً أحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلُم أحداً لنفسٍ يُسرعُ إلى البِلى قُفُولُها ويطولُ في الثرى حلولها[1].

وهذه شهادة أخرى، والشاهد هو عبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول:

دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي ما قيمة هذا النعل فقلتُ لا قيمة لها، فقال عليه السلام والله لهي أحبُ إليَّ من امرتكُم إلاّ أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً[2].

وأهم صفات القائد هو الإعتماد على الله والتسليم لقضائه.. ومن هذه الصفة تنشأ الفضائل كلها.. الإستقامة في السياسة. الإخلاص للأُمة، العدل في المعاملة. يقول الإمام في ذلك: فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه[3].

---

(١) الدليل ص٢٩٥.

(٢) الدليل ص٤٣٨.

(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص٢١.

السلطات الثلاث

وهي السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية.

فالسلطة التشريعية يُمثلها الإمام فهو مرجع الأُمة في مسائل الحلال والحرام وفي جميع الأحكام الشرعية.

السلطة التنفيذية ممثلة بالولاة والوزراء والكتاب وجُباة الخراج.

والسلطة القضائية تتجسد في القُضاة المنتشرين في البلاد الإسلامية المختلفة.

السلطة التشريعية

قواعد الحُكم والإدارة

يضع الإمام أمير المؤمنين بين يدي واليه على مصر مالك الأشتر خلاصة تجارب الحُكم الإسلامي خلال أربعين عاماً ويخرج معها عُصارة تجارب الحكومات السابقة واللاحقة ويحشر جميع تلك التجارب في نسق منتظم وعلى صورة قطعة أدبية هي من أروع ما أنتجه الفكر البشري من فنون الحكم والإدارة.

فهو لا يضع بين يدي واليه نظرية يمكن أن تُصيب أو تخطىء بل ينصُب أمامه قواعد في الحكم هي أقرب ما تكون بفن الحُكم منها بنظرية الحُكم، وقد حاول بعض شراح النهج أن يُشبهوا عهده عليه السلام لمالك الأشتر برسائل بعض الزعماء والحكام إلى أبنائهم يضعون فيها عُصارة تجاربهم وخبراتهم، إلاّ أن رسالة علي عليه السلام تختلف عن جميع ما كُتب ودوّن في فن الحُكم، إنها تأخذ بنظر الإعتبار كل الأطراف والجهات التي تتداخل في هذه القضية.

فهي توازن في كل قاعدة من قواعد الحكُم بين مصالح الأُمة ومصالح الدولة وتأخذ بنظر الاعتبار حق الوالي وحق الرعية وترسم كل تلك القواعد بأُفق الماضي والحاضر والمستقبل.

وتُطرح جميع تلك الأفكار والقواعد من زاوية قرآنية منسجمة تماماً

ومتطلبات الواقع. فكل كلمة قالها الإمام في هذا المضمار حَرَصَ أن تأتي منسجمة مع القرآن ومع روح الرسالة الإسلامية.

فكلمات علي عليه السلام هي صدى للقرآن. والقواعد التي نسجها في ذلك العقد الجميل هي خمسون قاعدة وهي كالتالي:

*** القاعدة (١)**

يجب على الحاكم أن يتعرف على طبيعة الأرض والمجتمع الذي يُريد أن يحكمه، وذلك عبر اطلالة دقيقة على تأريخ تلك الأرض وماضي ذلك المجتمع.

(ثم اعلم يا مالك اني وجهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دول قبلك من عدلٍ وجورٍ).

*** القاعدة (٢)**

يجب أن يضع الحاكم نفسه موضع الرعية وكيف كان يتصرف وماذا كان يتوقع من الحاكم فيتخذ نفس الموقف من شعبه.

(وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كُنتَ تنظُر فيه من أمور الولاة قبلك.

ويقولون فيك ما كُنت تقولُ فيهم).

*** القاعدة (٣)**

الرحمة والمحبة والتعاطف المتبادل هي جسور متينة بي الحاكم ورعيته.

(وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلُهم).

*** القاعدة (٤)**

يجب على الحاكم أن يشعُر بأنّ حاكماً فوقه هو الله، وأن ما يريده من (الله) عليه أن يوفره لرعيته لأنهم يطلبونه منه أيضاً.

(فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تُحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه).

* **القاعدة (٥)**

لا تندم على العفو.

(ولا تندمنّ على العفو).

* **القاعدة (٦)**

لا تتفاخر أثناء معاقبة المذنبين.

(ولا تتبجحن بعقوبة).

* **القاعدة (٧)**

التفكير في عظمة الله حصانة من الغرور.

(وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبّةٌ أو مخيلة، فانظر إلى عِظَم مُلك الله فوقك).

* **القاعدة (٨)**

محاسبة النفس ومراقبة الأهل أولاً هو شعار الحاكم العادل.

(أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك).

* **القاعدة (٩)**

الخيار الأفضل من بين الخيارات المتعددة هو الخيار الذي يتجسد فيه الحق ويتحقق به العدل ويَرضى به الناس.

(وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمّها في العدل وأجمعها لرضى الرعية).

* **القاعدة (١٠)**

أبعد عن نفسك أولئك الذين يتلصصون الهفوات ويسعون إلى نشرها بين الناس، عبر الوسائل المتنوعة.

(وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس).

القاعدة (١١)

الحاكم الناجح هو الذي يواجه بحزم الأحقاد الاجتماعية والعقد النفسية ويضع لها العلاج من منظار الإنسان المرَبي والمصلح الإجتماعي.

(أطلق عن الناس عُقدة كل حقدٍ)

*** القاعدة (١٢)**

يجب اختيار المشاورين اختياراً صائباً بحيث لا يكون بينهم من يتصف بالبخل أو الجُبن أو الحرص.

(ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدلُ بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يُضعفُكَ عن الأُمور، ولا حريصاً يُزَيّنُ لك الشَّرَهَ بالجور).

*** القاعدة (١٣)**

لا تستعن بالوزراء السابقين الذين عملوا في ظل الحكومات الجائرة.

(إن سر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ومن تركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة).

*** القاعدة (١٤)**

على الحاكم أن يسند الوظائف الهامة في الدولة إلى أهل التقوى والصدق.

(وألصق بأهل الورع والصدق).

*** القاعدة (١٥)**

على الحاكم أن يضع قانوناً للجزاءات وقانوناً للعقوبات لإشاعة المناخ الإيجابي في إدارة الدولة.

(ولا يكونن المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلة سواء).

*** القاعدة (١٦)**

على الحاكم أن يُشيع مناخاً إيجابياً في المجتمع وذلك بايجاد علاقات متبادلة بينه وبين المجتمع قائمة على حُسن الظن.

(واعلم أنه ليس أدعى إلى حُسن ظن والٍ برعيته من احسانه إليهم).

*** القاعدة (١٧)**

على الحاكم أن يُؤصِّل العادات الإجتماعية الخيّرة التي عليها أجمع الصلحاء من الأُمة. وأن لا يعمل على الغائها بشخطة قلم.

(ولا تنقضن سنة صالحة عَمِلَ بها صدور هذه الأُمة واجتمعت بها الأُلفة وصلحت عليها الرعية).

*** القاعدة (١٨)**

على الحاكم أن لا يعمل على تغيير وضع اجتماعي أو سياسي أو ثقافي كان قائماً في الأُمة وقد حصل عليه اجماع من صلحائها.

(ولا تحدُثن سنة تضرُ بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها والوزر عليك بما نقضت منها).

*** القاعدة (١٩)**

على الحاكم تشكيل لجان أو مجالس من ذوي الاختصاص والخبرة، وظيفتها تدارس ومناقشة القرارات والبرامج والخِطَطْ التي يُراد تنفيذها في البلاد.

(وأكثر مُدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك)

*** القاعدة (٢٠)**

على الحاكم أن يختار أمراء الجيش ممن يتحلون بهذه المزايا.

١ ـ معروفاً بالعفة والأمانة.

٢ ـ يكتم عواطفه عند الغضب.

٣ ـ يعطف على الضعفاء.

٤ ـ يتخاصم مع الأقوياء ولا يلين معهم عند شططهم.

٥ ـ يتقبل العُذر من المخطىء.

٦ ـ لا يتخذ ردود فعلٍ سريعة عند الغضب.

٧ ـ قويُّ الإرادة والعزيمة في جميع مواقفه.

(فولِ من جنودك أنصحهُم في نفسك لله ولرسوله ولأمامك وأطهرهم جيباً..).

*** القاعدة (٢١)**

على الحاكم أن يختار أُمراء الجيش ممن تتوفر فيهم الشروط التالية:

١ ـ أن يكون من عائلة حسنة السمعة.

٢ ـ أن يكون معروفاً بالشجاعة والشهامة وهناك مواقف مشهودة له.

٣ ـ أن يكون سخياً ومعروفاً بهذه الصفة.

٤ ـ أن يكون مسامحاً وله مواقف تشهد على ذلك.

(ثم ألصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماعٌ من الكرم وشعبٌ من العُرف).

*** القاعدة (٢٢)**

على الحاكم أن يتفقد شؤون جنوده كما يتفقد الوالد أولاده، فلا يُعظِّم قوتهم حتى لو كانت عظيمة فعلاً، ولا يحتقر شيئاً عملوه حتى لو كان ضعيفاً أو صغيراً.

(ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما..).

*** القاعدة (٢٣)**

على الحاكم أن يكون مراقباً لجنوده حتى في الأُمور الطفيفة فلا يستهين بها بحجة أنها ليست بأُمور ذات أهمية تستوجب البحث والتقصي.

(ولا تدع تفقّد لطيف أمورهم على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه).

*** القاعدة (٢٤)**

تقوية معنويات الجنود هي احدى مسؤوليات الحاكم وذلك بزرع الأمل في نفوسهم وبالثناء المتواصل عليهم.

(فافسح في آمالهم وواصل من حُسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذِّكر لحُسنِ فعالهم تهُزُّ الشجاع وتحرمن الناكل).

*** القاعدة (٢٥)**

على الحاكم أن ينظر إلى جميع العاملين لديه من وزراء ومشاورين وموظفين نظرة مساوية فالشريف والوضيع على حدٍ سواء في الجزاء والعقوبة.

(ولا يدعونّك شَرَفُ امرىء إلى أن تُعظِّم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً).

*** القاعدة (٢٦)**

في حالات التنازع والإلتباس فالمرجع الذي يرجع إليه الحاكم هو كتاب الله وسنة رسوله.

(واردد إلى الله ورسوله ما يُضلِعُك من الخطوب ويشتبه عليك من الأُمور).

*** القاعدة (٢٧)**

على الحاكم أن يختار لوظيفة القضاء أفضل رعيته ممن يتصف بالصفات التالية:

١ ـ قدرة كبيرة على استيعاب القضايا المختلفة.

٢ ـ لا يتأثر بكلام الخصم فيحرفه عن اتخاذ الحكُم العادل.

٣ ـ لا يتمادى في الخطأ.

٤ ـ يُذعن للحق متى ما توصل إليه.

٥ ـ لا يأخذُ الطمع.

٦ ـ يبذل قُصارى جهده من أجل تقصي الحقيقة ومعرفة ملابسات القضايا المطروحة عليه بصورة دقيقة.

٧ ـ لا يتبرّم من المراجعات المتكررة.

٨ ـ الحزم في اتخاذ القرار والإعلان عنه.

٩ ـ لا يُغير موقفه أثناء الإطراء أو الإغراء.

(ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك...).

*** القاعدة (٢٨)**

على الحاكم أن يرعى بدقة متناهية شؤون قضاته، فيبذل لهم من المال ما يملأ عيونهم ويمنحهم من المنزلة والدرجة عنده ما يقَوّي بها نفوسهم ومعنوياتهم.

(ثم أكثر تعاهدَ قضائهِ، وافسح له في البذل ما يُزيلُ عِلّته، وتقل معه حاجتهُ إلى الناسُ، وأعطِهِ من المنزِلةِ لديك ما لا يَطمَعُ فيه غيره من خاصيتكَ، ليأمَنَ بذلك اغتيال الرجال لهُ عندكَ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإنّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمَلُ فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا).

*** القاعدة (٢٩)**

على الحاكم أن يختار موظفي الدولة ورؤساء الدوائر على أساس من الضوابط والأُصول المرعية. ويجب أن يُدعِم هذا الاختيار بالإختبار والتجربة.

(ثم انظر في أُمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولِّهم محاباةً وأثَرَةً).

*** القاعدة (٣٠)**

يجب على الحاكم أن يوفر وسائل العيش الكافي لموظفيه حتى يشعروا بالإكتفاء فلا يلوّثوا أنفسهم بالرشوة.

(ثم اسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم).

*** القاعدة (٣١)**

على الحاكم أن يوجد شبكة من العيون يُرصدون تحركات المدراء والموظفين أثناء وخارج العمل ليتأكد من استقامتهم وصدقهم وحسن تعاملهم مع الناس.

ويجب عليه أن يختار عناصر هذا الجهاز من أفضل موظفيه ممن عُرف بالصدق أولاً والوفاء للمبادىء ثانياً.

(ثم تفقّد أعمالُهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم)

*** القاعدة (٣٢)**

أن يكون حافز الحاكم نحو الإنتاج أقوى من حافزه نحو الضرائب.

ولتأمين موارد الدولة يجب أن تُعطى الأولوية للموارد الحاصلة عن الإنتاج على المواد الحاصلة على ضريبة الأرض.

(وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلَغَ من نظرك في استجلاب الخراج).

القاعدة (٣٣)

على الحاكم أن يهتم بموظفي الديوان ويعتني في اختيارهم ممن يثق بقدراتهم وأمانتهم لأنهم سيطلعون على أسرارِهِ وخِطَطِه. وأن يضع على رأس كل فريق من موظفي الدولة رئيساً يُديرُ شؤونهم.

(ثم انظر في حال كُتابك فولِّ على أمورك خَيرهُم).

*** القاعدة (٣٤)**

لا بدّ للحاكم من رعاية التجار وأصحاب المصانع.. فالتجارة والصناعة هما عصب الإقتصاد.

(ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً).

*** القاعدة (٣٥)**

على الحاكم أن يكرس أكثر جهده واهتمامه ووقته لشؤون المستضعفين والمحتاجين لأنهم أحوج طبقات المجتمع إلى مساندة الحاكم لهم مادياً ومعنوياً.

(ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين).

*** القاعدة (٣٦)**

على الحاكم أن يحدد وقتاً معيناً لعقد لقاءات مفتوحة مع الناس، يتحدثوا فيها على الطبيعة بكل ما يهمهم، ويطلبون كل ما يحتاجون إليه من الدولة.

(واجعل لذوي الحاجات منك قِسماً تُفرِّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضعُ فيه لله الذي خلقك، وتقعدُ عنهم جُندك واعوانك من أحراسِكَ وشُرطِكَ حتى يُكلمك متكلمهم غير متتعتع).

*** القاعدة (٣٧)**

أن يكون للحاكم صدراً وسيعاً يستوعب حاجات الناس وإن كَثُرت، وأن لا يضيق لجهل البعض وتجاوزه، وعليه أن يُزيل عنهم مشاعر الخوف والضيق التي تحدّ من تجرئهم في طرح مطالبهم الحقة.

(ثم احتمل الخُرق منهم والغيّ ونحِّ عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثوابَ طاعته، وأعطِ ما أعطيت هنيئاً وامنع في إجمالٍ وإعذار).

*** القاعدة (٣٨)**

على الحاكم أن يهتم بروحه كما يهتم ببدنه، فيُعيّن أفضل أوقاته لمناجاة ربِّه والتذرّع والإنابة إليه.

(واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت).

*** القاعدة (٣٩)**

على الحاكم أن يُنظّم لقاءات مستمرة مع الناس ولا يحتجب عنهم لأن باحتجابه عنهم ستتراكم الشبهات وسيتغيّر حال الناس، فيصغر عندهم الكبير ويعظُم عندهم الصغير ويقبح الحسنُ ويحسنُ القبيح ويُشابه الحق بالباطل.

(وأما بعد فلا تطوّلن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبةً من الضيق).

*** القاعدة (٤٠)**

لمواجهة الشائعات والتُهم لا بُدّ للحاكم أن يخرج إلى الناس ويصارحهم بالحقيقة كما هي، حتى يتبين للناس براءته من تلك التُهم.

(وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعُذرك...).

*** القاعدة (٤١)**

السلام هو الأصل.. فلا بد أن يضع الحاكم السلام نصب عينيه، ويعمل من أجله.. فبالسلام يتحقق الأمن والوئام وبالسلام يجد الحاكم فرصته الذهبية للبناء والإعمار.

لكن يجب أن يكون الحاكم على حذر إذا دعاه عدوه للسلام، فلا يحسن الظن به كثيراً. فيجب أن تكون استجابته حذرة.

(ولا تدفعن صُلحاً دعاك إليه عدوك، لله فيه رضاً).

*** القاعدة (٤٢)**

على الحاكم أن يتجنب إراقة الدماء بدون حُكم شرعي.

(إياك والدماء وسفكها بغير حِلِّها، فإنَّهُ ليس شيءٌ أدعى لنقمةٍ ولا أعظمَ لتبعةٍ ولا أحرى بزوال نعمةٍ وانقطاع مُدةٍ من سفك الدماء بغير حقها).

*** القاعدة (٤٣)**

الحاكم وغيره سواسية في أحكام القتل إذا كان عمداً أو خطأً أو شبه العمد فعليه الديّة لا يختلف عن غيره من المسلمين.

(ولا عُذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قودَ البدن وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا يطمحنّ بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم).

*** القاعدة (٤٤)**

وإن أكثر ما يدفع الحاكم إلى الإنحراف والطغيان اعجابه بنفسه وإطراء الآخرين له.

(وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يُعجبك منها وحبَّ الإطراء).

*** القاعدة (٤٥)**

على الحاكم أن يغدق على رعيته وأن لا ينتظر منهم حتى كلمة الشكر، وأن لا يَعدهُم أُموراً لا يستطيع تحقيقها.

(وإياك والمن على رعيتك باحسانك، أو التزيّد فيما كان مِن فعلك أو أن تَعدهُم فتتبع موعدك بخُلفك فإن المنَّ يبطل الإحسان).

*** القاعدة (٤٦)**

على الحاكم أن يترك الأُمور لتطبخ على نارٍ هادئة، وأن لا يتناولها قبل نضوجها، وليكن في تصديه لشؤون الدولة هادئاً رزناً غير مُتسرّع ولا متباطىء.

(وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقُط فيها عند امكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهَن عنها إذا استوضحت، فضع كُلّ أمرٍ موضعه وأوقع كُلّ عملٍ موقعه).

*** القاعدة (٤٧)**

على الحاكم أن يأخذ من بيت المال سهماً مساوياً للآخرين من الناس، وأن لا يتستر على ما يفعله المقربون إليه من انحرافات وليعلن عن فضائحهم أمام مرأى الآخرين.

(وإياك والإستئثار بما الناس فيه أسوةٌ والتغابي عما تُعنى به مما قد وَضَحَ للعيون، فإنه مأخوذٌ منك لغيرك).

*** القاعدة (٤٨)**

الغضب عدو الحاكم العادل، فليهرب منه كلما هاجمه. وأن لا يصدر رأياً ولا يتخذ موقفاً إلاّ بعد أن يسكن غضبه.

(أُملكْ حمية انفك، وسورة حدك، وسطوة يدك، وغرّبّ لسانك، واحترس من كل ذلك بكفٍّ البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غَضَبَكَ فتملك الاختيار).

*** القاعدة (٤٩)**

ليتذكر الحاكم الآخر، فهو أفضل علاج لحالات التكبّر والغضب التي قد تسيطر عليه وتحرف به عن الجادة.

(ولن تُحكِمْ ذلك من نفسك حتى تُكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

*** القاعدة (٥٠)**

على الحاكم الإستفادة من تجارب الحكومات والدول التي سبقته، وليأخذ العبرة من التأريخ.

(والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لِمن تقدمك من حكومةٍ عادلة أو سُنَّة فاضلة).

السلطة التنفيذية

تنحصر السلطة التنفيذية في زمن الإمام علي عليه السلام على كبار رجال الدولة الذين يقومون بأدوار تنفيذية وهم:

١ ـ الولاية.

٢ ـ الوزراء والمشاورين.

٣ ـ ريس الجُند.

٤ ـ العمّال.

٥ ـ الكتّاب.

أولاً: الولاة: هم أعلى سلطة تنفيذية في الولايات التابعة للدولة الإسلامية، ويتمتع الوالي بصلاحيات واسعة في الولاية.

وأهم صفات الوالي ١ ـ التقوى، ٢ ـ الطاعة، ٣ ـ اتباع الكتاب والسُنة، ٤ ـ نصر الله باللسان واليد والقلب، ٥ ـ مقاومة النفس الأمارة بالسوء.

يقول الإمام في عهده لواليه مالك الأشتر.

أمرهُ بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها واضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره واعزاز من أعزّه وأمرهُ أن يكسر من نفسه عند الشهوات وينزعها عند الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلاّ ما رَحِمَ الله.

ثانياً: الوزراء والمشاورين وهم الذين يسدون للوالي بالرأي ويتناقشون معه في أُمور البلاد والعباد وهم يتصفون بالصفات التالية:

١ ـ الكرم، ٢ ـ الشجاعة، ٣ ـ أبعد ما يكون عن الحرص، ٤ ـ ألا يكون وزيراً لحاكم سابق ولم يُشارك أحداً في الظلم والتعدّي على الآخرين، ٥ ـ يمتلك الجرأة الأدبية.

أما الوالي فيقول كلمة الحق ولا يعاونه في الظُلم.

ثالثاً: رئيس الجُند: وهو الذي يتولى إدارة الجيش ويتصف بما يلي:

١ ـ الحلم، ٢ ـ العفة، ٣ ـ بطيء الغضب، ٤ ـ يقبل العُذر، ٥ ـ عطوف على الضعفاء، ٦ ـ لا يتساهل مع الأقوياء عند انحرافهم، ٧ ـ لا تستثيره أعمال العُنف، ٨ ـ يتحدّى الضعف ولا يُصيبه العجز.

رابعاً: العمال وهم عماد السواد والصدقات والوقوف والمصالح وغيرها، ويشترط في اختيارهم ١ ـ أن يكونوا من أهل التجربة، ٢ ـ من أهل السابقة في الإسلام، ٣ ـ من العوامل المعروفة بالنزاهة والعفة والكرم.

خامساً: الكتاب وهم موظفوا الديوان وحفظة سر الوالي. ويشترط في تعيينهم أن يكونوا ١ ـ من ذوي السابقات الحسنة، ٢ ـ أن يكون أميناً، ٣ ـ ذا سمعة طيبة بين الناس، ٤ ـ مشهوراً بالإستقامة، ٥ ـ لا يُفشي أسرار الوالي حتى لو انقلب عليه.

ولضمان استقامة رجال الدولة يتم مراقبتهم عبر ثلاثة طرق:

١ ـ بواسطة الإمام نفسه وقد اشتمل نهج البلاغة على عشرات النصوص التي هي رسائل محاسبة وعتاب موجهة من أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولاته.

٢ ـ تشكيل أجهزة سرية تقوم بمراقبة كبار الموظفين والولاة.

٣ ـ عبر الوعي المستمر والنصح الدائم الذي يحرك الضمائر ويجعلها أقدر على المحاسبة.

السلطة القضائية

وهي السلطة المتمثلة بالقاضي الذي يقوم بأعمال الفصل في النزاعات والخصومات وقد أبرز الإمام علي عليه السلام في أدبياته هذا الجانب الهام من أركان الدولة والذي يتوقف عليه العدل والمساواة وحل المعضلات ومواجهتها المواجهة السليمة.

وأول قضية حساسة تُواجه مسألة القضاء هو اختيار القاضي، فإذا كان الاختيار صائباً استتب العدل وتعزّز الأمن والسلام.

يقول الإمام في كيفية اختيار القاضي:

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأُمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلّة ولا يحصر في الفيء إلى الحق إذا عرفهُ، ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأذى فهم دون أقصاه وأوقفهم في الشبهات وأخذهم في الحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشّف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراءٌ وأولئك قليلٌ.

فهناك سبعة شروط لاختيار القاضي:

١ ـ أن يكون محيطاً بالقضايا مستوعباً لمداخلها ومخارجها، ٢ ـ قويّ الشخصية بحيث لا تدفعهُ الخصومات على تغيير سلوكه، ٣ ـ لا يصرّ على

الخطأ بعد اكتشافه، ٤ ـ لا يضعف أمام المال والجاه بل يبقى قوياً ملتزماً بالحق، ٥ ـ دقيقاً في معالجة القضايا والخصومات دون تسرع واضطراب، ٦ ـ إذا اشتبهت عليه الأُمور يتوقف في الحُكم، ٧ ـ إذا اتضح الحق فيلتزم به دون تردّد.

ثم ينتقل الإمام إلى نقطة هامة أخرى هي كيف يمكن تأمين قضاء سليم وكيف يمكن تحصينه من الإنحراف.

يقول الإمام..

ثم اكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يُزيل علته وتقِل مَعَهُ حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظراً بليغاً.

فأولاً عليه أن يُراقب القضاة مراقبة مُشددة.

والثاني: تأمين الناحية المعيشية للقاضي بحيث يكون مكتفياً فلا يشكو الحاجة إلى أحد.

والثالث: منحه قدراً أكبر من الاحترام اللائق والمنزلة المناسبة للدور الذي يؤديه في المجتمع.

فإحاطة القاضي بالمال والإحترام هو حصانة للسلطة القضائية من الإنحراف والإنجراف.

السياسة الداخلية

تقوم السياسة الداخلية في الدولة الإسلامية على مبدأ التحابُبْ والشعور المتبادل بالمودّة والمحبة، وعلى هذه القاعدة وضع الإمام علي عليه السلام أُسُسْ هذه السياسة مؤسساً بناءً شاهقاً للعلاقة بين الحاكم والرعية.

يقول الإمام: وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخٌ لك في الدِين أو نظيرٌ لك في الخلِق، يفرطُ بهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبُ أن يعطيك الله من عفوه وصفحِه فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم.

فالعلاقة القائمة ليست علاقة حاكمٍ ومحكوم بل هي علاقة أب لأولاده يكنُّ لهم الحب والعطف ويلطف بهم كما يلطف الأب بأبنائه وإذا ما أراد معاقبتهم على أخطاء ارتكبوها فلا يتجاوز الحدود، فلا يكون عليهم كالسبع يريد التهامهم والانتقام منهم بل يكتفي في حدود التأديب.

وبالنص السابق يقلب الإمام علي عليه السلام مفاهيم السلطة ويأتي بمفهوم ليس بجديد بل يحيي تجربة الإسلام الخالدة في الحُكم. فالحاكم هو أب

قبل أن يكون حاكماً، وعلاقاته بشعبه هي علاقة حب وعطف. وعلى قاعدة أبوّة الحاكم تُرسى جميع القيم والمُثل المتعلقة بالعلاقة بين الحاكم والرعية.

وكما يرسم الأب سياسته في إدارة البيت على أساس من الحب والرحمة فكذلك الحاكم في خططه وسياسته فهو يعتمد هذه القاعدة أيضاً.

فالحبّ هو الجسر الموصل إلى القلب.

وعندما يحكم الحاكم بقلبه الكبير وليس بسوطه الطويل يصبح حاكماً على القلوب قبل أن يكون حاكماً على الأبدان.

ويتكون على شاطىء هذه العلاقة، مستوى عالٍ من الديناميكية بين الحاكم والرعية فالحاكم بحاجة إلى تعاون الرعية ومشاركتهم له كذلك الرعية بحاجة إلى الحاكم ليقود المسيرة إلى ما فيه الصلاح والخير.

معايير السياسة الداخلية

وبعد ارساء العلاقة المتينة بين صنوف المجتمع على قاعدة الحُب، يُبادر الحاكم إلى وضع سياسة معقولة ليسلكها مع أبناء بلاده.

يقول الإمام:

وليكن أحبُّ الأُمور إليك أوسطها في الحق، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سُخط العامة يُجحف برضا الخاصة، فالسياسة التي تقوم على ثلاث موازين، ميزان الحق، ميزان العدل، ميزان رضا الرعية هي الكفيلة بتحقيق التقدم والسعادة للأُمة. فالحق يصد الحاكم عن الانحراف والعدل يصدّه عن الظلم ورضا العامة يصدّه عن الدكتاتورية.

ويقف رضى الناس معياراً هاماً يتوازن مع الحق والعدل لطرفي المعادلة التي تقوم عليها السياسة الداخلية.

الخاصة خطرٌ على الجماهير

الخاصة وهي المجموعة المنتفعة الملتفة حول الحاكم، هي التي تُشكِلُ خطراً مستمراً على الشعب، لأن مصالح هذه المجموعة تتضارب دائماً ومصالح الشعب.

تدأب الخاصة على الإمساك بالحاكم من تلابيبه وتسيِّرهُ لخدمة مصالحها فهي إذن العقبة الكُبرى في طريق العلاقات بين الحاكم والمحكوم ولذا لم ينس الإمام عليه السلام من تحذير ولاته من مسايرة الخاصة فيقول:

فإن سخط العامة يُجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء هو أكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شُكراً عند الإعطاء وأبطأ عُذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة.

فأية فائدة تُرتجى من أفراد الخاصة فهم في أوقات الضيق لا يعرفون أنفسهم وفي أوقات الرخاء ينسفون العلاقة بين الحاكم وبين الناس بتصرفاتهم الغوغائية فهم رجال المصالح وليس رجال دولة ولا رجال حُكم.

يدورون به ما دارت معايشهم..

ويُفهم من كلام أمير المؤمنين رغبة ملحة لاستبعاد طبقة الخاصة، فوجودها سيضرُّ بمصلحة البلاد، وأول المتضررين من وجودها حول السلطة هو الحاكم نفسه. وعلى الحاكم أن يستبدل تلك العناصر الفاسدة بعناصر مخلصة.

يقول الإمام:

والصق بأهل الورع والصدق ثم صنهم على أن لا يطروك ولا

يبجحوك بباطل لم تفعله فإن كثرة الإطراء تُحدثُ الزهو وتُدني من العزة ولا يكتفي أن يثق الحاكم بالخاصة إنهم مِن أهل الورع وحسب بل عليه أيضاً أن يُروضهم على الصدق والواقعية في التعامل معه.

وأن يُفهم أنّه ليس بالشخص الذي يطير فرحاً بكلمة مديح، ويُغيّر مواقعه بكلمة اطراء واحدة يسمعها من المتزلفين.. بل هو حاكمٌ صارم يتعامل مع الأشخاص بواقعية وليس بالكلمات البراقة.

الرأي العام

وهو رأي الأكثرية من عامة الناس في الحاكم، فرضى القاسم الأعظم من الناس الصالحين في الحاكم يُشكّل دليلاً واضحاً على سلامة نهجه أو العكس فكان لا بُدّ من احترام رأيهم وإعطائهم الاهتمام الكافي لأنه السبيل إلى نجاح السياسة التي ينتهجها الحاكم مع رعيته، فكلما كانت هذه السياسة موافقة مع رأي الأمة كانت أقدر على التنفيذ.

يقول الإمام:

وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كُنت تنظُر من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يُستدلُّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسُن عبادهِ.

وبهذه الكلمات يلخص الإمام علي عليه السلام عناصر الرأي العام، وهي تتجاوز المقولات التي يتفوّه بها الناس في وسائل الإعلام إلى ما يتوقعونه من الحاكم وهو عنصر لم يلتفت إليه أرباب علم السياسة.

فالرأي العام يتشكّل بحسب هذه النظرة من عنصرين الأول: ما يختلج في النفوس من هواجس وأفكار ورغبات، الثاني: ما يتُم الاعلان عنه من أفكار ورغبات بشكل مسموعٌ أو بشكل مرئي..

ولا بد للحاكم أن يبحث عن الحقيقة اينما كانت حتى لو كانت مخبأة في النفوس. لأنه يُستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده.

الرعاية والضمان الاجتماعي

هنالك دائماً طبقات محرومة في المجتمع بحاجة إلى الرعاية الدائمة والاهتمام المستمر ويتحمل الوالي النصيب الأكبر من المسؤولية في رعاية شؤون هؤلاء وهم أصحاب الحاجات والفقراء واليتامى والضعفاء.

ولكي يستطيع الحاكم من تأدية هذه المهمة عليه أن يُشكِّل هيئة تقوم بأعمال الرعاية.

يقول الإمام:

وتفقد أُمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال فَفرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم.

ويقول أيضاً:

وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن (الشيوخ والعجزة) ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه.

وأيضاً:

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين

والمحتاجين، وأهل البؤس (شدة الفقر) والزمني (ذوي العاهات) فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام (الأراضي المفتوحة وغلاتها وثمراتها).

فاليتامى والمساكين والعجزة وذوو العاهات، وكل صاحب حاجة هم في رعاية الدولة الإسلامية، وعلى الحاكم أن يرسم برنامجاً لإدارة شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية والمهنية وذلك بإنشاء هيئة مُشرفة على أعمال الرعاية، وهذا ما يسمى بالضمان الاجتماعي في المصطلح الحديث.

وتؤمَّن ميزانية المؤسسة التي تقوم بهذه الوظيفة من مصدرين اثنين الأول نسبة من بيت المال والثاني نسبة من واردات الأراضي المفتوحة وبذلك سوف تكون هذه الميزانية متحركة على ضوء الانتاج وبحجمها يتم تمشية أمور الناس المحتاجين.

التنمية الاقتصادية

تسعى الدول إلى تكوين رؤوس أموال تتناسب مع حجم انفاقاتها، وتعتمد هذه بالدرجة الأولى على الضرائب التي تُفْرَضُ على المنتجين. ومن ينظر إلى موارد الدولة الإسلامية في عهد الراشدين لوجد أن المورد الرئيسي هو الضرائب المسمى بالخراج.

وقد أقرّ الإمام أمير المؤمنين بهذه الحقيقة عندما ذكر قائلاً:

الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله، والخراج هو الضريبة التي توضع على الأرض المزروعة.

وبما أن الخراج محدود القيمة، فإن ميزانية الدولة ستكون محدودة إن توقفت عليه فقط، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن أخذ الضرائب الباهظة ربما سيؤدي إلى تكوين دخل مناسب للدولة، لكن سيؤدي ذلك إلى إفقار الطبقة المنتجة وبالتالي سيؤدي إلى إفلاس الدولة بسبب ضعف الإنتاج.

ولمواجهة هاتين المعضلتين، يجب صب الاهتمام في زيادة الإنتاج وهو ما يراه الإمام في رؤيته الاقتصادية يقول في هذا المجال:

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب

الخراج لأن ذلك لا يُدرك إلاّ بالعمارة.. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرَبَ البلاد وأهلك العباد.

يتضمن هذا النص الأفكار التالية:

١ ـ مسؤولية الدولة لا تتلخص بأخذ الخراج بل قبل ذلك عليها مسؤولية كبرى يجب أن تؤديها نحو أولئك الذين يدفعون هذه الضريبة، فعليها أن تتفقد أحوالهم، وترعى شؤونهم الصحية والثقافية ، وترفع من مستواهم المهني لأن ذلك سيسبب في زيادة الإنتاج وتحسينه وبالتالي سيتحسن وضع الإنتاج.

٢ ـ اعطاء الأولوية في السياسة الاقتصادية للخراج، فالإنتاج قبل الخراج، لأنّ الإنتاج سيعمّر البلاد هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى سيمكّن عند زيادة الإنتاج طبقة الفلاحين من دفع الزكاة على أفضل شكل.

٣ ـ الإعتماد على الضريبة دون الاهتمام بالانتاج سيؤدي إلى الدمار، لأن أخذ الضرائب سيُضعف القدرة المالية للمنتجين وبالتالي سيؤدي إلى ضعف الانتاج.

وهكذا يضع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أمام الحكومة التي لم تعرف مصدراً للدخل غير الخراج يضع أمامها مبدأً اقتصادياً هاماً سيكون حين تطبيقه أحد الحوافز المهمة في الثورة الاقتصادية. فالاهتمام بالانتاج هو عصب الاقتصاد والسبيل إلى الثروة فالانتاج سيزيد من ثروة الفلاحين وسيمكنهم من دفع الزكاة وكلما زاد الإنتاج ازدادت الزكاة. وهكذا تتحسن الحالة الاقتصادية وستحقق الدولة أرباحاً كبيرة لبيت المال يُوزع قسمٌ منه على الفقراء وقسمٌ آخر تعيده إلى عجلة الانتاج من جديد من خلال الاستثمارات المشروعة التي يذهب ريعها للفقراء أيضاً وهكذا تتحرك العجلة الاقتصادية من جيد إلى أجود. محققةً حالة من الاكتفاء الاقتصادي ومستوى عالياً من الانتاج الداخلي.

السياسة الخارجية

تقوم السياسة الإسلامية على مبادىء وقواعد رصينة، ويأتي على رأس هذه المبادىء السلام.

فالسلام أصلٌ ثابت في العلاقات الخارجية، بخلاف ما يُقال إن الإسلام دين الحرب، وبخلاف ما يُقال عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه رجل الحرب.

أجل هو رجل الحرب عندما يكون السيف هو الوسيلة الوحيدة لإعادة الحق إلى نصابه.. لكنه رجل السلم أيضاً.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك، وأمناً لبلادك.

ولكن الحذر كلُ الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن.

ويستمد أمير المؤمنين سياسته هذه من القرآن الكريم حيث جاء معلناً ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

فالحاكم يتحيّن كُل الفرص لتحقيق السلام ويزج بكل الوسائل المتاحة لديه للوصول إلى علاقات سلام مع الدول المجاورة له..

ويبرر الإمام هذه السياسة بالأسباب التالية:

١ ـ السلام راحة للجنود

هناك حربٌ لا بُد منها وهي عندما تفرضها عقيدة الجهاد أو يفرضها العدو فرضاً وما أكثر هذه الحروب في تأريخ الإسلام، وما أكثر الحروب التي أُبتلي بها الإمام علي عليه السلام عندما فُرضت عليه فرضاً.

وكان على الحاكم أن يستعد لتلك الحرب المفروضة عليه الإستعداد الكافي. لكن هناك حروباً يمكن تجنبها ولا داعي لها، فلا بد من تجنبها حتى يتفرغ الجيش للحروب التي لا بُد منها وهي الحرب التي تتصدى للأعداء الحقيقيين.

٢ ـ راحة للحاكم من الهموم.

فالإنشغال بالحروب سيجعل الحاكم متوثباً في كل وقت قلقاً في كل زمان الأمر الذي سيجعله مضطرب البال باستمرار.

٣ ـ وأمناً للبلاد.

الحرب تقضي على فرض الأمن، فالغارات التي يشنها العدو على حدود الدولة الإسلامية وأساليب الإغتيال والإرهاب ستهدد أمن البلاد وستجعل رعايا الدولة في حالة توتر مستمر بسبب انهيار الحالة الأمنية.

ومع انعدام الأمن تُشل برامج الدولة في التنمية والتوعية وتنهار الخطط الاقتصادية وتتوقف التجارة.

الوفاء بالعهود والمواثيق

إن همّة الحاكم نحو السلام لا تنتهي وهي لا تعني منح الثقة الكاملة للأعداء بل عليه تنظيم العلاقة بينه وبين الدول في اتفاقيات ومعاهدات، وكان عليه الوفاء لهذه العهود والمواثيق.

يقول الإمام:

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عدوك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شيء، الناس أشد عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمن، لما استوبلوا من عواقب القدر فلا تغدرن بذمتك، ولا تخسيس بعهدك ولا تختلن عدوك، فإنه لا يُجترأ على الله.

موقف أصيل ينمُّ عن مقدرة على التصرف، ويدلُ على رصانة في الفعل السياسي.

فأول مبدأ من مبادىء العمل السياسي هو الاستقامة والصدق في التعامل، وهو بخلاف ما تقوم عليه السياسة المبنيّة على المصلحة الضيقة التي تدفع بأصحابها إلى تغيير مواقفهم باستمرار وإلى اخفاء النوايا وإظهار ما لا يعكس الواقع.

فالعلاقة السياسية التي تتبناها الدولة الإسلامية هي علاقة منتظمة قائمة على مبادىء وتتحكم بها ضوابط وقواعد ولا يمكن للحاكم الانفلات منها متى شاء نتيجة رغبة قصيرة العمر أو مصلحة موقتة.

الدولة في التطبيق

بعد أن ألممنا إلمامة سريعة لنظرية الدولة والحكم عند الإمام علي عبر خُطبه ورسائله وولاية عهده لمالك الأشتر، جاء الوقت لنُراقب علياً عليه السلام أثناء التطبيق وما سيكون موقفه وهو يخوض غمار أصعب فترة من فترات التأريخ الإسلامي اتسم بالصراع والتنافس المحموم على السلطة، فهل كان علياً وفياً لمبادئه التي أعلن عنها قبل استلام الخلافة؟

وماذا سيكون موقفه من الشطحات التي سقط فيها نظام الحكم في عهد الخليفة عثمان بن عفان؟ هل سيكرر هذه الشطحات أم أنه سيقاوم الظرف الصعب، ولا يحني رأسه للعاصفة التي جرفت الكثير من أصحاب المناصب العالية؟

إن دراسة اللحظات الأولى من استلام الإمام للحكم هي دراسة في موضوع شائك فقد تباينت آراء من كتبوا عن مواقف الإمام علي عليه السلام عقب توليه زمام الأمور، فهناك مَن لامه على السياسة التي انتهجها، وهناك من اتهمه بالضعف وعدم الحكمة. فكان لا بُد وقبل أن نتناول هذا الموضوع أن نذكر بعض الحقائق التي غابت عن بعض الكُتّاب فأوقعتهم في الإلتباس.

فالإمام علي عليه السلام لم يكُن يُريد السلطة من أجل السلطة فلو كان يُريد السلطة من أجل أن يحكم كما يقول حسنين كروم:

الإمام علي لم يحسن استخدام السلطة التي سعى للحصول عليها[1].

لو كان الأمر فعلاً كما يقول حسنين كروم لكان قد حصل عليها بعد وفاة النبي ﷺ عندما قرر كلٌ من العباس عم النبي ﷺ وأبو سفيان وطلحة والزُبير وجمعٌ من الصحابة أن يكونوا مع علي وأن يضعوا كل امكاناتهم إلى جانب خلافته بعد النبي ﷺ.

فقد كان موقف الإمام من جميع من تقدّم إليه بهذا العرض السخي، ينُمُّ عن حكمة بالغة وإيثار للمصلحة العامة، وإنه لم يكن يرغب بالسلطة إلاّ إذا تمكن من تحقيق أهدافهُ في الحياة.

فقد كان علي رجلُ أهداف وليس رجل مصالح وكان همّه الأول هو البلوغ لتحقيق أهدافه ولم يتحرك لاستلام السلطة خلال عقدين من الزمن مع كونه الأحق بها، بل ترك السلطة لتأتيه تحبو إليه.

٢ ـ لم يكن الإمام يتحرك ضمن دائرة الظرف الراهن فقط، بل كانت حركته تنطلق من دائرةٍ أوسع بكثير من دائرة المواقع المعاصرة له. فعليٌّ عليه السلام باعتباره إمام فهو لم يكن لعصر معين بل كان لكل العصور، فكان يتحرك في أُفق الحاضر والمستقبل معاً، وكان يُريد أن يسجل بحركته كلمة الإسلام في كل خطوة وفي كل موقف لتأتي الأجيال من بعده فتسلك خُطاه وتقتدي به، وهذا يختلف عندما يُنظر إلى الإمام بعنوانه حاكماً، فالذين تناولوه من هذا المنظار خطأوا الكثير من مواقفه أثناء الحكم.

يقول حسنين كروم:

ومن الطبيعي بالنسبة للسياسي أن يقوم بعملية فرز لكل القوى المؤيدة والمعارضة والمحايدة والسعي نحو كسب أكبر عدد ممكن من الأنصار، وتقليص عدد الأعداء وتحييد من يمكن تحييدهم.. إلاّ أن علياً قد وقع في

---

(١) كرومي علي نظرة عصرية ص٦٨.

خطأ قاتل حينما تردد عن استخدام السلطة أي أنه لم يتصرف كسياسي.

لقد كان على هذا الكاتب أن يدرك قبل أن يُحلل تأريخ الإمام، إن علياً لم يكُن حاكماً بل كان إماماً، وكان يتصرف على أساس هذه الوظيفة.

٣ ـ كان للإمام مواقف واضحة في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة في قضايا كثيرة منها ظُلم الولاة وقسمة العطاء وتنصيب الولاة من ذوي القرابة.

وكان عليه أن يثبت في مواقفه ويكون لديه رأيٌ في كل قضية كان له فيها موقفٌ أو رأيٌ.

وهنا يتجلى جانب آخر من جوانب العظمة في شخصية الإمام، إنه كان شيئاً واحداً في فترتين مختلفتين الأولى مرحلة المعارضة والثانية مرحلة الحُكم.

فالكلمة التي قالها والموقف الذي وقفه في عهد عثمان وهو في خانة المعارضة، قالها أيضاً، ووقفها أيضاً وهو حاكمٌ بيده مقاليد السُلطة.

ذلك ان معارضته كانت معارضة صادقة، فهو لم يعارض من أجل المعارضة ولم يحكم من أجل الحكم. فقد كان هناك دائماً هدفٌ مشترك يسعى من أجله الإمام في كلتا المرحلتين من حياته. وتبرز أهمية هذه الحالة لو دققنا النظر في العديد من قوى المعارضة التي وصلت إلى السلطة فَكَم غيرت من مواقفها؟ وكم تخلت عن أفكار ومواقف نادت بها في فترات معارضتها للسلطة؟ ولربما تتخلى قوى المعارضة عن مواقفها السابقة نتيجة ظروف صعبة تمرُّ بها فلا يشفع لها إلاّ الثبات على مواقفها بكل ما لها من صلادة.

وهكذا كان واقع الحكم في زمن أمير المؤمنين، فقد كان التيار المعاكس عنيفاً ولم يكن هناك خيار إلاّ الصمود بوجهه وتحديه حتى تتثبت المبادىء وتستقيم المواقف.. فعلي عليه السلام هو نفسه عندما كان ثائراً وعندما أصبح حاكماً فيما بعد.

عندما كان معارضاً في عهد عثمان، وعندما كان حاكماً بعد موت عثمان.

كان المعارض الصادق في عهد الخليفة عثمان بخلاف الآخرين الذين كانوا يعارضونه لمجرد المعارضة أو لمصلحة في نفوسهم. وهم عارضوا حكم الإمام علي عليه السلام أيضاً لأنهم يعارضون من أجل المعارضة.

بعد تثبيت هذه الحقائق، نقتحم أسوار الموضوع الذي بدأناه سلفاً، فقد ذكرنا أن المسؤولية التي بدأها الإمام من اللحظة الأولى من استلامه للسلطة هي كيفية مواجهة ركام من الأوضاع الشاذة بخطوات قوية وسريعة حتى تعود الحياة للجسد المضعضع المُترهل.

كان على الإمام أن يحقن هذا الجسد بجُرعات من العقاقير التي حملها عقدين من الزمن وكان بانتظار هذه اللحظة التي يضع فيها الدواء على الجُرح.

فأول ما قام به الإمام لإصلاح الوضع الإجتماعي والسياسي هو:

١ ـ إعفاء ولاة الخليفة عثمان من مناصبهم، وتنصيب ولاة جُدد في مواقعهم. فأرسل عثمان بن حنيف الأنصاري بدل عبد الله بن عامر إلى البصرة، وعلى الكوفة أرسل عمارة بن شهاب بدل أبي موسى الأشعري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس بدل يعلى بن منبه وعلى مصر قيس بن سعد ابن عبادة بدل عبد الله بن سعد وعلى الشام سهل بن حنيف بدلاً من معاوية ابن أبي سفيان[١].

وكان مصيرهم مختلفاً فبينما ذهب عثمان بن حنيف إلى مكان عمله وأصبح والياً على البصرة فإن عمارة بن شهاب عندما وصل الكوفة قال له البعض إن أهل الكوفة لا يرضون بغير أبي موسى الأشعري فرجع عائداً.

---

(١) محمد الخضري بك اتمام الوفاء ص١٧٠.

وذهب عبيد الله بن العباس إلى اليمن ليجد واليه السابق قد ترك مكانه بعد أن استولى على بيت المال، أما قيس فقد استقر في مصر والياً من قبل الإمام. يبقى مصير سهيل بن حنيف الذي عيَّنه الإمام على الشام فقد رجع قسراً بعد أن أرسل إليه معاوية قوة من جنوده، أرغموه على الرجوع وهو في منتصف الطريق.

وكان وراء هذه التغيرات سياسة حكيمة بخلاف ما يُنظر إليه من منظار المصلحة الموقتة وبخلاف ما كان يراه المغيرة بن شعبة كان الإمام يرى ضرورة الإسراع في اعفاء معاوية من ولاية الشام، لأن معظم المشكلات والأزمات التي وقعت كانت بسببه وبسبب بقية الولاة. وكانت عملية الإزاحة لهؤلاء على رأس مطالب المعارضة، فكيف يستطيع الإمام الإبقاء عليهم وهو الذي انتقد الخليفة عثمان على تنصيبهم والإبقاء عليهم في الولايات؟

أما كان يُعتبر إبقاء هؤلاء نوع من المهادنة والإستسلام للأمر الواقع؟

وماذا سيكون جوابه للثوار الذين ثاروا على هؤلاء الولاة؟

وعلى فرض أن الإمام كان قد أبقى على معاوية، فهل كان بإمكانه أن يُزيحَهُ بعد ذلك؟ أليس من المحتمل أن يستغل معاوية وهو المعروف بدهائه الفرصة التي منحها له الإمام ليعلن عن شرعية وجوده في ولاية الشام، ثم رفضه لحكومة الكوفة؟ فما هي الفائدة من إبقائه يا تُرى؟

بالعكس كان الإمام يرى بأن الوقت المناسب لتنحية معاوية قد حان أوانه، فهو يعرف معاوية جيداً وأنه يحاول استغلال كل موقفٍ لصالح ولايته وكان المسلمون لا زالوا يعيشون حرارة الثورة، ولم يكن أمام الإمام سوى دعم جهود الثورة لمواصلة عملية تطهير الدولة الإسلامية من المنحرفين والمصلحيين، فلو فَتِرَ الإمام لحظة واحدة لَفَتِرَ الناس سنيناً، ولماتت الروح الثورية في نفوسهم وبالتالي لما كانوا على استعداد لمواجهة معاوية بعد أن يتثبّت في مكانه.

من هنا فإن خطة الإمام في تغيير الولاة كانت سياسة حكيمة، وعلى العكس كان تثبيته لهم من الممكن أن يُضيّع عليه فرصة ذهبية. بالإضافة إلى الإنطباع الذي يمكن أن يؤخذ عليه بأنه نوع من المساومة.

٢ ـ المساواة في العطاء

مبدأ المساواة في العطاء عُمِلَ به حتى في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، حيث ابتكر أُسس جديدة في توزيع العطاء واضعاً سلماً للأفضلية بين المسلمين، وقد أدت هذه السياسة إلى تفشي ظاهرة الطبقية في المجتمع الإسلامي، وأصبح لها نتائج سلبية على الواقع الاجتماعي مما أدى إلى تفاقم الأوضاع.

وذكر المؤرخون إن عمر عزم في أواخر حياته إلى إعادة النظر في نظام القسمة لكن لم يمهله أبو لؤلؤة. وعندما حل الخليفة عثمان محله سار على نفس هذا المنهج، بل انغمس أكثر في تفضيل بني أُمية مما ضاعف من تعقيد المشكلة الاجتماعية التي أدّت في النهاية إلى الثورة عليه وعلى ولاته، فقد كانت هذه المشكلة احدى عوامل الثورة الشعبية.

وكان هدف الإمام الأول هو تغيير الواقع الإجتماعي والسياسي الذي ورثه، وما كان ذلك ليحدث إلاّ بقرارات حازمة لا مجال فيها للمساومة والمساومين.

فكان أول ما قاله الإمام:

ألا وأيما رجلٌ استجاب لله وللرسول، فصدَّق ملتنا ودخَلَ في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتُم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحدٍ على أحد، وللمتقين غداً أحسن الجزاء وفضل الثواب وإذا كان غد إن شاء الله ـ فأغدوا علينا فإن عندنا مالا نُقسّمه فيكُم، ولا يتخلفنّ أحدٌ منكم عربيٌّ ولا عجميٌّ كان

من أهل العطاء أو لم يكن إذا كان مسلماً حُراً إلاّ حضر أقولُ قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكُم.

وفي اليوم التالي قال لعمار ولابن عباس:

قوموا فتخللوا الصفوف ونادوا هل من كاره، فتصارخ من كل جانب: اللهم قد رضينا وسلمنا واطعنا رسولك وابن عمِّه، فقال عليه السلام: قم يا عمار إلى بيت المال فأعط الناس ثلاثة دنانير لكل إنسان وادفع لي ثلاثة دنانير، فمضى عمار وأبو الهيثم وجماعة من المسلمين إلى بيت المال، ومضى أمير المؤمنين إلى مسجد قباء يُصلي فيه، فوجدوا ثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا الناس مائة ألف فقال عمار جاء والله الحق من ربكم والله ما علم بالمال وبالناس وإن هذه الآية وجبت عليكم بها طاعة الرجُل.

هكذا ساوى أمير المؤمنين بينه وبين أبسط الناس وعندما سأله سهيل ابن حنيف مستفهماً هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم.

فقال عليه السلام: نعطه كما نعطيك.

وأمر الإمام أن يبدأوا في العطاء بالمهاجرين ثم يثنون بالأنصار ثم من حضر من الناس كلهم الأحمر والأسود.

ثم إنّ عماراً وعبد الله بن رافع وغيرهما لما قسّموا المال بين الناس بالسوية أخذ علي عليه السلام مكتلهُ ومسحاته ثم انطلق إلى بئر الملك، فعمل فيها فأخذ الناس ذلك القسم حتى بلغوا الزبير وطلحة وعبد الله بن عمر، فأمسكوا بأيديهم وامتنعوا عن القبول، وقالوا: هذا منكم أو من صاحبكم، فقالوا: هذا أمره لا نعمل إلاّ بأمره قالوا استأذن لنا عليه قالوا: ما عليه اذن هو ببئر الملك يعمل، فركبوا دوابهم حتى جاؤوا إليه فوجدوه في الشمس ومَعَهُ أجير له، فقالوا: إن الشمس حارة فارتفع معنا إلى الظل، فارتفع معهم إلى الظل فقالوا له: لنا قرابة من نبي الله وسابقة وجهاد وإنك أعطيتنا بالسوية

ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلوننا على غيرنا.

فقال عليه السلام: فهذا قسم أبي بكر الا تدعوا أبا بكر وغيره، فهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حقٍ فخذوه.

قالوا: فسابقتنا.

قال: أنتما أسبق مني.

قالا: لا فقرابتنا من النبي صلى الله عليه وآله.

قال: أقرب من قرابتي.

قالا: لا فجهادنا.

قال: أعظمُ من جهادي.

قالا: لا. قال: فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا بمنزلة سواء.

وظل جمعٌ من الصحابة مصرين على تغيير موقف الإمام من القسمة، إلاّ أن الإمام ظل على موقفه غير مستعد للتنازل.

جاءه هؤلاء الأصحاب وتكلموا معه للمرة الثالثة والرابعة، فأجابهم الإمام قائلاً لهم:

وأما القسم والإسوة فإن ذلك أمرٌ لم أحكُم فيه بادىء بدء قد وجدتُ أنا وأنتم رسول الله صلى الله عليه وآله يحكُمُ بذلك وكتاب الله ناطقٌ به وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

وأما قولكما «جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواءٌ بيننا وبين غيرنا» فقد سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلا فضَّلهم رسول الله بالقسم ولا أثر بالسبق والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة بأعمالهم وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلاّ هذا.. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق والهمنا وإياكم الصبر، رحم الله امرىءٍ رأى حقاً

فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه وكان عوناً للحق على مَن خالفه، فقام طلحة والزُبير وانصرفا من عند أمير المؤمنين وجاء مرةً أخرى فقالا: قد عرفت حال هذه الأزمنة وما نحن فيه من الشدة، قد جئناك لتدفع إلينا شيئاً نصلح به أحوالنا ونقضي به حقوقاً علينا، فقال أمير المؤمنين: قد عرفتما مالي بـ(ينبع) فإن شئتما كتبتُ لكما عن ما تيسر فقالا: لا حاجة لنا في مالك. فقال أمير المؤمنين: ما أصنع فقالا: أعطنا من بيت المال شيئاً لنا فيه كفاية. فقال أمير المؤمنين: سبحان الله وأيّ يد لي في بيت مال المسلمين؟ وأنا خازنهم وأمين لهم. فإن شئتما رقيتما المنبر وسألتما ذلك من الناس ما شئتما، فإن أذِنوا فيه فعلت. وأتى لي بذلك وهو لكافة المسلمين شاهدهم وغائبهم؟ ولكني أُبدي لكما عُذراً، فقالا: ما كنا بالذي يكلفك ذلك ولو كلفناك لما أجابك المسلمون، فقال أمير المؤمنين، فما أصنع؟ فقالا: سمعنا ما عندك.

ثم خرج الرجلان من دار أمير المؤمنين، وقد يئسا من بيت المال فجعلا يفكران في كيفية الخروج إلى مكة. لقد فشلت كل المحاولات التي قام بها كلٌ من طلحة والزبير وغيرهما في دفع الإمام علي عليه السلام إلى تغيير موقفه في العطاء، فقد أصرّ الإمام على مبدئه غير متزعزع وغير متأثر بكل محاولات الاستدراج، فكان رأيهُ النهائي أن يقبضوا من ماله الخاص في ينبع وهو رأيٌ ينمُّ عن مبدئية لا حد لها، وكم كان هذا الرأي مُحرجاً لطلحة والزبير.

٣ ـ إعادة الحُكم الإسلامي إلى وضعه الصحيح

لقد مضى وقتٌ طويل على فترة صدر الإسلام وما تحمله تلك الفترة من قيم ومبادىء في الحُكم. وبالمقابل تفشت السلبيات في غياب القيم الإسلامية الحقة، وانتزعت المشاعر الدينية عن البعض ويذكر المؤرخون لما قدم أهل اليمن زمان أبي بكر وسمعوا القرآن وجعلوا يبكون، فقال أبو

بكر هكذا كُنا ثم قست القلوب.

هكذا تغيّر واقع المسلمين ولعل أكبر شاهدٍ على هذا التغيُّر ما ورد في صحيح مسلم عن تلك الفترة. جاء في صحيح مسلم:

حدّثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدّثنا سليمان يعني ابن بلال عن يحيى وهو ابن سعيد، قال كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً، قال قال رسول الله ﷺ من احتكر فهو خاطىء فقيل لسعيد فإنك تحتكر. قال سعيد إن معمراً الذي كان يُحدث هذا الحديث كان يحتكر[1].

وإذا عرفنا أن رواية الأحاديث بدأت في الفترة المتأخرة وليس في عهد النبي ﷺ فإنّ معمراً الراوي أخذ يحتكر في تلك الفترة وليس في عهد النبي ﷺ.

وهذا ما يكشف لنا عن وضع المسلمين في غياب الأُسس القويمة التي قام عليها النظام الإسلامي. ففي غياب المحاسبة الحكومية وضعف الإلتزام الديني أخذ العديد من الصحابة يبتعدون عن الجادة، فلا غرابة بعد ذلك في الذي لاحظناه من مواقف من كبار الصحابة كطلحة والزبير.

وأمام هذا التسيب كان على الإمام أمير المؤمنين أن يُعيد كل شيء إلى نصابه.

وأن يدفع بالمسلمين إلى الإنسجام التام مع مبادىء الإسلام في الحُكم.

---

(١) صحيح مسلم ج٣، ص١٢٢٧ وسعيد بن المسيب كان ختن ابن هريرة على ابنته ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب وروي عنه أنه قال أصلحت بين علي وعثمان، كان من جلّة فقهاء التابعين ونُساكهم وخيارهم وأعلم من بقي منهم لقضاء رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر مات سنة ثلاث وأربعين وتسعين (رجال صحيح مسلم ص٢٢٧) والظاهر أن فترة نشاطه كانت في عهد عثمان بن عفان، ومعمر بن عبد الله عمر طويلاً أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة، روى عنه سعيد بن المسيب والظاهر أنه كان في الحياة في عهد عثمان بن عفان. (انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٤، ص٤٠٠).

ويأتي على رأس هذه المبادىء الحرية.. العدل.. المساواة.. فبدأ ومنذُ استلامه لمهمة إدارة الدولة الإسلامية بدأ بتكريس هذه القيم الثلاثة، وقد تحدثنا عن المساواة في العطاء وبقي الحديث عن الحرية والعدل.

وسِجِلْ أمير المؤمنين في مجال الحرية والعدل مملوء بالحكايات خلال فترة حكمه لكن ما يهمنا هو الفترة الأولى من حكمه أي اللحظة الأولى التي استلم فيها الحُكم.

فقد لاحظنا ذلك في قضية طلحة والزبير عندما أراد الإمام ارجاعهما إلى المسلمين قائلاً لهما: فإن شئتما رقيتما المنبر وسألتما ذلك من الناس ما شئتما، فإن أذِنوا فيه فعلت. وهو بهذا القول أراد أن يُؤكد مبدءاً هاماً من مبادىء الحكم في الإسلام وهو الاعتماد على رأي الناس أو ما يصطلح عليه اليوم بالإستفتاء الشعبي وهو موقف يتناغم مع روح القرآن الكريم ومبدئيته في مسألة الشورى حيث ورد وأمرهم شورى بينهم.

فالإمام الذي استلم زمام المسؤولية عبرَ اختيار شعبي منقطع النظير لا يخشى رأي الناس بل يرى إن رأي الناس هو دعم لنظام حكمه، فكلما أراد اسناد حكمه التجأ إلى المسلمين الذين يشكلون القاعدة القوية في النظام السياسي لأية دولة.

أما عدل الإمام فقد ظهر منذُ الدقيقة الأولى.. ومنذ أن جاءه طلحة والزبير وهما يستأذنان أمير المؤمنين بالرحيل عن المدينة وهما يقولان ما نريد إلاّ العمرة. لم تنطل هذه الخُدعة الواهية على الإمام علي عليه السلام فهو يعرفهما جيداً وأنهما سيتآمران عليه، ولو كان الحاكم هو غير الإمام علي عليه السلام لاتخذ الاحتياطات الكافية بفرض الإقامة الجبرية على الزبير وطلحة في المدينة المنورة.

فلنستمع إلى هذه المحاورة التي جرت بين ابن عباس والصحابيين بعد أن لقيهما وهما يشدان عُدة الرحيل.

سألهما: أذِنَ لكما أمير المؤمنين؟

فقالا: نعم.

فأسرع ابن عباس إلى أمير المؤمنين وهو يخشى أن يفوته الوقت ويفلت منه الإثنان.

وكان الإمام يعلم بما يختبيء تحت ضلوع ابن عباس فابتدأ قائلاً: يابن عابس: اعندك الخبر.

قال ابن عباس رأيت طلحة والزبير.

قال أمير المؤمنين: إنهما استأذنا في العُمرة فأذنت لهما بعد أن أوثقت منهما بالإيمان أن لا يغدرا ولا ينكثا ولا يحدثا فساداً..

ثم طرق برأسه وبعد هنيئة واصل الإمام إني لأعلم أنهما ما قصدا إلاّ الفتنة، فكأني بهما وقد صارا إلى مكة ليسعيا إلى حربي فإن يعلى بن منبه الخائن الفاجر قد حمل أموال العراق وفارس لينفق ذلك، وسيفسد هذان الرجلان عليّ أمري، ويسفكان دماء شيعتي وأنصاري.

فاستثار ابن عباس لهذه الكلمات، فقال بأدب بالغ إذاً كان ذلك عندك يا أمير المؤمنين معلوماً فلِمَ أذنت لهما؟ هلا حبستهما وأوثقتهما بالحديد وكفيت المؤمنين شرهما؟

فقال أمير المؤمنين متعجباً: يابن عباس أتأمرني بالظُلم، أبدأ بالسيئة قبل الحسنة؟ وأعاقب على الظنة والتهمة؟ وأؤاخذ بالفعل قبل كونه كلاّ والله.

لا عدلت عما أخذ الله عليّ من الحُكم والعدل، ولا ابتدأ بالفصل.

منطقان مختلفان..

منطق ابن عباس، ومنطق الإمام علي.

فإبن عباس، كان يرى الأُمور من منظار السلطة فهو منطق السلطة في كل زمان ومكان بينما علي عليه السلام كان يرى الأُمور من منظار المبادىء فهو رجل مبادىء همه أهدافُه الخالدة في الحياة وليس تثبيت سلطته على حساب مبادئه.

وعجباً لعلي أن يتكلم بذلك المنطق وهو على رأس السلطة.

وعجباً لابن عباس أن يتكلم بذلك المنطق وهو خارج السلطة.

فالذين جربوا الحكومات المتعاقبة يفهمون هذه المقايسة.. فكثيراً ما يكون الإنسان خارج السلطة فينشد بالمبادىء والقيم ويتغنّى بها لكن يتبخّر كل شيء بمجرد أن يصل إلى السُلطة.

فهل جرّب العالم حاكماً كعلي لا يختلف موقفه عندما يكون في السلطة أو خارجها. فالذي جربته البشرية هو العكس تماماً إلاّ في الحالات النادرة.

فهي جربت حكاماً كانوا يذوبون في المبادىء، وبمجرد وصولهم إلى الحكم يتغيّر منطقهم ويأخذوا بالتعامل مع منطق السلطة. وقد يحصل أن يُضطر بعض الحكام على تغيير مسارهم لأن الكثير من المبادىء التي يطلقونها في زمن العمل السلبي هي مجرد شعارات رنانة قد لا تحظى بأية درجة من إمكانية التطبيق.. لكن علي لا يقرُّ بالظروف ومهما كانت قاهرة ولا يهمه إن سار عكس اتجاه التيار إذا كان شراعه باتجاه مبادئه.

لقد آل علي عليه السلام على نفسه ومنذُ الوهلة الأولى من حكومته أن يُطلق على الأُمة نسيم الحرية حتى تنتعش رِئَتَها بالهواء الطلق فتأخذ في ممارسة دورها الحضاري المرسوم لها لأن الاستبداد يُفسد الهواء الذي يتنفسه الناس.

فبعد أن بايعه الصحابة جاؤوا بسعد بن أبي وقاص:

فقال له علي: بايع.

قال: لا حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس.

فأراد الصحابة أن يُرغموه على البيعة.

فنادى فيهم الإمام.. خلوا سبيله..

وجاؤوا بعبد الله بن عمر، فقالوا: بايع فقال: لا حتى يبايع الناس.

فقال عليه السلام إئتني بكفيل.

قال: لا أرى كفيلاً فقال الأشتر: دعني أضرب عنقه.

فقال الإمام: دعوه أنا كفيله.

وبهذا الموقف الخالد أرسى الإمام أساساً متيناً للحُكم الإسلامي.. ولا يهمُّ ابن أبي طالب بعد تلك الوقفة من يكون المستفيد، ومن يكون المتضرر حتى ولو كان الضرر سيُصيب حكمه.

فليس المهم أن يتضرر الحكم والسلطان طالما سَلُمَت المبادىء.

٤ ـ استرداد ما أُخذ من مال المسلمين.

لم تقم سياسة تقسيم الأموال في عهد عثمان على مبدأ واضح فقد كانت هذه الأموال توزّع بشكل غير منتظم كما وأن جمعاً من بني أُمية من أقارب الخليفة استأثروا بالقسم الأعظم من تلك الأموال فاشتروا بها العقارات.

وأيضاً قامت سياسة الخليفة عثمان على مبدأ ترضية كبار الصحابة بمنحهم قطع من الأرض المفتوحة، ولم يشك أحد إن هذه الأموال والأراضي هي من حصة المسلمين فلا بد من إعادتها إليهم.

فالذين استملكوا تلك الأراضي على رغم أنها قُطعت لهم من قبل الخليفة إلا أنها أموال عامة يشترك فيها كل المسلمين فلم يساوم ولم يتردد

في إعادة تلك الأموال إلى بيت مال المسلمين على رغم ما سيصيبه جراء هذا الموقف، فقد وقف الإمام ليعلن على الملأ وليَسمَعَهُ كل المنتفعين من حكم عُثمان.. يقف ليقول:

ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين فإن الحق قديم لا يُبطلهُ شيء ووالله لو وجدته تفرق بين البلدان وتزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم[1].

كان يفترض على الإمام أن يُعيد الحق إلى نصابه وإلاّ لما كان على الحق ولما كان الحق معه كما قال رسول الله فيه. وأولُ ما يجب استرداده هو حقوق الناس التي استبيحت على أيدي حفنة متزلفة.

لا يخشى عليّ سيؤول إليه هذا الموقف وهو يدري إن هؤلاء سوف لا يسكتوا عنه وأنهم قد يتآمروا عليه وأنهم قادرون على إثارة الرأي العام ضده بما يملكون من أموال يوزعونها على ضعاف النفوس.

لا يهمُّ علي كل هذا.. طالما كان موقفه هو الحق.

فإصراره على استعادة الحق لا حدّ له.

والله لو وجدته تفرق بين البلدان وتزوج به النساء وملك به الإماء لرددته.

بهذه العزيمة وبتلك الصلابة بدأ الإمام عهداً جديداً من الحُكم الإسلامي بعد غياب طال أمده.

القصاص من قتلة الخليفة عثمان

من القضايا الملحة التي كانت مطروحة على الإمام، يوم تحمُّلِهِ للمسؤولية قضية القصاص من قتلة الخليفة عثمان سيما وإنه كان على يقين

---

(١) دعائم الإسلام ج١، ص٣٩٦.

بأن أعداءه سيستغلون هذه القضية، وربما أُتُّهم بالتقصير إذا لم يُسرع في أخذ القصاص؟ فلماذا تخلف الإمام وهل كان من المصلحة أن يؤجل هذا الموضوع؟

لا يخفى أن الإمام كان يرى ضرورة التحري عن قتلة عثمان لإنزال حكمَ الله عليهم.

يذكر سيف بن عمر في كتابه الفتنة:

واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة، فقالوا: يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم.

فقال لهم: يا أخوتاه إني لستُ أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقومٍ يملكوننا ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانُكم، وثابت إليهم اعرابكُم وهُم خِلانكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا:

لا قال فلا والله لا أرى إلاّ رأياً ترونه إن شاء الله.

وأخذ الإمام يحلِّل لهم الموقف:

إن هذا الأمر أمرٌ جاهلية.. وإن لهؤلاء القوم مادة.. وذلك إن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً. إن الناس من هذا الأمر إن حُرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكُم ثم عودوا[1].

والتأمّل السريع في الرسائل المتبادلة بين الإمام ومعاوية سيكشف عن تلك الحقيقة..

---

(١) سيف بن عمر الفتنة ووقعة الجمل ص٢٨٠.

وتبدأ القضية من اتهام معاوية للإمام والتأليب عليه.

جاء في رسالته لأهل مكة والمدينة، أما بعدُ فإنه مهما غاب عنّا فإنه لم يفت علينا أن علياً قتل عثمان والدليل على ذلك أن قَتَلَتَهُ عنده، وإنما نطلبُ بدمه حتى يدفع إلينا قَتَلَتَهُ فنقتلهم بكتاب الله تعالى.. فإن دَفَعَهُم إلينا كففنا عنه[1].

فأجابه الإمام برسالة أرسلها مع جُرير جاء فيها..

فأما تلك التي تُريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان[2].

فكتب معاوية لعلي:

وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين[3].

فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام:

وأما حقٌ لك ندفعُ إليك قتلة عثمان فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجلٌ من بني أُمية. وبنو عثمان أولى بعثمان منك. فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم إليّ[4].

وهذا هو منطق الإنسان المسؤول الذي يريد حل المشكلة.

فالقصاص من قتلة عثمان بحاجة إلى تشخيص وتعيين هوية القاتل.

وهو ليس بعملية سهلة فتحديد الجاني في قضية محاصرة الخليفة وقتله مسألة معقدة ولم يكن من اليُسر تحقيقها في ذلك الوضع المضطرب،

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٨ ـ ٩٩.
(٢) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٣.
(٣) الإمامة والسياسة ص١٠١
(٤) الإمامة والسياسة ص١٠٢.

لأن قتل عثمان لم يتم بطريقة فردية حتى يمكن تشخيص القاتل، إذ أنه قُتل في ظروف ثورة شعبية والذين اشتركوا في قتله عدة أشخاص وليس فرداً واحداً.

كما وإن اجراء العدالة، وأخذ القصاص من القتلة هو شيء مستحيل في ذلك الوضع المضطرب الذي ما كاد ينتهي حتى بدأت معركة الجمل والتي اتبعها معاوية بعصيانه على الحكومة المركزية.

وقد وضع أمير المؤمنين معاوية أمام المحجة بعد أن كشف عن زيفه.

فإذا كان معاوية صادقاً في دعواه ويُريد حقاً القصاص من قتلة الخليفة فكان الأولى به مساعدة الخليفة الجديد والعمل على استتباب الأمن ثم عليه أن ينصاع لأوامره حتى يحين الظرف الملائم لإجراء التحقيق في هوية القاتلين ومن ثم اجراء القصاص عليهم، فهل فعل معاوية ذلك؟

أم أنه كان يبحث عن أي مأخذٍ لإثارة الفوضى والقلاقل.

الكوفة دار الخلافة

كان من بين الخطوات السياسية الهامة التي قام بها الإمام علي عليه السلام بعد معركة الجمل هو اتخاذه الكوفة عاصمة للدولة الإسلامية..

ويرجع قرار الإمام إلى العوامل التالية:

١ ـ مع امتداد الدولة الإسلامية وتوسعها في آسيا وأفريقيا لم تعد المدينة المنورة إلاّ مدينة نائية بعيدة عن الأمصار التي أُنشئت في البلدان التي تم فتحها، فكان لا بُدّ من اختيار موقع آخر كمقرٍ للقيادة، ولم يكن هناك موقعٍ أفضل من الكوفة، حيث كانت تشكّل نقطة اتصال بين الشرق والغرب وبين الجنوب والشمال، الأمر الذي يسهّل الإتصال بين المدن الإسلامية المختلفة بالأخص تلك التي أُنشئت في عهد الخلافة الراشدة والتي أصبح لها دوراً هاماً في الدولة الإسلامية.

٢ ـ تتركز في الكوفة القاعدة الموالية للإمام علي عليه السلام، فأهل المدينة آثروا الحياد والابتعاد عن الصراعات السياسية.

يقول ابن كثير: وكان علي لمّا عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معهُ فأبوا عليه[1].

بينما كانوا أهل البصرة يوالون طلحة والزبير، بقي أهل مصر الذين

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٧، ص٢٤١.

انقسموا إلى جناحين، جناح يوالي الإمام علي عليه السلام وجناح آخر يوالي الخليفة عثمان.

أما أهل الكوفة فكانوا كما وصفهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

إني قد اخترتكم على أهل الأمصار، فرغبتُ إليكم وفرغتُ لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً[1] فأهل الكوفة هم سند الإمام.. وفي تلك الفترة التي عجّت بالصراعات، كان من الطبيعي أن يكون الإمام بين أنصاره والمؤيدين له. فهم سيساندون سياسته الرامية إلى تطهير الكيان الإسلامي مما عَلِقَ به من تراكمات الفترات السابقة أضف إلى ذلك فإن أهل الكوفة يمتازون بخصال قلّما توجد في أهالي الأمصار الأخرى فقد وصفهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

يا أهل الكوفة إنكم من أكرم المسلمين وأقصدهم تقويماً وأعدلهم سُنةً وأفضلهم سهماً في الإسلام وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً، وأنتم أشدّ العرب وداً للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته وإنما جئتكم ثقة بعد الله بكم للذي بذلتُم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير وخلفهما طاعتي[2].

٣ ـ النظرة التأريخية لبداية تأسيس هذه المدينة تشير إلى أهمية خاصة تحظى بها الكوفة عن سائر الأمصار.

فيُذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب كَتَبَ إلى سعد بن أبي وقاص، إن العرب لا يصلحها من البلدان إلاّ ما أصلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً، وعليك بالريف، فأتاه ابن بُقيلة فقال له: أدلك على أرضٍ انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المبقة؟ قال: نعم، فدله على موضع الكوفة[3].

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٧، ص٢٤٥.

(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١١٥.

(٣) الحموي معجم البلدان ج٤، ص٤٩١.

ولم يكن الاختيار صُدفة بل جاء ضمن مواصفات وضوابط. فقد ازدادت الفتوحات وكثرت الفعاليات العسكرية فكان لا بُدّ من البحث عن مكان مناسب لاستراحة المحاربين فوقع الإختيار على الكوفة من بين كل المناطق.

٤ ـ اتصفت الكوفة بأراضيها الخاصبة وبثرواتها الوفيرة.

فذكر الحميري في الروض المعطاء في وصف الكوفة.

ويُقال لها كوفان، ولها ضياع وفرايح ونخل كثير وأهلها مياسير ومياهها عذبة وماؤها صحيح وأهلها من صرح العرب[١].

وينقل البراقي عن ابن حوقل مقايسة بين الكوفة والبصرة.

مدينة الكوفة قريبة من مدينة البصرة في الكبر، هواؤها أصح، وماؤها أعذب[٢].

وبمقايسة الكوفة بثرواتها ومياهها العذبة وهواءها المنعش، بالمدينة بقلة مياهها وسخونة هوائها ومحدودية ثرواتها لأدركنا أبعاداً أخرى مادية في اختيار هذه البقعة لتصبح عاصمة للدولة الإسلامية.

٥ ـ اجتمع في الكوفة شرائح اجتماعية من مختلف أصقاع البلاد الإسلامية، من اليمن والحجاز والعراق وبلدان أخرى حيث أصبحت مركزاً للعالم الإسلامي، يتجمع فيه المسلمون من كل مكان فتختلط فيها الأجناس والأعراف والقوميات، الأمر الذي جعلها مدينة عالمية كما هي العواصم الكبرى اليوم حيث تلتقي فيها أجناس وأقوام مختلفة.

٦ ـ وهناك سببٌ آخر لعلَّه أهم الأسباب، هو قُرب الكوفة إلى مناطق التوتر في العالم الإسلامي، فالبصرة ودمشق هما أهم النقاط التي اندلعت

---

(١) الحميري الروض المعطاء في خبر الأقطار ص٥١.

(٢) البراقي تأريخ الكوفة ص١١٣.

فيها القلاقل والإضطرابات ضد الدولة الإسلامية في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فالبصرة كانت تختزن بقايا الزبيريين، بينما كانت دمشق حاملة لراية العصيان بقيادة معاوية بن أبي سفيان. وكان الإمام على علمٍ ويقين بأن صراعه مع معاوية سيستمر لأمدٍ طويل من الزمن لما عرفه عنه من مكر وخديعة.. فعليه أن يتهيأ لفصل طويل من الصراع. فلو كان الإمام قد بقي في المدينة المنورة لكان قد تغيّر الوضع العسكري لصالح معاوية. فيُعَدّ اختياره للكوفة دعامة من دعامات الاستراتيجية العسكرية التي وضعها الإمام لمواجهة مناطق التوتر سيّما وان اختياره جاء عقب نشوب القلاقل في البصرة.

وكانت خطة الإمام العسكرية في الجانب الآخر تقتضي التصدي لمعاوية في عقر داره أو على الأقل على مقربة من الشام فكان ارسال الجيش من المدينة (على فرض أن الإمام كان قد بقي فيها) إلى الشام ليس بالأمر الميسور إذ كان يُكلف القيادة ثمناً غالياً حيث كان يستوجب حركة قطاعات الجيش عبر مسافات شاسعة في عمق الصحراء لتصل بعد التعب والإرهاق إلى القوات المتمردة في الشام. فوقع، الإختيار على الكوفة كمركز خلفي يمدّ الجيوش المقاتلة بالجنود والمؤن ويستقبل الجرحى لمداواتهم.

إضافة إلى ذلك فإن بروز فلول حركة التمرد داخل الجيش، وتحصّن هذه الفلول في قرية حرورية التي لا تبعد عن الكوفة سوى نصف فرسخ[1] كان يستوجب هو الآخر مراقبة دائمة وتأهب مستمر بالقرب من حرورية.

ولا نبالغ عندما نقر بأن اختيار الكوفة كموقع خلفي في المعارك الثلاثة قد ساعد كثيراً على تسجيل النصر لصالح الإمام علي عليه السلام ويعدُّ هذا

---

(١) الحميري الروض المعطاء في خبر الأقطار ص١٩٠.

الاختيار ركن مهم من الاستراتيجية العسكرية الناجحة التي اتبعها الإمام في مواجهة الفئات المتمردة والطامعة بالخلافة.

وبعد أن وقع الاختيار على الكوفة، دخلها يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له إنزل بالقصر الأبيض، فقال: لا[1].

وكان أول عملٍ قام به الإمام عليه السلام هو الصلاة في الجامع الأكبر والخُطبة المشهورة التي امتدح بها أهل الكوفة.

نلمس من خطوات الإمام الأُولى، إنه يريد أن يعكس صورة ايجابية عن الحاكم الإسلامي تنسجم وواقع الرسالة وواقع الرسول صلى الله عليه وآله.

فالحاكم ليس بالقصر.

ولا بالكرسي المرصَّع.

ولا بالحرس والحشم والجواري..

أُولئك هم حكام الجور.. ملوك فارس وقياصرة الروم، فقد جاء الإسلام ليلقي بكراسيهم وقصورهم إلى مزبلة التأريخ.

ولا زال المؤرخون يقفون بإجلال ويكتبون بأقلامٍ فخورة كيف تساقطت قصور القياصرة والأكاسرة في يوم مولد الرسول صلى الله عليه وآله.

وهم يقفون بألم مُحرق ليسطروا بأقلامهم..

إن تلك القصور والكراسي المرصعة قد عادت على أيدي معاوية وهو ليس بأكثر من والي.. فكيف به لو أصبح خليفة؟.

دخل معاوية على الخليفة عمر بن الخطاب وكان والياً في زمانِهِ، دخل عليه في أُبهة الملك وزيه من العديد والعدّة فاستنكر عمر ذلك وقال له في غضب:

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ص٢٦٤.

أكسروية يا معاوية[1].

كان الإمام يُراقب أوضاع الشام وسلوك معاوية خلال فترة ولايته في عهد الخليفة الثاني والثالث، وكان يرى في معاوية سلوكاً شاذاً عن روح الإسلام وسينجر هذا السلوك إلى انحراف في المنهج إذا لم يقف بوجهه سريعاً.. فكان أول فعلٍ قام به أن حذف من حولِهِ كل الزوائد التي التصقت بالولاية والحكام فلا قصر ولا كُرسي ولا أيَّ مظهر من مظاهر الزخرفة والكبكبة. فقد أراد بهذا النهج أن يُعيد إلى السلطة الإسلامية قيمتها الحقيقية واعتبارها الرسالي والتي بدونها تتحول إلى أداة قسرية وإلى سوط مرصع بالذهب ينهال على ظهور الفقراء والمحرومين.

أراد عليّ أن يعلن الحرب على منهج خاطىء سَلَكَهُ معاوية.. وهي حرب شهرها بسلوكِهِ وسيرتهِ الرسالية والتي بَرَّزَ من خِلالها مدى الإنحراف الذي انجر إليه معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) ابن خلدون المقدمة الفصل ٢٨، ص٢٠٣.

مناقبية في الصراع

يمكن اختصار التأريخ السياسي لعهد الإمام علي عليه السلام بأنه تأريخ صراع على السلطة. فقد اندفع الطامعون في السلطة إلى مواجهة الإمام، ووقف الإمام يدافع دفاع الأبطال عن القيم وعن الحكم الإسلامي ليس بدافع الشهوة إلى السلطة. إذ عرفنا الإمام وعرفنا موقفه من السلطة في بداية البيعة.

لقد أجبروه على دخول المعركة إذ لم يكن أمامه شيء آخر للدفاع عن نفسه وعن القيم التي جاء الإسلام بها سوى شهر السلاح بوجه كل طامع بالحكومة.

فالجميع بايعوه بالخلافة.. واختاره المسلمون حافظاً لدينهم ودمائهم وأميناً على أموالهم وأعراضهم. فكان عليه أن يقف ليُؤدي الأمانة إلى أهلها لا يساوم حتى على الدرهم الواحد.

وهنا نقف عند ساحل محطة أخرى من عظمة الإمام علي عليه السلام. فعليٌّ الذي عُرف باستهانة السلطة وتشبيهه لها بأنها عفطة عنز، كان يمكن له أن يتنازل عن بعض حقه لتستقيم له الأمور. كان يمكن له أن يغض النظر عن معاوية ليستريح من الحروب والويلات. وكان بإمكانه أن يُعطي شيئاً من الإمارة لطلحة والزبير ويجنّدهما لحرب معاوية وكان باستطاعته أن يُؤلب

أهل البصرة على أهل الشام وأهل العراق على أهل المدينة كما يفعل حكام اليوم.

لكن علي لم يفعل كل ذلك. لسبب بسيط هو أنه كان يرى في كرسي الخلافة أنها مسؤولية وليس ملوكية.

كان يرى نفسه من خلال الأُمة التي بايعته ثم إنه وافق أن يكون راعياً لها أميناً على دنياها وآخرتها.

فالسلطة عند علي عليه السلام هي مسألة حق.. فكان الدفاع عنها هو دفاعٌ عن الحق.

بهذهِ الرؤية دخل الإمام ميدان الصراع فلم ينكمش ولم يتهرب ولم يتهيب وهو يخرج من معركة ليدخل في أخرى طالما كان همه الدفاع عن الحق. وليس الدفاع عن الكُرسي.

فمنذُ الوهلة الأولى كان جلياً أن أيام الإمام سوف تكون أيام عصبية، وأنه سيواجه بمعارضة شديدة. والذي عارضوه هم ثلاثة أصناف.

الصنف الأول: الطامعون بالحكم.

الصنف الثاني: معاوية بن أبي سفيان ومن يؤيده ويقف إلى جانبه من آل أمية وآل مروان.

الصنف الثالث: ضعاف العقيدة ومتزلزلوا الولاءات ممن كان مع الإمام.

تيار الطامعين بالسلطة

فمع الصنف الأول قامت معركة الجمل وسببها كما ورد في التأريخ أن طلحة والزُبير شعرا بأنهما قد خسرا كل شيء بمجيء علي بن أبي طالب إلى الحُكم.

وربما زاد من اندفاعهما إلى القتال أنهما مهدا الطريق لسقوط الخليفة عثمان بتحريضهما للناس فقد انتابهما شعور جامح بأنهما ساهما في تنصيب الإمام علي عليه السلام وبالتالي فلهما الحق في مشاركته بالخلافة. فكانا أول من بايع أمير المؤمنين كما ذكر ابن كثير[1].

ويقول ابن كثير في سبب بيعتها:

ويُقال إن طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبها وسألاه أن يؤمرهما على البصرة والكوفة فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنسُ بكما[2].

وظهر واضحاً لكل من الزبير وطلحة أنهما لوحدهما لا يستطيعان مواجهة الإمام علي عليه السلام فأية معركة مكشوفة مع الإمام هي محاولة يائسة مكتوبٌ لها الفشل سلفاً، ما العمل إذن؟.

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٧، ص٢٣٧. وذكر ابن الأثير ان علياً قال لهما: إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما. فقال بل نبايعك (ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص١٩١.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ج٧، ص٢٣٧.

إنّ وجُود شخص يمتّ بالنبي ﷺ بالصلة القريبة بينهم سيجعلهم متوازنين مع الإمام علي عليه السلام.

وبهذهِ العقلية اندفعوا إلى نساء النبي ﷺ لأن الرجال كانوا مع الإمام علي عليه السلام فانضمت إليهم السيدة عائشة فأصبحوا ثلاثة وكان بينهم شخصٌ رابع هو عبد الله بن الزُبير فكان العقل المدبر لحظة الصراع والقوة الماسكة للثلاثي المختلف الزبير وطلحة وعائشة. كان عبد الله قريباً لاثنين من قادة التمرد بالإضافة إلى صلاته الوثيقة بطلحة الأمر الذي جعله قادراً على إدارة اللعبة والسيدة عائشة لم تكن بحاجة إلى مَن يُحفزها ضد علي عليه السلام إذ كانت موتورة منه منذُ زمن النبي ﷺ بسبب عدد من القضايا الشخصية وقد أقرت بنفسها بذلك.

فكانت أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنها كانت من أكثر خصومه عداءً. وكل واحدٍ من أولئك الأربعة أو الثلاثة كانوا مندفعين بحوافز نفسية أو مصلحية نحو اعلان التمرد على الإمام علي عليه السلام.

فالزبير وطلحة كانا طامعين بالخلافة وكانا يُريدان تقسيمها بينهما وكان معنى ذلك تقسيم الكيان الإسلامي إلى قسمين وقد تنفرط العلاقة بينهما ويؤدي هذا الإنقسام إلى تمزّق كبير في المجتمع الإسلامي وكان هناك أكثر من شخص يدفع بهذا الاتجاه فيذكر ابن الأثير أن مروان بن الحكم أَذّن ثم جاء حتى وقف على طلحة والزُبير فقال: على أيكُما أُسلم بالأمرة وأؤذّن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزُبير: على أبي وقال محمد بن طلحة على أبي وكاد النزاع يقع بينهم لولا مبادرة السيدة عائشة لحل هذهِ المشكلة بأن قالت ليصلِّ بالناس ابن أختي يعني عبد الله بن الزُبير[1].

ولم يكن عبد الله بأقل من الإثنين طمعاً في الخلافة. فكانت خطته تقضي بتنصيب الزبير خليفة للمسلمين بدعم من عائشة ومن بعده تنتقل

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٠٩.

الخلافة إليه. أو في حالة نشوب النزاع بين الزبير وطلحة يقع الاختيار عليه كما وقع الاختيار عليه في إمامة الصلاة.

إذاً دوافع حرب الجمل لم تكن إلا دوافع شخصية محضة، ثارات قديمة واحقاد دفينة وأطماع مخبّأة لا يستطيع أصحابها البوح بها. ولكي يتمكن قادة التمرد من التغطية على الدوافع الحقيقية أخذوا ينادون بلسان واحد، يا لثارات عثمان. ويا ليتهم اختاروا شعاراً آخر. إذ ليس بين المسلمين من لا يعرف ما كان بين هؤلاء الثلاثة والخليفة.

فلا زالت ذاكرتهم تحمل أنين عثمان ودعاءه على طلحة: اللهم أكفني طلحة فإنه حمل عليّ هؤلاء وألبهم عليّ[1].

ولا زالوا أيضاً يتذكرون صرخة السيدة عائشة اقتلوا نعثلاً فقد كفر[2] فما كان شعار المطالبة بدم عثمان مقنعاً لأحد حتى أولئك البسطاء من الناس إذاً من الذي جمع هذا الجمع الغفير من أصحاب الجمل؟.

بالطبع ونتيجة لضعف العامل الديني في المجتمع الإسلامي وانتشار الروح المادية والمصلحية وتكاثر الناس على الدنيا وتسابقهم على عطايا الدولة في عهد عثمان هو الذي أوجد الأرضية المناسبة لتكوين جبهة معادية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام. ولم تكتمل التشكيلة إلاّ بعد أن أُضيف إليها يعلى ابن أمية.

يقول سيف بن عمرُ:

كان أول من أجاب إلى ذلك عبد الله بن عامر وبنو أمية. وقد كانوا سقطوا إليها بعد مقتل عثمان، ثم قدم عبد الله بن عامر ثم قدم يعلى بن أمية، فاتفقا بمكة، ومع يعلى ستمائة بعير وستمائة ألف، فأناخ بالأبطح معسكراً وقدم معهما طلحة والزُبير فلقيا عائشة رضي الله عنها. فقالت ما

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص١٧٤.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٠٦ والنعثل هو كث الشعر.

وراءكما، فقالا وراءنا أنا تحملنا بقليتنا هُرّاباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم. قالت فائتمروا امراً ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء وتمثلت.

ولو أن قومي طاوعتني سُراتُهم لأنفذتهم من الحبال أو الخيل[1]

وانطلق القوم إلى حفصة، فقالت: رأي تبعٌ لرأي عائشة[2].

وبدأوا بتنفيذ الخُطة. حتى إذا لم يبق إلاّ الخروج قالوا: كيف نستقل وليس معنا مالٌ نجهز به الناس! فقال يعلى بن أُمية: معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها، وقال ابن عامر معي كذا وكذا فتجهزوا به[3].

وبعد أن تجهزوا واكتملت الاستعدادات بدأ الإعلان عن الحركة بهذه الكيفية أعلن المُنادي: إن أُمَّ المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يُريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان، ومن لم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهازٌ وهذه نفقة[4].

وهل هناك اغراءٌ أكثر من هذا الاغراء؟؟.

وظنّ القائمون بحركة التمرد أنهم بهذا القدر قد اتموا عناصر الثورة على علي، وعناصر الثورة هي، رجالٌ وقادة متمرسون في الحروب كالزبير وطلحة وشرعية تضيفها عليهم مشاركة زوجة النبي ﷺ ومالٌ كثير رصده لهم عبد الله بن عامر ويعلى بن أمية. اكتملت هذه العناصر التي تُشكل بمجموعها أهم عناصر النصر. لكن خفي شيء هام عن هؤلاء. أنهم بهذه العناصر يريدون إعلان الحرب على الشرعية.

فقد كانت الشرعية مع علي عليه السلام. لقد انتخبهُ كل الناس بما فيهم طلحة

---

(١) الفتنة وقعة الجمل ص١١٣ ـ ١١٤

(٢) المصدر نفسه ص١١٤.

(٣) المصدر نفسه ص١١٤.

(٤) المصدر نفسه ص١١٤.

والزبير وعليّ والكل يعرف أنه الأحق بالخلافة من جميع الذين عارضوه.

لقد غاب عنهم ان علياً وحتى لو لم يكن قادراً على مواجهتهم فإنه يمتلك الشرعية وهي أمضى سلاح في المواجهة.

ومن السذاجة حقاً أن يفكر الإنسان أنه يستطيع بالمال والرجال وشرعية مزيفة أن يُصارع الحق وينتصر عليه.

وكان الأول أن يتأمل القائمون على حركة التمرد تاريخ الإسلام القريب، ويقفوا ملياً عند معارك رسول الله ﷺ كيف انتصر الرسول ﷺ بالرغم من قلة العدة والعدد.

والزبير هو الفارس الذي لم يترك معركة خاضها رسول الله ﷺ إلا واشترك فيها. وما كان لينسى تلك العوامل التي صنعت النصر.

لم يكن المال ولا الرجال ولا شيء آخر بقادر أن يغيّر معادلة النصر التي كانت دائماً لصالح رسول الله ﷺ لأنه كان يدافع عن الحق.

وكانت القضية برمتها تستدعي لحظة واحدة. لحظة واحدة يختلي فيها قادة التمرد إلى أنفسهم ثم يستنطقون ضمائرهم، لما كانوا قد فعلوا ما فعلوا فثمة أمور كثيرة كانت ستتكشف لهم في تلك اللحظة التي يتأملون فيها واقعهم ويستعرضون فيها تأريخهم وتأريخ الإسلام وعلاقتهم بعلي وعلاقة علي بالإسلام.

سيتذكرون ان علياً هو أول المسلمين. وأنه أقرب الناس إلى النبي ﷺ وسيتذكروا تفانيه من أجل الإسلام. فهل يصلح رفع السلاح بوجهه بعد كل الذي عرفوه عنه؟.

وسيتذكرون مواقفهم السابقة من علي عليه السلام كيوم السقيفة عندما أحسوا بوجود مؤامرات كبرى لسحب البساط من تحت أقدام علي عليه السلام وهو مشغولٌ بتغسيل النبي ﷺ فكيف يصح لهم أن يفعلوا ما فعله غيرهم في

السقيفة؟ وما الذي تغيّر حتى غيروا مواقفهم؟ أما سمعوا من عليّ كلماته الأولى. أما رأوه وهو يفرُّ من الناس الذين جاؤوا للبيعة؟ فعلي عليه السلام هو نفسه لم يتغيّر. فمن الذي تغيّر إذاً؟ ثم إنهم في لحظة المحاسة مع النفس سيتذكروا مواقفهم السابقة وأنهم حاربوا من أجل تقوية الإسلام فهل من الحكمة أن يعلنوا الحرب على المسلمين ليضعف الإسلام؟.

ثم هل يصح لهم أن ينكثوا بيعة في أعناقهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام بهذهِ الطريقة وبهذه السرعة.

كان (الجمع) بحاجة إلى لحظات ربانية يقفوا فيها من أنفسهم موقف المعاتب لها والمحاسب لما اقترفته من شطحات لا تغتفر بسهولة.

لكن لحظة واحدة من حب السلطة أو الشهرة تقلب الإنسان على عقب لأنها تحجب قلبه عن التفكير وعينه عن النظر وأذنه عن السمع فلا يدري ما يفعل وما يقول.

إن لحظة واحدة من لحظات الدنيا سادت القوم وملكتهم فجعلتهم في الصف المعادي لأمير المؤمنين عليه السلام.

وكان الإمام يفهم كل شيء ويعرف أنها دوافع دنيوية تدفع بهؤلاء وتشجعهم على حربه ويدرك أنها لحظة من لحظات الهوى سيطرت على القوم. والإنسان ضعيف والدنيا دار اختبار وهو إمامٌ ورجل هداية فكان أن ينظر إليهم نظرة رحيمة ملؤها الشفقة والعطف.

وهكذا كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. لم يندفع لقتالهم وهو يعلم بقوته العسكرية ويعرف بضعفهم وأنهم مبادون في أول جولة.

وبالرغم من أنهم جاؤوا إلى قتاله وأعلنوا الحرب عليه. فكان باستطاعته أن لا يمهلهم لحظة واحدة بل يُقرر سحقهم عن بكرة أبيهم. لكنه لم يفعل ذلك لأنه لم يكن حاكماً فقط بل كان إماماً أيضاً.

فالحكم مسؤولية دينية تستوجب المحافظة على أبدان الناس، والإمامة مسؤولية دينية تستوجب المحافظة على أبواح الناس وأبدانهم.

من هنا كان الإمام إماماً وحاكماً وبهذه المسؤولية تعامل مع هؤلاء الذين قاموا ضده وأعلنوا الحرب ضد دولته لقد وجد الإمام نفسه أنه يواجه لحظة ضعف يتعرض إليها كل إنسان. فكان من مسؤوليته أن ينتشل تلك النفوس من ضعفها وأن يقومها بالنصيحة قبل السيف.

يذكر المؤرخون:

فلما تراءى الجمعان، خرج الزُبير وخرج طلحة، فخرج إليهما علي حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال علي:

لعمري قد اعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عن الله عُذراً فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ألم أكن أخاكُما في دينكما تحرّمان دمي وأحرّم دمكما.

فهل من حدثٍ أُحِلَّ لكما دميّ.

قال طلحة: ألبتّ على عثمان.

يا لها من مغالطة. أنظروا إلى أي مدى يندفع الإنسان نحو السقوط عندما يملكه الهوى. وهذا هو العمل السياسي المجرد من الأخلاق والمبادىء والذي يبيح لنفسه الكذب والاتهام فالغاية تبرر الواسطة.

ماذا كان جواب أمير المؤمنين على هذه المغالطة. لقد اكتفى بهذا الجواب قال علي: يومئذ يُوفيهم الله دينهمُ الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان (يعني إن الناس يعرفون من الذي قتل عثمان وطلحة واحدٌ منهم) يا طلحة أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقابل بها وخبأت عرسك في البيت أما بايعتني؟.

ثم التفت إلى الزبير وقال له: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت ولا أراك

لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا فأجابه الإمام: ألستُ أهلاً بعد عثمان. قد كنا نعدُك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وذكره أشياء.

وفي وسط المعركة وبأعصاب هادئة أخذ يسرد للزبير ذكريات عمرها أكثر من ثلاثين عاماً لعلها غابت عن ذاكرته.

تذكُرْ يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه فقلت له لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ ليس به زهو، لتقاتلنه وأنت ظالم له، قال اللهم نعم، ولو ذكرت، سرت مسيري هذا والله لا اقاتلك أبداً وكادت أن تأتي هذه النصيحة أُكلها وتُغيّر سير المعركة إلا أن المتآمر الصغير عبد الله بن الزبير تلصص من جديد ووقف قبال صوت العقل والضمير، فخاطب أباه بمنطق العصبية الجاهلية.

لكنك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتيةٌ أنجاد وإن تحتها الموت الأحمر فجبنت.. وما زالَ يُثير فيه الحماس حتى ردّه[1].

ولا شك أن النفوس التي جاءت إلى حرب علي بن أبي طالب في يوم الجمل كانت متزعزعة لسبب واضح هو يقينها أنها ليست على حق في دعاواها وإن غطت أعينها الانفعالات والأطماع والأهواء لكنها لم تستطع أن تطمس كل الحقيقة.

وكانت العلامات تتراءى أمام أعينها مضيفة شكاً آخر إلى شكلها.

قال العُرني بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لي ركب فقال أتبيع جملك، قلتُ نعم، قال: بكم قلت بألف درهم. قال أمجنون أنت، قلتُ ولمَ، والله ما طلبتُ عليه أحداً إلاّ أدركته ولا طلبني وأنا عليه أحدٌ إلا فُتّه

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٤١.

قال: لو تعلم لمن نريده إنما نريده لأم المؤمنين عائشة فقلت خذه بغير ثمن. قال: بل ترجع معنا إلى الرجل فنعطيك ناقة ودراهم. قال: فرجعتُ معهُ فأعطوني ناقة مهرية واربعمائة درهم أو ستمائة وقالوا لي يا أخا عُرينة هل لك دلالة بالطريق؟ قلتُ: أنا من أدلّ الناس، قالوا فسر معنا، فسرتُ معهم فلا أمر على واد إلا سألوني عنه، حتى طرقنا الحوأب وهو ماء فنبحتنا كلابه، فقالوا: أي ماء هذا؟ قلتُ هذا ماء الحوأب. فصرخت عائشة بأعلى صوتها وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون. إني لهي، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه «ليت شعري أيتكن تنبحها كلابُ الحوأب. فأناخوا حولها يوماً وليلة» فقال لها عبد الله بن الزُبير إنه كذب[1].

ومرة أخرى الغاية تبرر الواسطة (إنه كُذِبْ) فلم تصدق عائشة كلام ابن الزبير فجاء لها بخمسين شاهداً شهدوا بأن المكان ليس ماء الحوأب.

وهنا خشي عبد الله أن تنتشر مقالة عائشة بين أفراد الجيش فتتزعزع معنوياتهم فينفلت الزمام من أيديهم. فما كان منه إلاّ ورفع صوته.. النجاة النجاة قد أدرككم علي بن أبي طالب فارتحلوا نحو البصرة[2] وبهذهِ الحيلة استطاع عبد الله أن يغيّر مسار الوضع داخل الجيش فنجح في خطته لكن بقي في نفس عائشة أنها موعودة من زمن رسول الله ﷺ بهذا الموقف الخاطىء ومما زاد في زعزعة موقفها، الكلام الصريح الذي ما انفكت وهي تسمعه من الناصحين لها فهذا جارية بن قُدامة السعدي جاءها بعد أن خطبت خطبتها التي دافعت فيها عن عثمان وطالبت الأخذ بثأره، قال لها بأدب بالغ.

يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على الجمل الملعون عرضة للسلاح إنه قد كان لك من الله سترٌ وحرمة فهتكت

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢١٠.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢١٠.

ستترك وابحث حرمتك إنه من رأى قتالك يرى قتلك لئن كنت اتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت أتيتنا مُكرهة فاستعيني بالناس.

ولم تكن مجابهة طلحة والزبير للمعارضة العنيفة داخل قواتها بأقل من مجابهة أم المؤمنين عائشة فيذكر ابن الأثير.

وخرج غلامٌ شاب من بني سعد إلى طلحة والزُبير فقال أما أنت يا زبير فحواريُّ رسول الله ﷺ وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك وأرى امكما معكما فهل جئتما بنسائكما قالا: لا. قال: فما أنا منكم في شيء واعتزل[1].

وقضية أُخرى يذكرها ابن الأثير أيضاً تكشف عن الحالة المعنوية داخل معسكر الجمل.

يُذكر أن عائشة كتبت إلى زياد بن صوحان أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا فإن لم تفعل فخذّل الناس عن علي.

فكتب إليها. أما بعد فأنا ابنك الخالص، لئن اعتزلتِ ورجعتِ إلى بيتك وإلاّ فأنا أول من نابذك[2].

مما تقدم نستدل بأنّ حركة المعارضة في داخل معسكر الجمل، كانت حركة صادقة لأنها كانت طبيعية قائمة على المنطق ويقرّ بها كل صاحب عقل.

وقد زاد من قوة هذه الحركة أخطاء قادة التمرد ومحاولاتهم اليائسة في التستر على الحقيقة وموقفهم الرخيص من عثمان بن حنيف والي البصرة فقد فعلوا به ما فعلوا بعد أن أعطوه الأمان فلم يكونوا صادقين ويذكر أن حكيم بن جبلة عندما بلغهُ ما صُنع بعثمان بن حنيف، قال: لستُ أخاف الله

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢١٤.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢١٦.

إن لم أنصره فجاء في جماعة من عبد القيس ومن تبعه من ربيعة وتوجه نحو دار الرزق وبها طعام أراد عبد الله بن الزبير أن يرزقه أصحابه، فقال له عبد الله ما لك يا حكيم قال: نريد أن نرتزق من هذا الطعام وأن تخلّوا عثمان فيُقيم في دار الأمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليّ، وأيمّ الله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيتُ بهذه منكم حتى أقتلكمُ بمن قتلتمُ، ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتمُ، أما تخافون الله؟ بم تستحلوا الدم الحرام؟ قال بدم عثمان. قال فالذي قتلتم هم قتلة عثمان! أما تخافون مقت الله، فقال له عبد الله لا نرزقكم في هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان حتى تخلع علياً فقال حكيم:

اللهم إنك حكم عدل فاشهد وقال لأصحابه لستُ في شك من قتال هؤلاء القوم[1] وليست هذه هي المرة الأولى التي يفتقر فيها ابن الزبير إلى الحجة، فلا يرى جواباً إلا التوسل بأساليب التعنت والقوة. وقد خسر معسكر الجمل الكثير من الأنصار، والكثير ممن سيقف إلى جانبهم لأنهم لم يقفوا في صراعهم مع علي موقفاً سليماً ولم تكن لهم أية حجة أو بينة يحتجّون بها أمام المؤيدين أو المجاهدين. أما الذين أيدوهم فكان بسبب الطمع أو الخوف أو الجهل، بدليل أنهم لم يجدوا فرداً واحداً يُحبّذ الإقدام نحو قتال علي عليه السلام بعد أن صفت الأمور لصالحهم في البصرة.

فيذكر ابن الأثير بايع أهل البصرة طلحة والزُبير فلما بايعوها قال الزُبير: إلا ألف فارس أسير بهم إلى علي أقتله بياتاً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا، فلم يجبه أحد فقال إن هذهِ للفتنة التي كنا نُحدث عنها فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها: قال ويلك إنّا نبصرُ ولا تُبصِر ما كان أمر قط إلاّ وأنا أعلم موضع قدمي فيه غير هذا الأمر فإني لا أدري أمقبلٌ أنا فيه أم مُدبر[2].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢١٨

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٢٠. الطبري ج٤، ص٤٧٥ ـ ٤٧٦.

مقومات الاعلام في معسكر الجمل

وأمام هذه الشكوك كان لا بد من خطوة إعلامية سريعة لإعادة المعنويات وتقويتها فالجيش الذي بلا معنويات كجسدٍ بلا روح.

وقفت عائشة وتكلمت.

وكانت جهورية الصوت، فحمدت الله وقالت: كان الناس يتجنّون على عثمان ويُزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستثيروننا فيما يخبروننا عنهم. فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً، ونجدهم فَجَرة غَدَرة كَذَبة وهم يحاولون غير ما يُظهرون فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عُذر. إلا ان مما ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله، وقرأت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ويلاحظ في هذه الخطبة التي تُشكِّل خطاباً سياسياً لمعسكر الجمل أنها تتناقض ووقائع الأحداث. فليس هناك في المدينة من لا يدري بمواقف عائشة وتحريضها المستمر ضد الخليفة عثمان.

فقد لقيها وهي خارجة من مكة عبيد بن أبي سلمة وهو أحد أخوالها، فقالت له: مهيم قال: قُتِلَ عثمان وبقوا ثمانياً، قالت ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعة علي فقال: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر

لصاحبك! ردوني، ردوني، ردوني فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه فقال لها: ولَم؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنتِ. ولقد كنت تقولين: أقتلوا نعثلاً فقد كفر.

قالت انهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلتُ وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب.

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنكِ الرياحُ ومنك المطر
وأنت أمرتِ بقتل الإمامِ ... وقُلت لنا إنّهُ قد كفر
فهَبنا أطعناكِ في قتله ... وقاتلهُ عندنا من أمَر[1].

فكيف تستطيع السيدة عائشة وهي بهذا الماضي أن تتهم الإمام علي بأنه السبب في قتل الخليفة وكل المسلمين يشهدُون بالمواقف النبيلة التي وقفها الإمام علي إزاء الخليفة عثمان ودفاعه المستميت عنه وارساله ابنيه الحسن والحسين إلى بيت الخليفة لمنع الثائرين من الهجوم عليه وانقسم الناس إزاء خطاب السيدة عائشة.

فرقةٌ قالت صَدَقت وبرت وقال الآخرون كذبتُم والله ما نعرف ما جئتم به[2].

وبعد استعراض الخطب والمواقف في مُعسكر الجمل يمكننا أن نسجل بعض النقاط الهامة في نهاية الحديث.

١ ـ إن معسكر الجمل كان يُمثل حركة تمرد على الشرعيّة وهذه حقيقة ملموسة من الخطب والمقولات والمحاورات التي تمت على هامش المعركة والتي تقدّم الحديث حولها.

٢ ـ لم يعط قادة هذا المعسكر أيّ مبرر شرعي أو عقلي لمعركتهم ولم

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص١٧٤.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص١٧٤ الطبري ج٤، ص٤٦٤.

تستطع الخُطب والاحتجاجات أن تفي بالغرض الأمر الذي أدى إلى هبوط في المعنويات.

٣ ـ مهندس حركة التمرد هو عبد الله بن الزُبير وعمره بومذاك ٣٦ عاماً وكان يدفعه إلى التخطيط والمثابرة في تنفيذ خطة الحرب طموحه الكبيرة. وآماله الواسعة في الخلافة.

فكان يدفع بالأوضاع وبالظروف إلى التفجير. وكنت تجده خلف كواليس الحرب في كل عقدة مستعصية، كان يعمل بهمة وبنشاطٍ كبير في تسعير الوضع لصالح الحرب في كل موقف يستدعي السلام وكان إلى جانب عبد الله بن الزبير هناك شخص متآمر آخر هو مروان بن الحكم يدفعهُ إلى المشاركة في الحرب مصالحه الشخصية وحبه لأن يصبح له نصيب في الخلافة. ليس المهم مع من يكون. بل المهم أن يكون في المكان المناسب حيث يستطيع أن يلعب دوراً في التآمر. وكان يتآمر أيضاً على قائدا التمرد طلحة والزبير عندما وقف بينهما ليقول على أيكم اسلم بالأمرة وأُذّن بالصلاة.

ومروان هذا كان يخطط لإعادة الخلافة إلى بني أُمية فكان يقول: فلا أراني أسعى إلاّ لإخراجها من بين عبد مناف. وقد وجد في حركة الزبير وطلحة الفرصة الذهبية لتنفيذ مآربه ومطامعه الشخصية. لقد واصل مروان الدور الذي لعبه في عهد الخليفة عثمان وثابر على خطته حتى استطاع أن يتسلق على سلم الخلافة بعد أقل من ربع قرن.

ماذا في جبهة الإمام علي عليه السلام؟

وإذا أردنا أن نُحلل الرجال والمواقف في معسكر علي عليه السلام لسجلنا هذه النقاط.

١ ـ كان في معسكر الإمام علي عليه السلام من الرجال من يحمل اشارة واضحة من رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه على حق وإنّ وجوده في أية جبهة يكفي للدلالة على أن تلك الجبهة على حق، من هؤلاء عمار بن ياسر الذي قال فيه رسول الله يا عمار تقتلك الفئة الباغية[1] وذكر ابن الأثير أن الزُبير عاد عن القتال لما سمع أن عمار بن ياسر مع علي فخاف أن يُقتل عماراً فيكون أصحابه هم الفئة الباغية.

٢ ـ قناعة أصحاب علي عليه السلام بأنهم على حق، على عكس أصحاب الجمل حيث كانت قناعاتهم تمزعزعة كما مرّ سلفاً في الحوار الذي دار بين الزبير ومولاه.

إسمعوا إلى أبي قتادة الأنصاري وهو يقول لعلي: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وآله قلدني هذا السيف وقد أغمدتهُ زماناً وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لا يألون الأمة غَشّاً وقد أحببتُ أن تُقدمني فقدمني[2].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٤١.

(٢) الطبري ج٤، ص٤٥١ الكامل ج٣، ص٢٢١ وأبو قتادة الأنصاري والمشهور اسمه الحارث من أصحاب الرسول ذكره ابن حجر في الإصابة في المجلد ٤، ص١٥٥ شهد مع رسول الله معركة أحد واختلف في اشتراكه في معركة بدر وقيل إنه حرس النبي يوم بدر فقال فيه رسول الله اللهم احفظ أبا قتادة كما حفظ نبيك هذه الليلة، وكان قد شهد مع الإمام علي مشاهده مات بالكوفة وعلي بها سنة ٣٨ (الإصابة في تمييز الصحابة ج٤، ص١٥٥ ـ ١٥٦).

واسمعوا إلى أم سلمة وهي تقول يا أمير المؤمنين لولا أن أعصي الله وانك لا تقبله مني لخرجتُ معك وهذا ابن عمي وهو أعزّ علي من نفسي يخرج معك ويشهد مشاهدك[1].

٣ ـ أُشبعت حرب الجمل بخطبٍ كثيرة للإمام أمير المؤمنين، فعندما يطمئن القائد من مواقفه الحقة يجدُ في لسانه القوة حتى يقول للناس الحقيقة كما هي وبكل وضوح.

فهذا عليّ مقاتلٌ بالسيف ومحاربٌ باللسان.

فلسانه وسيفه لا يتحركان إلا من مكان واحد ولا يأتمران إلا من قلب واحد مُلأ بالبطولة والثقة العالية بالنفس.

كان يُردد دائماً هذه العبارة.

رَحِمَ الله رَجُلاً رأى حقاً فأعان عليه أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه[2] وكان يترك للناس تشخيص الحق ويعينهم في بعض الأحيان. فهناك من يجهل الحقيقة أو يجهل جزءاً منها.

كتب إلى أهل الكوفة.

أما بعدُ فإني أُخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه إن الناس طعنوا عليه. فكُنتُ رجُلاً من المهاجرين أُكثِرُ استعتابَهُ وأُقِلُ عتابَهُ. وكان طلحة والزُبير أهونُ سيرهما فيهِ الوجيف وارفقُ حِدائهِما العنيفُ، وكان من عائشة فيه ملتهُ غضب فأتيح له قومٌ فقتلوهُ.

بهذه الدقة يضع الإمام النقاط على الحروف.

وعن مطالبتهم بدم عثمان يقول الإمام:

وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوهُ، ودماً هم سفكوه، فلئن كنتُ شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبُهم منه، ولئن كانوا وَلوهُ دوني فما التبعةُ إلاّ عندهم، وإنّ

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٢١.

(٢) الدليل ص٥٥٢.

أعظم حجتهم لعلى أنفسهم يرتضعون أُمّاً قد فطمت ويحيون بدعةً قد أُميتت، يا خيبة الداعي، مَن دَعَا، وإلامَ أُجيب وإني لراضٍ بحجة الله عليهم وعِلمِهِ فيهم[1] هكذا الإعلام الرصين الذي يستند إلى أرضية قوية وإلى إيمان راسخ بأن الله هو العون وهو السند.

وأمير المؤمنين عليه السلام لا يُوكل الأمر إلى عقول الناس وحسب بل يحاول أن يساعدهم على التفكير فيجلس مع الناس يحلل الأمور ويضع الاحتمالات ويبني النتائج، فعندما بلغهُ خروج طلحة والزبير وقف بين أصحابه ليقول لهم.

قد كُنتُ وما أُهدَّد بالحرب ولا أرهبُ بالضرب وأنا على ما قد وعدني ربي من النصر والله ما أستعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يُطالب بدمه لأنه مظنتُه ولم يكن في القوم أحرصُ عليه منه، فأراد أن يُغالِطَ بما أجلبَ فيه ليلتبسَ الأمر. ويقعَ الشك ووالله ما صَنعَ في أمر عُثمانَ واحدة من ثلاثةٍ لئن كان ابنُ عفان ظالماً. كما كان يزعمُ لقد كان ينبغي له أن يؤازِرَ قاتليه وأن يُنابذ ناصريه ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون مِن المنهنهين عنه والمُعذِّرين فيه، ولئن كانَ في شك من الخصلتين، لقد كان ينبغي له أن يعتزلهُ ويركدُ جانباً ويدع الناس معه فما فعل واحدةً من الثلاث وجاء بأمرٍ لم يُعرف بابُهُ ولم تسلم معاذيرُهُ[2].

فأين هذا المنطق عن منطق الزبير، فإني لا أدري أمقبلٌ أنا فيه أم مُدبر فالفرق بين المقاتلين هو الفرق بين الحق والباطل فعليّ الذي يقف إلى جانب الحق له قوة في المنطق ورصانة في الخطاب بينما الذي يقف إلى جانب الباطل مهما كان بليغاً فإن منطقه سيكون واهياً متذبذباً لا يكاد يقف على قدمه لحظة واحدة وكان للإعلام دوراً هاماً في تعبئة الطاقات الخيرة نحو مواجهة حركة التمرد.

---

(١) الدليل ص٥٤٥.

(٢) الدليل ص٥٣٩.

السياسة السلمية في مواجهة حركة التمرد

ذكرنا فيما سبق أن الإمام علي عليه السلام عالج حركة التمرد معالجة تربوية وكأنه أب يتعامل مع أبنائه الأشقياء. فهو لم يتعامل على أساس كونه حاكم يرى أن من واجبه تهدئة الأوضاع بالقوة. فهو لا يخاف على شيء يخسره. فالحكم لا رغبة له فيه إلاّ إذا كان وسيلة لاحقاق الحق وابطال الباطل. كما وأنه وافق على المسؤولية لأنها ستمنحه فرصة لتصحيح الأخطاء وتوجيه الناس إلى ما فيه الخير والصلاح.

فعلي عليه السلام ليس متلهفاً للحكم فلو كان كذلك لواجه المتمردين بقوة السلاح من أول لحظة حتى لا يستشري وجودهم ويطغى.

لقد أراد الإمام عليه السلام الحكم من أجل إعادة المبادىء إلى مواقعها من المسيرة الإسلامية وعلى هذا الأساس المتين قامت سياسة الإمام. فقد استندت إلى ثلاثة مبادىء.

المبدأ الأول: تقديم النصح

ما انفك الإمام وهو يُقدم النصيحة تلو النصيحة.

تحدّث معه بمنطق الأخ وهو يومذاك حاكم على بلاد المسلمين.

ألم أكن أخاكم في دينكما تحرّمان دمي وأحرم دمكما.

وكان يخاطب الزُبير وأنت يا زبير فارس قُريش، ويخاطب طلحة: وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا منه كان أوسع لكما من خروجكما بعد إقراركما به[1].

ثم يفتح قلبه لهما ويذرفُ منه آهات الحسرة يا ليتهم فهموا معانيها.

لقد نقمنا يسيراً وارجأتما كثيراً ألا تُخبراني، أيُّ شيء كان لكما فيه حق دفعتكُما عنه، أم أيُّ قسم استأثرتُ عليكما به، أم أيُّ حق رفعُه إليّ أحدٌ من المسلمين ضَعفتُ عنه أم جهلتُه، أم أخطأتُ بابهُ. والله ما كانت لي في الخلافة رغبةٌ، ولا في الولاية أربعةٌ ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ نظرتُ إلى كتاب الله وما وَضَعَ لنا وأَمَرنا بالحُكم به فاتبعته وما استنَّ النبيﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حُكمٌ جهلته فأستشيرَكُما وإخواني من المسلمين[2] وكتب إلى عائشة، أما بعد فإنك خرجت من بيتك عاصية لله تعالى ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ثم تزعمين أنك تُريدين الاصلاح بين الناس فخبريني ما للنساء وقود العساكر؟ وزعمت أنك طالبة بدم عثمان وعثمان رجلٌ من بني أُمية وأنت امرأة من بين تيم بن مرة ولعمري إن الذي عرَّضك للبلاد وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان وما غضبت حتى أُغضبت ولا هجت حتى هيجت فاتقي الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك واسبلي عليك سترك والسلام.

فجاء الجواب إليه: يابن ابي طالب جلّ الأمر عن العتاب ولن ندخل في طاعتك أبداً فأقضِ ما أنت قاضٍ والسلام[3].

ولم يكتف الإمام بنفسه في تقديم النصيحة بل كان يُرسل ممثلين من

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص٢٢٦.

(٢) الدليل ص٥٥١.

(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١٢٧.

قبله ليؤدوا عنه النصيحة كل ذلك حقناً لدماء المسلمين.

أرسل عبد الله بن عباس وقال له: لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه. ويبدو أنه كان يائساً من التأثير عليه.

ولكن القَ الزُبير فإنه ألين عريكة فقُل له يقولُ لك ابن خالِكَ عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا مما بدا.

وقد ذكرنا في فصول سابقة نصيحة جارية بن قُدامة السعدي لأم المؤمنين عائشة ونصيحة غلام شاب من بني سعد لطلحة والزُبير.

ونصيحة عُمران وأبو الأسود لطلحة ومن بعد ذلك للزُبير. لكن دون أية نتيجة، فقد كان الإصرار على القتال هو القرار الحاسم الذي تمسّك به أصحاب الجمل معتقدين بأن الحرب وحدها هي الضمان لتحقيق أهدافهم.

المبدأ الثاني: التحاور

قامت سياسة الإمام علي عليه السلام على النضال من أجل تحويل الصراع من مواجهة عسكرية إلى مواجهة سياسية عبر الحوار والنقاش البناء تجنباً لاراقة الدماء.

وقد أجرى أمير المؤمنين حواراً مطولاً مع طلحة والزُبير بصورة مباشرة وجهاً لوجه كما مرّ ذكره وعبر وسائط وقد ذكر المجلسي نص الحوار المطوّل الذي دار بين الإمام وطلحة والزُبير عبر أحد المؤيدين لأصحاب الجمل اسمهُ خداش[1] وفي نهاية الحوار اكتشف خداش أن الحق مع الإمام فلان قلبه وأذعنَ للحق ثم قال للإمام، والله ما رأيتُ لحية قط أبين خطأً منك حامل حجة ينقض بعضها بعضاً لم يجعل الله لها سُمكاً أنا أبرأ إلى الله منها ثم قال له الإمام:

---

(١) لا مجال لذكر الحوار لأنه مطول ومذكور في الجزء ٣٢ من بحار الأنوار على الصفحة ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠.

إرجع إليهما واعلمهما ما قلت، قال لا والله حتى نسأل الله أن يردني إليك عاجلاً وأن يوفقني لرضاه فيك ففعل فلم يلبث أن انصرف وقُتل معه يوم الجمل[1] وأكثر الإمام من محاججة أم المؤمنين عائشة حتى اعترفت لابن عباس قائلة، لا طاقة لي بحجج عليّ فقال ابن عباس: لا طاقة لك بحجج المخلوق فكيف طاقتك بحجج الخالق[2].

وتعمّد الإمام في إرسال بعض أصحابه كزيد بن صوحان وعبد الله بن عباس للمحاججة والحوار ليدع الأمور تجري وفق طبيعتها دون أن تؤثر هيبته على الحوار فقد كان صادقاً في حواراته لا يبتغي منها كسب الوقت ولا المناورة السياسية كما هي اليوم أكثر الحوارات السياسية الدولية.

المبدأ الثالث: المصالحة

رفع الإمام ومنذُ الوهلة الأولى شعار المصالحة وتجنب الحرب، فلما أراد المسير من الربذة إلى البصرة، قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تُريد وأين تذهب بنا فقال أما الذي نُريد وننوي فالصلاح أن قبلوا منا وأجابونا إليه.

قال: فإن لم يجيبونا إليه؟ قال ندعهم بعُذرهم ونعطيهم الحق ونصبر، قال: فإن لم يرضوا قال ندعهم ما تركونا قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا عنهم قال: فنعم إذن[3].

كم هو صبرٌ طويل صبر ابن أبي طالب!! بعد أن قدم النصيحة.. ثم تحاور معهم واحداً واحداً وبعد أن أقروا بالخطأ ثم اصروا على القتال.

بعد كل ذلك، نجد ابن أبي طالب متفائلاً. علّهم يذعنون للحق. أو على الأقل يتركون ساحة الحرب. لقد وضع نصب عينيه مهمة تجنب

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ج٣٢، ص١٢٢.

(٣) الطبري ج٤، ص٤٧٩ الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٢٤.

الحرب وسفك الدماء مهما كانت الوسيلة حتى لو كانوا مصرين عليها ويستحقونها.

وهو لم يقف هذا الموقف خوفاً من النِزال والطعان فهو إبن المعارك ورجل الحرب. فتلك بدر وأحد والخندق شاهدةٌ على بطولاته. لكن اليوم أصبح إماماً. والإمامة هي الرعاية والشفقة والنظرة الإيجابية إلى الناس حتى للمخالفين والمنحرفين.

فكان مبدأه السلام والحرب هي آخر الكيّ.

والدليل على ذلك يقدمه الإمام بشكل عملي فقد جاءه الأحنف بن قيس وهو زعيم من زعماء البصرة قال له الأحنف: اختر مني واحدة من اثنتين إما أن أقاتل معك وإما أن أكشف عنك عشرة آلاف سيف قال: فكيف بما أعطيتَ أصحابك من الاعتزال؟ قال إن من الوفاء لله قتالهم (وكان قد وعد أصحاب الجمل الكف عن الحرب).

فقال له الإمام، فاكفف عنا عشرة آلاف سيف[1].

وهذه سياسة ثابتة لأمير المؤمنين فقد حاول نزع فتيل الحرب حتى آخر لحظة، وحاول أن لا يكون البادي بالقتال.

ولتهدئة الأوضاع أخذ مصحفاً وطلب من يقرأهُ عنهم. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ (الآية) فقال مسلم المجاشعي ها أنا ذا فخوفه بقطع يمينه وشماله وقتله فقال لا عليك يا أمير المؤمنين فهذا قليل في ذات الله، فأخذه ودعاهم إلى الله فقطعت يده اليمنى فأخذه بيده اليُسرى فقطعت فأخذه بأسنانه فقُتِلَ[2].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٣٩ والأحنف بن قيس (ت٧٢هـ/ ٦٩١م) دُعي بالأحنف لالتواء رجليه، ولد في البصرة وأصبح سيد بني تميم فيها وصفه الجاحظ في كتابه (البيان) حثّ بني تميم على اعتناق الإسلام، وقف موقفاً محايداً في معركة الجمل وانضم إلى صف عليّ في صفين اشترك في الحملة على المختار توفي بالكوفة.

(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

ويذكر المجلسي عن حبة العرني قال سمعتُ حذيفة اليماني يقول: لما كان يوم الجمل وبرز الناس بعضهم لبعض نادى منادي أمير المؤمنين عليه السلام: لا يبدأن أحدٌ منكم بقتال حتى آمركم.

قال: فرموا فينا فقلنا: يا أمير المؤمنين قد رمينا فقال كفّوا ثم رمونا فقتلوا منا، قلنا يا أمير المؤمنين قد قتلونا، فقال: احملوا على بركة الله، قال: فحملنا عليهم فأنشب بعضنا في بعض الرماح حتى لو مشى ماشٍ لمشى عليها ثم نادى مُنادي علي عليه السلام عليكم بالسيوف فجعلنا نضرب بها البيض فثنوا لنا، قال فنادى مُنادي أمير المؤمنين عليكم بالأقدام قال فما رأينا يوماً كان أكثر قطع أقدام منه، قال ثم نادى منادي أمير المؤمنين عليكم بالبعير فإنه شيطان قال: فعقره رجلٌ برمحه وقطع احدى يديه رجلٌ آخر فبرك ورغا وصاحت عائشة صيحة شديدة فولى الناس منهزمين فنادى مُنادي أمير المؤمنين عليه السلام لا تجيزوا على جريح ولا تبتغوا مُدبراً ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن[1].

وعندما لم يجد الإمام بُداً من القتال عَمِلَ على إنهاء الحرب بأسرع وقت وبأقل الضحايا فوضع خُطة قتالية لتحقيق هذا الهدف السامي.

الخطوة الأولى عليكم بالسيوف.

الخطوة الثانية عليكم بالأقدام.

الخطوة الثالثة عليكم بالبعير.

ولولا هذهِ الخطة الحكيمة لطالت الحرب أياماً وأسابيع ولكثر عدد ضحاياها لأكثر من العدد الفعلي.

فهذا علي رجلُ السلام حتى في الحرب رجل الرحمة حتى في لحظة تشابك السيوف والرماح عند قيام الحرب يقف أمير المؤمنين بين أصحابه

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

ليقول لهم إعلموا أيها الناس إني قد تأنيت هؤلاء القوم وراقبتهم وناشدتهم لكي يرجعوا ويرتدعوا فلم يفعلوا ولم يستجيبوا وقد بعثوا إليّ أن أبرز إلى الطعان وأثبت للجلاد وقد كنتُ وما أهدد بالحرب ولا أدعي إليها. وقد أنصف القارة من رامها منها فأنا أبو الحسن الذي فللتُ حدهم وفرّقت جماعتهم فبذلك القلب ألقى عدوي وأنا على بينة من ربي لما وعدني من النصر والظفر وإني لعلى غير شبهة من أمري. ثم يواصل ذكره للموت.

ألا وأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب ومن لم يقتل يمت فإن أفضل الموت القتل والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على فراش[1].

فالموت حقٌ. ولا فخر بعدد من يُقتل في الحرب.

صحيح أن أمير المؤمنين انتصر في معركة الجمل.. لكن نصره الكبير هو انتصاره لمبادئه انتصرت فيه الأخلاق، قبل أن تنتصر له السيوف والرماح إن أكبر انتصار لعلي إن اعداءه كانوا راضين عنه مع أنه هزمهم في المعركة إن أكبر انتصار لعلي عليه السلام هو هذا الموقف.

يسمع إثنان يتفوهان على عائشة قال أحدهما جُزيت عنا أُمنا عقوقاً. وقال الآخر يا أمي توبي فقد أخطأتِ فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب فأقبل بمن كان عليه فأهالوا على رجلين فقال أضرب أعناقهما ثم قال لأنهكنها عقوبة، فضربهما مائة مائة وأخرجهما من ثيابهما[2].

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٣٢، ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) الطبري ج٤، ص٥٤٠ ـ الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٥٧.

القائد المربي في الشدائد

لم ينس الإمام دوره في تربية الأمة في أشد الساعات حيث تتشابك ألسنة الرماح وتتطاحن السيوف.

لم ينس أن الإمامة تعني الهداية وهل تشمل القيادة الروحية والقيادة السياسية والإمام الذي يُريد تركيز قيم الحق في الأمة لا بد وأن يكون هو أول من يتمسك بها، ولا شيء يمرُّ بباله إذا كان ملتزماً بالحق حتى لو كان فيه مصلحة الحكم فهو يضحي بالكرسي من أجل أن يضع للحق قيمة.

فكم من مرة انبرى أحد أصحابه ليوجّه التهم والسباب إلى خصمه؟!

لو كان علي حاكماً همّه الكرسي لقرّب أولئك الذين ينالون من خصمه ولأجزل لهم العطاء مثلما يفعل اليوم بعض الحكام الذين يهبون الأموال والهدايا للصحفيين والسياسيين الذين يتبارون في مدحهم.

فهذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يأتيه الحارث بن حوط الزاني في يوم الجمل وهو في وسط المعركة فيقول: واجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل.

لو كان السامع لهذه الكلمة هو قائدٌ آخر غير الإمام علي عليه السلام لقدم للحارث نوط الشجاعة على عبارته تلك، فكل قائد بحاجة إلى عبارات من هذا القبيل لرفع معنويات جنوده. لكن علي عليه السلام نوعٌ آخر من القادة. قائد لا

يقول إلا الحق، ولا يسمع إلا الحق. ولا يسمح لأحدٍ أن يتجاوز الحق. أدار الإمام وجهه إلى الحارث وقال له:

يا حارثٌ إنه ملبوسٌ عليك، إن الحق والباطل لا يُعرفان بالناس ولكن إعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه[1].

فالإمام يبحث عن أية فرصة لكي يُربي الناس، فمع كل موقف هناك مبدأ أو قاعدة أعرف الحق تعرف أهله.

قاعدة ذهبية جديرة بالتأمل تُضاف إلى المنهج السياسي والتربوي للإمام ولم تكن لتخلّد هذهِ القاعدة لو لم يترجمها الإمام بصورة حرفية في سيرته الذاتية وفي تعامله مع الآخرين سواء أعدائه أو الموالين له.

---

(١) سارة حنفي جار الله سيرة الإمام ص٨٨.

في مواجهة معاوية

اختلف أرباب التاريخ والحديث والرجال حول معاوية بن أبي سفيان بين قادح ومادح وحتى نتفهم خلفية الصراع الذي دار بينه وبين الإمام علي وابعاد المواجهة العسكرية في صفين كان لا بد في البداية من تحديد الموقف من معاوية بن أبي سفيان.

ولنترك ما قيل وما تناقلته الألسن من روايات وأحاديث حول معاوية وهي تعجّ في الكُتب، ولنأخذ برأي من عاصره وعايشه معايشة المشاركة له في السلطة.

فهذهِ الآراء لحدٍّ ما تستطيع أن ترسم لنا ملامح هامة عن شخصية معاوية. وهي آراء يمكن الاعتماد عليها لأنها صادرة عن أناس لازموا معاوية في فترة من الزمن.

١ ـ رأي عمرو بن العاص

في أول لقاء عملٍ بين معاوية وعمرو بن العاص أخذ معاوية يضع اللمسات الأولى لاعلان الحرب على الإمام علي عليه السلام.

قال معاوية: نلزُمه دم عثمان.

فأجابه عمرو: واسوأتاه إنّ أحقّ الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت.

وقال معاوية: ولِمَ؟

فقال عمرو: أما أنت فخذَلتَه ومعك أهل الشام. واستغاثك فابطأت عليه، وأما أنا فتركتهُ عياناً ـ وهربتُ إلى فلسطين.

قال معاوية: دعني من هذا، هلم فبايعني، فقال عمرو: لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك، قال معاوية: صدقت، سلّ تُعط، قال عمرو: مصر طُعمة.

فغضب مروان بن الحكم، وقال: ما بالي لا أشتري فقال معاوية: أسكت يابن عمّ فإنما يشترى لك الرجال فكتب معاوية لعمرو مصر طعمة[1].

٢ ـ رأي عبد الله بن عمرو بن العاص

أرسل معاوية كتاباً إلى عمرو بن العاص يطلب منه أن يقدم إلى الشام ليكون معه في الحكم فاستشار عمرو ولده عبد الله، فأشار إليه عبد الله بما يلي: أقم في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعاً[2].

ويعني أنك لن تقبض من معاوية شيئاً يُذكر.. فهو سيعطيك القليل ويأخذ منك الكثير.

٣ ـ رأي سعد بن أبي وقاص ـ وكان على الحياد

بعث إليه معاوية برسالة جاء فيها.

أما بعدُ فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزُبير وهما شريكاك في الأمر

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص٩٦.

والشورى ونظيراك في الإسلام وخفت لذلك أم المؤمنين. فلا تكرهنّ ما رضوا، ولا تردنّ ما قبلوا، فإنما نردها شورى بين المسلمين.

فأجاب سعد بن أبي وقاص: أما بعدُ فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه غير أن علياً كان في السابقة ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدرته وقد علمنا أنه أحق بها منا ولكن لم يكن بدّ من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ـ والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين[1].

٤ ـ رأي محمد بن مسلمة

وكتب رسالة مماثلة إلى محمد بن مسلمة فأجابه في طلبه.

ولعمري يا معوية ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلاّ الهوى ولئن كنتُ نصرتَ عثمان ميتاً. لقد خذلته حياً[2].

٥ ـ رأي أبي الدرداء وابي هريرة

وذكروا أن أبا هريرة وأبا الدرداء قدما على معاوية من حمص وهو بصفين فوعظاه وقالا له: يا معاوية علام تقاتل علياً وهو أحقّ بهذا الأمر منك في الفضل والسابقة؟ لأنه رجلٌ من المهاجرين الأولين السابقين باحسن، وأنت طليق وأبوك من الأحزاب[3].

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٠٠.

(٢) المصدر نفسه ص١٠١.

(٣) المصدر نفسه ص١٠٨.

٦ ـ رأي المغيرة بن شعبة (وهو من قماش معاوية)

أخرج الزبير بن بكّار في الموفقيات عن المطرف بن المغيرة بن شعبة ما مختصره، قال كان أبي يجتمع بمعاوية ثم يأتيني فيكثر في المدح، وفي ليلة امسك والدي عن العشاء مغتماً فسألته عن سبب ذلك.

فقال يا بني جئت من أكفر الناس وأخبثهم فقد خلوتُ به وقلت له: قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فقد كبرت ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم.

فقال: هيهات هيهات أي ذكر أرجو بقاءَه، ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر ثم ملك أخو عديّ مما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات أشهد أن محمداً رسول الله فأي عمل يُبقي وأيّ ذكرٍ يدون بعد هذا لا أباً لك، لا والله إلا دفناً دفناً[1].

وإذا كان كلام معاوية يُثير اشمئزاز من هو مثل المغيرة فإلى أيّ مدى بلغه معاوية إذن وهو يومذاك يدعي خلافة المسلمين فأية خلافة تلك وأيَّ مسلمين أولئك!

٧ ـــ رأي الحسن البصري

أربع خصال في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة منها لكانت موبقة انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف، واستخلافه من بعده سكيراً خميراً، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجراً وأصحاب حجر[2].

ما سبق هو شيءٌ يسير مما قيل عن معاوية بن أبي سفيان ولو أردنا أن

---

(١) ابن عقيل النصائح الكافية ص١٢٤ (وكان والده أبو سفيان يستخدم هذه العبارة كما جاء في الأغاني ٦/٣٤٨).

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٤٨٧.

نُحصي كل ما قيل عنه وما ارتكبه من أعمال منافية للإسلام لاحتجنا إلى فصول عديدة لكن حصراً للفائدة رأينا الاقتصار على تلك الشخصيات المؤشر لها في التاريخ التي لم تُحسب على جبهة علي عليه السلام والتي كانت على الحياد أو متعاونة مع معاوية، وكان معاوية يسعى من أجل اقناعها بالتعاون معه فرأيهم في معاوية له اعتبار ويؤخذ به سيما وأنه منقولٌ مِن مؤرخ محايد هو ابن قتيبة وابن عقيل وهما ليسا من مؤرخي الشيعة وأيضاً أنهم قالوا رأيهم وجهاً لوجه معاوية.

المهم أن تلك الإشارات تكفي اختصاراً في رسم بعض ملامح معاوية. فهي ترسم لمعاوية صورة الحاكم الذي همّهُ السلطة بالدرجة الأولى. وهو على استعداد لأن يُضحي بكل شيء من أجل السُلطة. كما وأنه على استعداد لأن يتوسل بكل الوسائل لتمشية سياسته، وانه جمع حوله أصحاباً على أساس المنفعة المتبادلة وأن همّه الأول هو أن يؤسس حكومة تقوم على الدنيا وليس على الدين.

فشخصية بهذهِ الأبعاد كيف يتمكن علي بن أبي طالب إقراره والياً على الشام فيلتصق اسمه باسمه، فيعرفه التاريخ أنه أحد ولاته!!

كيف يمكن لمطلع بأحوال المسلمين وعارف بالإسلام أن يلوم علياً عند خلعه لمعاوية؟ وعلى فرض أن الإمام ترك معاوية وشأنه. فهل كانت الشام بكافية لتملأ عيون معاوية وتشبع شهوته للسلطة؟.الإجابة على هذا السؤال تبدو واضحة للمتتبع لأحداث التاريخ. فمعاوية كان يعمل من أجل الحرب بقصد التوسع، فالشام لم تعد إلاّ وجبة صغيرة على مائدة أطماعه وتعددت أطماعه مع قيام معركة الجمل حيث كان في تصوره أنّ المعركة قد أنهكت قوات الإمام علي عليه السلام. وان الفرصة الذهبية قد سنحت للهجوم على عاصمة الدولة الإسلامية وتصفية الإمامة الشرعية المتمثلة بالإمام علي عليه السلام.

ونلمس هذه الرغبة في الحرب عند معاوية من ردّه المستمر للوسائط

التي كانت تعمل على تضييق الفجوة بين الشام والكوفة. كان رد معاوية:

انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف[1].

الغرور الأعمى

استلم معاوية بن أبي سفيان إدارة شؤون الشام منذُ عهد الخليفة عمر الذي ولاّه الشام. واستمرت ولايته على عهد عثمان حتى قيام الثورة ومجيء الإمام علي عليه السلام إلى دست الخلافة.

وخلال هذهِ العقود استطاع معاوية أن يُوجد لنفسه نفوذاً واسعاً في أوساط الشاميين، وتمكن أن يؤسس دولة شبه مستقلة خصوصاً في فترة حكم عثمان فبسبب انشغال الخليفة عثمان بمشاكله. تفرد معاوية في حُكم الشام فاتبع سياسة الترغيب والترهيب للهيمنة على الناس وتمكّن أن يُوجد لنفسه قوة عسكرية ضاربة وشيئاً فشيئاً أخذ يقتطع الشام عن الجسد الإسلامي مكوناً لنفسه مستعمرة كبرى. وجلس ينتظر الفرصة الذهبية التي يستطيع فيها أن يستخدم إمكاناته لنقل الخلافة إلى دمشق، وعندما قامت الثورة على عثمان قويت آماله بالخلافة. فهو لم ينس بعد وصية أبي سفيان تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة.. فها هي الكرة تُرمى إلى ملعبه كان يرى في نفسه الكفاءة والقدرة على استلام منصب الخلافة. لذا كان متباطئاً في الدفاع عن عثمان إذ كان يُبطن الرغبة في انقلاب الأمر على عثمان ليكون المرشح الأقوى للخلافة إن ظلّ الأمر بأيدي الجماعة الأموية الملتفة حول عثمان. لكن شاءت الأقدار غير ذلك حيث أُنتخب الإمام علي عليه السلام للخلافة.

وقد تلقى معاوية خبر انتخاب أمير المؤمنين بشيء من الامتعاض لكنهُ لم يفقد الأمل، فقد كان يرى في نفسه وأهل الشام القوة القادرة على دحر أمير المؤمنين والإستيلاء على العاصمة الإسلامية.

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٨٦.

معاوية يخطط للحرب

لم تكُن المنازلة مع علي وجيشه بأمر هين، صحيح أن معاوية يمتلك قوة عسكرية منظمة وامكانات مالية كبيرة، وصحيح أيضاً أن علي بن أبي طالب حديث العهد بالخلافة وأن ترتيب البيت الداخلي قد يستغرق وقتاً طويلاً لكنهُ كان يمتلك التأييد الشعبي الواسع ومؤازرة أصحاب رسول الله ﷺ الأمر الذي لا يمتلكه معاوية بن أبي سفيان فالمعركة مع علي كانت تعني فتح جبهة عريضة مع الأُمة ومع صلحائها وزعمائها الذين سيقفون حتماً مع علي في مواجهة معاوية وحتى الذين لم يؤازروا علياً في معركة الجمل سيقفون إلى جانبه ضد معاوية.

فالأحنف بن قيس الذي وقف على الحياد في معركة الجمل بطلب من أمير المؤمنين لم يستطع أن يستمر في موقفه في معركة صفين. فقد وقف قبال أمير المؤمنين ليقول له: إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل فلن ينصروا عليك غيرك وقد عجبوا ممن نصرك يومئذ، وعجبوا اليوم ممن خذلك لأنهم شكوا في طلحة والزبير ولم يشكوا في عمرو ومعاوية[1].

فإذا شك البعض في أصحاب الجمل فإنه ليس هناك من يشك في معاوية إلاّ أهل الشام الذين كانوا يعيشون في عزلة وتعتيم ثقافة واعلامية والمستبدون يخافون الإعلام أكثر مما يخافون من السيف لأنّ الإعلام يفضحهم ويكشف عوراتهم لذا وجدنا كيف عمل معاوية على تبعيد أبي ذر يوم جاء إلى الشام وأخذ يطلق دعواته الإصلاحية على الملأ من الناس، لقد آلَ معاوية على نفسه ألا يدخل معركة سافرة مع الإمام علي عليه السلام فبدأ بخُطة حربية.

١ ـ فاتح عدداً من القادة الذين كانوا يقودون المعارك في زمن

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٨٦.

الرسول ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين وكان معاوية على يقين أن هؤلاء ليسوا على استعداد للعمل معه وتفضيله على علي بن أبي طالب إلا بأن يقدّم لهم المغريات.

وقد وصف ابن قتيبة لقاء عمرو بن العاص ومعاوية بهذه الكيفية.

ذكروا أن عمرو بن العاص لما قدم إلى معاوية وعرف حاجته إليه باعده عن نفسه وكايد كل واحدٍ منهما صاحبه فقال عمرو لمعاوية: أعطني مصر فتلكأ معاوية، وقال: ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قال: بلى ولكن إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق، وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى علي، فدخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية فقال: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صَفَتْ لك؟[1].

شراء الذمم في مقابل الكُرسي.

هذه هي خلاصة سياسة معاوية. وعبر هذهِ السياسة استطاع أن يُؤثر ببعض الضعاف من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. لكنه لم يفلح مع أولئك الذين عُجنوا بالإيمان الصادق. وكان الإمام يعمل على فضح أساليب معاوية، فخطب في أصحابه يوماً.

وقد دخل في هذا العسكر طمعٌ من معاوية، فضعوا عنكم همّ الدنيا بفراقها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، فإن نازعتكم أنفسكم إلى غير ذلك فردوها إلى الصبر، ووطنوها على العزاء، فوالله إن أرجى ما أرجوه الرزق من الله حيث لا نحتسب، وقد فارقكم مصقلة بن هُبيرة، فآثر الدنيا على الآخرة، وفارقكم بُسر بن أرطأة فأصبح ثقيل الظهر من الدماء، مفتضح البطن من المال وفارقكم زيد بن عدي بن حاتم، فأصبح يسأل الرجعة، وأيم الله لوددتُ رجالٌ مع معاوية أنهم معي فباعوا الدنيا بالاخرة ولوددت

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٧.

رجالٌ معي أنهم مع معاوية فبايعوا الآخرة بالدنيا[1].

يذكر ابن الأثير أن معاوية بعث إلى زياد بن خصفة فخلا به وقال له: يا أخا ربيعة إن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا وإني أسألك النصر عليه بعشيرتك ثم لك عهد الله وميثاقه أني أوليك إذا ظهرتُ أيَّ المصرين أحببت[2].

وسعى معاوية إلى احتضان العناصر غير المرغوب فيها في معسكر الإمام علي عليه السلام، فذكر ابن الأثير أن علياً استعمل على الري يزيد بن حُجيّة التيمي فكسر من خراج الري ثلاثين ألفاً فكتب إليه علي يستدعيه، فحضر فسأله عن المال قال: ما أخذتُ شيئاً فخفقهُ بالدرّة خفقات وحبسهُ ووكل به سعداً مولاه، فهرب منه يزيد إلى الشام، فسوغه معاوية بالمال. فكان ينالُ من علي. وبقي بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية فسار معهُ إلى العراق فولاّه الري[3].

٢ ـ سياسة التأليب على الإمام علي عليه السلام بعث معاوية برسائل خاصة إلى بعض أصحاب أمير المؤمنين يؤلبهم فيها على الإمام منها رسالته إلى ابن عباس ورسائله التي كتبها إلى أهل الأمصار والمُدن..

كتب معاوية إلى أهل مكة والمدينة..

أما بعدُ فإن مهما غاب عنا فإنه لم يفت أن علياً قتل عثمان، والدليل على ذلك أن قتلته عنده وإنما نطلب بدمه حتى يدفع إلينا قتلته، فنقتلهم بكتاب الله تعالى فإن دفعهم إلينا كففنا عنه وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عمر بن الخطاب فأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا يرحمكم الله وانهضوا من ناحيتكم[4] إلاّ أن محاولاته ذهبت أدراج الرياح

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١١٤.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٩٠.
(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٨٨.
(٤) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٩.

فهو لم يتمكن أن يؤلب ضد علي إلاّ أهل الشام فقد كلف أهل المدينة ومكة المسوَّر بن مَخَرمة للرد على معاوية، فكتب إليه. أما بعدُ فإنك أخطأت خطأً عظيماً. وأخطأت مواضع النصرة وتناولتها من مكان بعيد وما أنت والخلافة يا معاوية. وأنت طليق ـ وأبوك من الأحزاب فكف عنا، فليس لك قبلنا ولي ولا نصير[1].

وكان يُفترض بمعاوية بعد سماعه لهذهِ الردود أن يكفّ عن سياسته الهوجاء التي لو فكّر فيها مليّاً لوجد أنها ستطيح به في نهاية المطاف. لكن إصراره على الحكم واطلاق العنان لنفسه لتمارس شتى صنوف الألاعيب السياسية جعلته على أمل متواصل في الانتصار على الإمام علي عليه السلام. وهكذا حال المستبدين في كل زمان ومكان فهم يتوسلون بكل وسيلة للبقاء في الحكم ولا يعيرون آذانهم لصوت الأمة ولما تريده من حكامها.

٣ ـ سياسة التضليل: فقد كانت الحقيقة كلها مع علي وأصحاب علي. وكان معاوية يواجه سيلاً من علامات الاستفهام من أهل الشام الذين عمل على تضليلهم والذين كانوا بالتدريج يصطدمون بالحقيقة فيرونها رأي العين فماذا سيكون جواب معاوية وأصحاب معاوية.

هل كان هناك شيءٌ آخر سوى التضليل وقلب الحقائق.

فهذا هو هُنيء وهو مولى لعمر بن الخطاب ـ كما ذكره ابن سعد في طبقاته بيده شهادة مهمة على سياسة التضليل التي كان يمارسها معاوية.

قال هُنيء: كنتُ أول شيء مع معاوية على عليّ، فكان أصحاب معاوية يقولون: لا والله لا نقتل عماراً أبداً، إن قتلناه فنحن كما يقولون. فلما كان يوم صفين ذهبتُ أنظرُ في القتلى فإذا عمار بن ياسر مقتول فقال هُنيء فجئت إلى عمرو بن العاص وهو على سريره، فقلت: أبا عبد الله قال: ما

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٩٩ وقد نسب ابن أبي الحديد هذا الرد إلى عبد الله بن عمر أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الجزء ١ الصفحة ٢٥٨.

تشاء؟ قلتُ: أنظر أكلّمك فقام إلي، فقلت: عمار بن ياسر ما سمعتَ فيه؟ فقال: قال رسول الله ﷺ تقتله الفئة الباغية، فقلتُ: هو ذا والله مقتولٌ، فقال: هذا باطل، فقلت بَصُرَ به عيني مقتولاً، قال: فانطلق فأرينه. فذهبتُ به فأوقفته عليه فساعة رآه انتقع لونه. ثم أعرض في شق وقال: إنما قتلهُ الذي خَرَجَ به وهذهِ إساءة أخرى لعمار، وكأنه خرج لا يدري لماذا خرج مع علي، أو أنه كان مُجبراً على الخروج مع علي. لكن هل يمكن لهذه التخرصات التائهة أن تُقنع أحداً غير البلهاء من الناس. أو أصحاب المنافع الذين يصمّون آذانهم عادةً حتى لا يسمعوا الحقيقة لأنها مُرعبة. وحتى لو سمعوها أداروا ظهرهم لها فهي لا تسوى شيئاً عندهم.

طبائع الاستبداد عند معاوية

ومناقب الرسالة عند الإمام علي

الصراع الذي دار رحاه بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية لا يختلف في الجوهر عن صراع رسول الله صلى الله عليه وآله مع أبي سفيان، فلو كان قدرُ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون في قباله أبو سفيان النموذج المناقض للنبوة. فإن قدر الإمام علي عليه السلام أن يكون في قباله معاوية النموذج المناقض للإمامة.

ويحلو لبعض الكتاب المعاصرين وصف هذا الصراع التاريخي وكأنه قام بين فخذين من قُريش متنافرين متنافسين على السلطة هما بنو أمية وبنو هاشم. وهذهِ هي محاولة جادة لتشويه حقيقة هذا الصراع الذي أساسهُ التناقض بين حالتين.

الحالة الرسالية التي تُريد أن تسود العالم بالإيمان والأخلاق والحالة الجاهلية التي تُريد أن تسمو بالثروة والحيلة والدسيسة. فكان الصراع بين هاتين الحالتين هو أمرٌ حتمي إذ أن الجاهلية متوثبة دائماً لمواجهة الرسالية لأنها تشعر بأنها مهددة دائماً. وقد انفرز من هاتين الحالتين نمطين من السلوك..

فبينما نجد علياً عليه السلام يحافظ على أموال الناس، لا ينفقها إلاّ في مكانها

ولا يُبح لنفسه أن يأخذ شيئاً منها لنفسه أو لأهله، وكان لا يخرج من بيت المال إلا بعد أن ينفقه بأجمعه، ثم يأمر قنبر أن ينظف المكان وبعدها يُصلي ركعتان شكراً لله حيث ادى الأمانة، وكان يقول أثناء العمل في بيت المال يا صفراء، يا حمراء غُري غيري..

وفي قبالة هذه الصورة نجد معاوية يُبيح لنفسه التصرف في بيت المال والانفاق منه ما يشاء بغير حساب أو كتاب.

ولنا في حكاية عقيل بن أبي طالب عندما قدم إلى أخيه يطلب منه مالاً فأرجعه إلى عطائه ليأخذ منه حاجته، خير شاهدٍ على التناقُض الكبير بين علي ومعاوية. فعندما جاء إلى معاوية أعطاه من بيت المال ثلاثمائة ألف دينار[1].

وكان يطمح في الحصول على نصف كلمة من عقيل يقولها ضد أخيه، لكن دون جدوى.

لقد جسّد معاوية في حكمه المكيافيلية أفضل تجسيد.

فهو مكيافيلي قبل أن يولد مكيافيلي. كان يضع السُّم في العسل، كما فعل بالإمام الحسن بن علي.

كان يقلب الحقائق كي لا تُعرف حقيقته. وهو يدري أنه كاذب. وهذا أخس أنواع الكذب.

أتاه يوماً أحد المتزلفين إليه وهو عبد الله بن أبي محجن قائلاً: يا أمير المؤمنين إني أتيتك من الغبي الجبان البخيل ابن أبي طالب، فقال معاوية لله أنت؟ أتدري ما قُلت؟ أما قولك الغبي، فوالله لو أنّ ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي، وأما قولك إنه جبان، فثكلتك أمك، هل رأيت أحداً قط بارزه إلا قتله؟ وأما قولك إنه بخيل فوالله لو كان له

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص٨٢.

بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن لأنفذ تبره قبل تبنه[1].

لنقارن بين اعترافات معاوية في علي في هذا الموقف وبين شتائمه وسبابه في مواقف أخرى، ومن حق الثقفي أن يتعجب من أجوبة معاوية الصريحة. وربما خدعته الدعاية الأموية.

وإذا كان عليّ هكذا فَلِمَ هذا القتال؟.

بادره بالسؤال: فعلام تقاتله إذاً؟.

أخذ معاوية يُجيبه بكل صراحة لأنه كان موطن ثقته قال له: على هذا الخاتم الذي من جعله في يده جازت طينته وأطعم عياله، وادخل لأهله، فضحك الثقفي مُسايراً له، وبعد ذلك لحق بالإمام علي عليه السلام لأنه عرف الحقيقة.

هذه الحادثة التأريخية تضعنا أمام صورة من المكيافيلية متكاملة الأبعاد، تحريفٌ للحقائق تبرير الوسيلة بالغاية. الحفاظ على السلطة مهما كان الثمن، الأخلاق في خدمة السياسة وليس العكس وهذه هي الأضلاع الأربعة للسياسة التي انتهجها معاوية بن أبي سفيان.

كان معاوية على أعلا درجات الاستبداد لكنه لا يتظاهر بأنه مستبد. بل يُظهر نفسه انه ديمقراطي وهكذا كل المستبدين في التاريخ كان يلتقي بالخصوم ويتحاور معهم طمعاً فيهم، وليس من طبعه المحاورة الصادقة لأنه لا يمتلك المنطق ولا الدليل المقنع إلاّ عندما يكون أمام همج رُعاع.. كتب إليه الإمام علي عليه السلام رسالة مفصلة ذكرها ابن قتيبة في كتابه احتجّ فيها على معاوية بحجج بالغة، لم يجد معاوية ما يردُ عليها، فاحتار بما يُجيب علياً إذ كان لزاماً عليه بعث الجواب فاكتفى كما ذكر ابن قتيبة بعبارة.

بسم الله الرحمن الرحيم. وقد فهم الإمام عبارة (بسم الله) إن معاوية لا جواب له إلاّ الحرب.

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١١٤.

وكان معاوية مغروراً بنفسه، وبأبيه، والغرور هو من طبائع المستبدين لأنه لا يستبد إلاّ المغرور بنفسه، فالاستبداد والغرور صنوان أحدهما يؤدي إلى الآخر.

فهذا جواب معاوية لعدي بن حاتم الطائي عندما جاءه يُريدُ الإصلاح ويُحذّر من مغبة التمادي في الغي.. فأجابه معاوية قائلاً: هيهات يا عدي فلا والله إني لابنُ حرب لا يقعقع بالشنّان[1] وهذا كتاب معاوية التي أرسلها إلى زعماء العشائر والولاة وهو الآخر يُشمُّ منه رائحة الغرور وأنه كان يعتقد في شخصه أموراً غير موجودة فيه[2].

وكان من سياسة معاوية انتهاج السبل الملتوية لأنه كان يخشى الصراط المستقيم لأنه صراط الحق، والحكام المستبدين يخافون الحق، فيختارون الطرق المظلمة والأساليب الملتوية فكل مواقفه كانت تقومُ على الحيلة.

حاول أن يُحرّك ابن عمر ضد الإمام علي مدعياً أنه أحقُ بالخلافة وأنه على استعداد لمبايعته مع أنه كان يُريد الخلافة لنفسه.

حمل شعار المطالبة بدم عثمان مع أنهُ أحد المساهمين في قتل عثمان. وكانت حجتهُ دائماً أن قتلة عثمان موجودون في جيش الإمام، وأنه ولي الدم ومتى ما سلّم الإمام القتلة فإنه يصبح كأحد المسلمين.

فها هو معاوية يحاول خداع أبي هريرة وأبي الدرداء عندما أرادا الإصلاح وإيقاف الدماء في صفين. قال لهما معاوية: لستُ أزعم أني أولى بهذا الأمر من علي. ولكني اقاتله حتى يدفع إليّ قتلة عثمان، فقالا إذا دفعهم إليك ماذا يكون؟

قال أكون رجلاً من المسلمين فأتيا علياً فإن دفع إليكما قتلة عثمان

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٨٩.

(٢) أنظر رسالة معاوية إلى قيس في الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٧٠.

جعلتُها شورى[1] وهو ادعاءٌ واهنٍ، فمعاوية لم يكُن يُريد سوى الحفاظ على الكُرسي. بدليل أنه بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام وشهادة الحسن عليه السلام كانت الفرصة قد حانت لأن يجعلها سورى لكن وبدل أن يجعلها شورى جعلها ملكاً وراثياً إلى ولده يزيد، وهذا هو دأب الإستبداد الذي يحاول أن يتمسك دائماً بورقة ليمرر من خلالها سياسته وليُبرر عبرها مشروعية بقائه في السلطة. ولعل أكبر مكرٍ قام به معاوية هو رفعه للمصحف يوم أحسّ بالهزيمة المنكرة.

يذكر الطبري: لما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلاّ فُرقة قال نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حَكمٌ بيننا وبينكم[2] وانطلت هذهِ الخدعة على الكثير من البسطاء والسُذج من أصحاب علي عليه السلام.

ومن طبائع معاوية الجُبن لأن المستبد جبانٌ وليس بشجاع فهو يخشى الهلاك لأنه يبحث عن الدنيا ولا يُريد السلطة إلا للدنيا، فمن غير المعقول أن يرمي بنفسه في المواقف الحرجة.

فهذا الذي كان يقول عن نفسه كلا والله إني لابن حرب لا يقعقع له بالشِّنان، وكان يؤلب الناس للحرب، دعاه يوماً علي بن أبي طالب، مُنادياً بأعلى صوته، يا معاوية، عَلاَمَ يقتل الناس بينا! هلمّ أحاكمك إلى الله، فاينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: ما أنصَفَ، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: وما يجملُ بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي[3]

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٠٨.

(٢) الطبري ج٥، ص٤٨.

(٣) الطبري ج٥، ص٤٢ الإمامة والسياسة ص١٠٦.

وهكذا كان المستبدين في التاريخ القديم والحديث فعند العربدة يصبحون الشجعان والويل لمن ينازلهم وأمّا في الميدان فهم أجبن خلق الله يخافون من الموت بقدر ما يحبون الحياة.

ومن طبائع معاوية اللؤم وهو أشدُّ من البخل، فقد كان يُريد لأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أن يموتوا عطشاً عندما استولى على شريعة الفرات ووضع قوة بقيادة الأعور السلمي لمنع ورودهم الماء. وهذه طبيعة المستبدين الذين لا يتورعون في استخدام أية وسيلة لقهر أعدائهم حتى لو استوجب الأمر القضاء عليهم عطشاً.

ومن طبائع معاوية هو أن يلصق كل جريمة بغيره أو اشراك غيره بالجريمة حتى لا تتوجه أصابع الإتهام إليه وحده فعندما جاءه صعصعة بن صوحان يطلب منه الماء قال معاوية لأصحابه ما ترون؟ فاشاروا عليه بالمنع.

لكنه لم يعطه الجواب القاطع كما هو دأب المستبدين الذين يتهيبون الصراحة بل قال لصعصعة سيأتيكم رأيي، فسرَّب الخيل إلى أبي الأعور[1].

وقامت سياسة معاوية كما جاء في رسالته إلى المغيرة بن شعبة:

لا تترك شتم عليّ وذمّه والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب علي والاقصاء لهم والاطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم[2].

وظلّ الشتم والكلمة البذيئة هي مرتكز الحكم الأموي حتى عهد عمر ابن عبد العزيز. وهو الطريق الذي اختاره الحكم للتعبئة الشعبية.

ومن طبائع معاوية الاستبدادية، قطع الأرزاق عمن يخالفه في الرأي فقد أوعز إلى واليه المغيرة بن شعبة أن يقطع أرزاق أهل الكوفة لأنهم لا

---

(١) الطبري ج٤، ص٥٧٢ الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٨٤.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٤٧٢.

يوالون النظام ولا يشتمون علياً. فقام إليه حجر بن عدي، فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بمسجد الكوفة. وقال له مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا، فقد حبستها عنا وليس ذلك لك وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثُلثي الناس يقولون صدق حُجر وبر مُر لنا بأرزاقنا[1].

وهذه عادة متأصلة في الحكومات المستبدة الظالمة فهي تستخدم سياسة التجويع ضد من يعارضها من أبناء الأمة.

ومن طبائع الاستبداد الأموي متمثلاً بمعاوية الإرهاب، فخط الإرهاب الذي مارسهُ معاوية ومارسه ولاته بإذن منه لا نظير له إلا في العهود الغابرة. كان يأخذ الناس على التهمة ويقتلهم على كلمة واحدة إن قالوها عادت لهم حياتهم وإلاّ فالقتل، والكلمة هي البراءة من علي عليه السلام.

وهذا نموذج من إرهاب معاوية:

محمد بن أبي حُذيفة أحد أنصار الإمام علي عليه السلام وهو في نفس الوقت ابن خال معاوية بن أبي سفيان لأن أبي حُذيفة هو أخٌ لهند بنت عتبة أم معاوية بعد استشهاد أمير المؤمنين ألقى معاوية القبض على محمد بن أبي حُذيفة وأودعه السجن[2] ثم قال معاوية ذات يوم ألا نرسل إلى هذا السفيه محمد بن أبي حُذيفة فنبكّته (نُوبّخهُ) ونخبره بضلاله ونأمره أن يقوم فيسبّ علياً؟ قالوا نعم، فبعث إليه معاوية، فأخرجه من السجن، فقال له مُعاوية: يا محمد بن أبي حُذيفة، ألم يأن لك أن تبصر ما كُنت عليه من الضلالة بنصرتك علي بن أبي طالب الكذّاب، ألم تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً وأن عائشة وطلحة والزُبير خرجوا يطلبون بدمه، وأن علياً هو الذي دسّ في قتله ونحن اليوم نطلب بدمه، قال محمد بن أبي حُذيفة إنك لتعلم أني أمس

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٤٧٣.
(٢) الطبري ج٥، ص١٠٦.

القوم بك رحماً وأعرفهم بك، قال أجل، قال فوالله الذي لا إله إلا غيره ما أعلم أحداً اشترك في دم عثمان وألب عليه غيرك لمّا استعملك ومن كان مثلك، فسأله المهاجرون والأنصار أن يعزلك فأبى، ففعلوا به ما بلغك ووالله ما أحد اشترك في قتله بدئياً وأخيراً إلا طلحة والزُبير وعائشة. منهم الذين شهدوا عليه بالعظيمة وألّبوا عليه الناس وشركهم في ذلك عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وعمّار والأنصار جميعاً.

قال: قد كان ذاك، قال: والله إني لأشهدُ أنك منذُ عرفتك في الجاهلية والإسلام لعلى خُلق واحد ما زاد الإسلام فيك قليلاً ولا كثيراً وإن علامة ذلك فيك لبيّنة تلومني على حُبي علياً خرج مع كل صوام قوّام مهاجريّ وانصاريّ، وخرج معك أبناء المنافقين والطلقاء والعتقاء خدعتهم عن دينهم وخدعوك عن دنياك والله يا معاوية ما خفي عليك ما صنعت وما خفي عليهم ما صنعوا إذ أحلّوا أنفسهم بسخط الله في طاعتك، والله لا أزال أحبُ علياً لله وأبغضك في الله وفي رسوله أبداً ما بقيتُ.

قال معاوية واني أراك على ضلالك بعد رُدُوه، فردوه وهو يقرأ ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فمات في السجن[1].

هذه الحادثة تبين لنا الأساليب الإرهابية التي كان يمارسها معاوية وهي شبيهة بما يمارسه اليوم المستبدون في داخل السجون بحق المعارضين لحكمهم.

---

(١) الطوسي، رجال الكشي ص٧١ ـ ٧٢ ومحمد بن أبي حُذيفة كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن المحامدة تأبى أن يعصى الله عز وجل ـ قلت ومن المحامدة؟ قال محمد بن جعفر، محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حُذيفة، ومحمد بن أمير المؤمنين عليه السلام أما محمد بن أبي حُذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة وهو ابن خال معاوية: تربى في أحضان الخليفة عثمان بعد شهادة والده أبي حذيفة اتصل به الإمام علي عليه السلام عبر محمد بن أبي بكر فانتظم في صفوف أصحابه أرسله إلى مصر برفقة محمد بن أبي بكر عارض حكم عثمان وألب عليه في مصر كان له دور مشرف في نصرة الإمام علي عليه السلام.

ومارس ولاة معاوية سياسة الإرهاب أيضاً لأنها كانت وسيلتهم للحكم والسيطرة.

فهذا بُسر بن أبي أرطأة والي معاوية على اليمن، أخذ ابنين لعُبيد الله بن عباس صغيرين هما عبد الرحمن وقُثم فقتلهما. وكانا عند رجُل من كنانة بالبادية فلما أراد قتلهما، قال له الكناني: لم تقتل هذين ولا ذنب لهما؟ فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما فقتله وقتلهما بعده.

وانتشر خبر هذا الحادث المروّع فخرجن نسوة من بني كنانة. فقالت امرأة منهنّ يا هذا قتلت الرجال، فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا يُقتلون في الجاهلية والإسلام والله يابن أبي أرطأة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء.

وهذا هو دأب الاستبداد فهو يستخدم القسوة ليُظهر القوة، لكنهُ يبقى ضعيفاً فالضعيف يدفع إلى الإرهاب دائماً.

أمّا القوي فلا يحتاج إلى قتل الأطفال وترويع النساء وأخذ الأبرياء بالتهمة والظنة.

هذا هو معاوية بن أبي سفيان ونحن نتركه لمحكمة التأريخ فقد قال فيه التأريخ كلمة الفصل.. فقد عَلَّم طغاة بني أمية أسلوب الأرهاب وطريقة التعتيم فكان مدرسة لكل المستبدين في التاريخ القديم والحديث.

وذاك هو علي بن أبي طالب الذي أوجد في حكمه مدرسة لكل الحكام الخيرين على مدى التاريخ القريب والبعيد وبالرغم من أن وضع عليّ إلى جانب معاوية حتى في الاتجاه المعاكس هو منهجٌ غير مُستساغ إذ أن مجرد اقتران الإسمين معاً هو أمرٌ غير مقبول. لكن عندما يكون طرح الإسمين أمام محكمة التاريخ فهو أمرٌ جائز. فكما وافق الإمام علي عليه السلام أن يجلس إلى جانب اليهودي في محكمة شُريح فإننا نسوغ وضع علي في

الجانب الآخر من محكمة التاريخ ليقول كلمته في علي بن أبي طالب عليه السلام كما قال كلمته في معاوية.

علي على العكس تماماً من معاوية.

فسياسته في حقيقتها هي الإسلام ـ فهو قد تشرّب الرسالة فأصبحت كل خلية في كيانه ناطقة بالإسلام والرسالة.

فقد وقف الإمام أمام ربّه، وليسمعه العالم بأسره ليعلن أمام الملأ عن أهدافه في الصراع، اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرِدَ المعالم من دينك، ويُظهرَ الإصلاح في بلادِك فيأمن المظلومون من عبادِك وتُقام المعطلةُ من حدودِك ـ اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة.

إذاً هناك أهداف حقيقية لصراع علي مع الظالمين وليس الهدف هو الكُرسيّ. لِنردَ المعالم من دينك.

ونُظهر الإصلاح في بلادك.

وتقام المُعطّلة من حدودك.

فكانت سيرته وسياسته مطابقة لهذه الدعوة الخيرة فهو السباق دائماً إلى عمل الخير وترك أعمال الشر.

أيها الناس إني والله ما احثكُم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم على معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها.

وعن زهده يقول هو نفسه ليقتدي به ولاته.

ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقُرصيه ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك. ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد. فوالله ما كنزتُ من دنياكم تبراً ولا ادخرتُ من غنائمهم وفراً.

وكان يحرص الإمام عليه السلام على تأمين الطعام والرزق للرعية، فلا يستقر له بال عندما يصل مسامعه أنين إنسان في اليمن أو الحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع.

قدم إليه عقيل فلما حضر العشاء، فإذا هو خبزٌ وملح فقال عقيل ليس إلا ما أرى؟ فقال أوليس هذا من نعمة الله وله الحمد كثيراً. فقال أعطني ما أقضي به ديني وعجّل سراحي حتى أرحل عنك قال فكم دينك يا أبا يزيد؟.

قال: مائة ألف درهم، قال: والله ما هي عندي ولا أملكها، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فأواسيكه ولو أنه لا بد للعيال من شيء لأعطيتك كله[1].

وكان حريصاً على أموال الناس أميناً عليها.

جاءه عمرو بن العاص في احدى الليالي وهو في بيت المال فأطفأ السراج وجلس في ضوء القمر ولم يستحلّ لنفسه أن يجلس في الضوء بغير استحقاق[2].

قدّم إليه قنبر جامات من ذهب وفضة وهو في الرحبة، وقال: إنك لا تترك شيئاً إلا قسمتُه، فخبأت لك هذا فسلّ سيفه وقال: ويحك لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً[3].

فكان مبدأه الغاية لا تبرر الواسطة. وكان عليٌ من بين القلائل من قادة التاريخ من احترم هذا المبدأ.

جاءته طائفة من أصحابه عند تفرق الناس عنه وفرار كثيرٌ منهم إلى معاوية طلباً لما في يديه من الدنيا، فقالوا يا أمير المؤمنين: أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١١٣.
(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١١٦.
(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١١٧.

ومن نخاف عيّه من الناس فراره إلى معاوية فقال لهم أمير المؤمنين أتأمروني أن أطلب النصر بالجور[1].

أما عن تواضعه وزهده ومساواته بالعبيد والفقراء.

عن أبي جعفر أنه قال:

والله إن كان عليّ ليأكل أكل العبد ويجلس جلسة العبد وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين فيُخير غلامه خيرهما ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي خمس سنين، ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاء ولا حمراء وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير والزيت والخل وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضًى إلاّ أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد أعتق ألف مملوك من كدّ يده تربت فيه يداه وعُرف فيه وجهه وما أطاق عمله أد من الناس وإن كان ليصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وإن كان أقرب الناس شبهاً به علي بن الحسين عليه السلام، وما أطاق عمله أحد من الناس بعده[2].

وكان ينظر إلى الجميع نظرة مساوية بل كان يفضل الآخرين على أبنائه عندما يكون الحق لهم. كسى علي عليه السلام الناس بالكوفة وكان في الكسوة برنس خز فسأله إياه الحسن فأبى أن يعطيه إياه واسهم عليه بين المسلمين فصار لفتى من همدان فانقلب به الهمداني فقيل له إن حسناً كان سأله إياه فأرسل به الهمداني إلى الحسن عليه السلام فقبله[3].

أما سيرته الذاتية فكانت بسيطة للغاية.

ففي البيت دولته الصغيرة كان نموذجاً رائعاً للزوج والأب، كان

---

(١) أمالي المفيد ص١٠٤ ـ أمالي الطوسي ص١٢١، بحار الأنوار ج٤١، ص١٢٨.

(٢) أمالي الصدوق ص١٦٩.

(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٠٤.

يستقي، ويحطب ويكنس وكانت فاطمة عليها السلام تطحن وتعجن وتخبز وترقع[1].

أما عن طعامه فروى النضر بن المنصور عقبة بن علقمة قال: دخلتُ على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبنٌ حامض آذاني حموضته، وكسر يابسة فقلتُ: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا وأشار إلى ثيابه. فإن أنا لم آخذ به خفتُ أن لا ألحق به[2].

أما عن ملبسه يقول أبو مطر، قال كنت بالكوفة فمرّ عليّ فقال: هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال: فتبعته فوقف على خياط فاشترى منهُ قميصاً بثلاثة دراهم فلبسه[3].

وكان يقف بين أهل الكوفة ليقول لهم (برواية بكر بن عيسى).

يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن، وكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع وكان يطعم الناس الخُبز واللحم ويأكل هو الثريد بالزيت[4].

وكان طريق الحق واضحاً أمامه، وطريق الباطل مكشوفاً واضحاً فيقذف بنفسه في طريق الحق ولا يُبالي بالتبعات لأنه مطمئن من الدرب الذي سلكهُ فلا يستوحش من طريق الحق عندما يقل السالكين فيه.

عن فضيل بن الجعد قال: آكد الأسباب كان في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمُر المال فإنه لم يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي ولا يصانع الرؤساء وامراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٣١.
(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٣١.
(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٣١.
(٤) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٣٤.

أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك فترك الناس علياً والتحق بمعاوية[1].

وإذا ما صمم حاكمٌ من الحكام أن لا يُبالي بالناس إن كانوا معه أم لم يكونوا طالما كان هو على الحق، فإن في هذا القرار كل الخير.

أما إذا قرر الحاكم العكس. قرر أن يشتري ولاءات الناس بالمال. فإن هذا القرار سيكون بداية الانهيار والتراجع في الدولة فلنتابع آثار هذه الفضيلة.

خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهو راكب فمشوا خلفه فالتفت إليه فقال: ألكم حاجة؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحبّ أن نمشي معك، فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي[2].

وعليٌّ لا يصطنع هذا السلوك، فالتواضع هو طبعهُ، فمن كان هذا طعامه وهذه حياته لا يمكن أن يكون إلا متواضعاً.

التواضعُ شيءٌ جميل. لكن الأجمل هو أن يكون هذا التواضع من حاكم يحكمُ امبراطورية واسعة الأطراف.

يقول زيد بن علي عن أمير المؤمنين إنه كان يمشي في خمسة حافياً ويعلّق نعليه بيده اليُسرى يوم الفطر والنحر والجمعة وعند العبادة وتشييع الجنازة: ويقول إنها مواضع الله، وأحبُ أن أكون فيها حافياً[3].

ورد على أمير المؤمنين عليه السلام اخوان له مُؤمنان أبٌ وابن فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين أيديهما ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل ليلبس وجاء

---

(١) المجلسي بحار الأنوار، ج٤١، ص١٣٤.
(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص٥٥.
(٣) مناقب آل أبي طالب ج١، ص٣١٠.

ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب وقال: يا أمير المؤمنين، الله يراني وأنت تصب على يدي؟ قال: أقعد واغسل فإن الله عز وجل يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك[1].

وكان علي عليه السلام يتفقد الرعية لإقامة العدل حتى في أبسط القضايا، رجع يوماً إلى داره في وقت القيظ فإذا امرأة قائمة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني، وتعدى علي وحلف ليضربني فقال: يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار ثم أذهبُ معك إن شاء الله فقالت يشتد غضبه وحرده عليّ، فطأطأ رأسه ثم رفعه وهو يقول: لا والله أوَ يُؤخذُ للمظلوم حقه غير متعتع، أين منزلك؟[2].

وتتجلى عدالته الصميمية في تلك العبارة الرائعة التي أدهشت البلغاء وأوقفت الأدباء، وهي بحق من روائع نهج البلاغة.

والله لأن أبيت على حَسك السعدان مُسهداً، أو أُجَرَّ في الأغلال مصفداً أحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد[3] ليست كلمات شاعر، ولا تخيلات أديب أو مثاليات صوفي. بل هي كلمات حاكم كان يقود أمة.

حاكمٌ أهونُ عليه النوم على الأشواك والجر بالقيود من أن يظلم إنساناً واحداً مجرد إنسان ولا يهم إن كان مسلماً أو غير مسلم.

قال الشعبي: وجد عليّ درعاً له عند نصراني فأقبل به إلى شريح وجلس إلى جانبه وقال: لو كان خصمي مسلماً لساويته، وقال هذه درعي،

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص٥٦.

(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص٥٧.

(٣) الدليل ٤٩٥ (السعدان: نبت له شوك يُقال له حسك السعدان، والمسهد الممنوع من النوم، وصفده يصفده: شدّه وأوثقه).

فقال النصراني: ما هي إلاّ درعي ولم يكذب أميرُ المؤمنين؟ فقال شُريح لعلي: ألك بينة؟ قال: لا وهو يضحك، فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيراً ثم عاد وقال أشهدُ أن هذه أحكام الأنبياء. أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، ثم أسلم واعترف أن الدرع سقطت من علي عند مسيره إلى صفين ففرح علي باسلامه. ووهب له الدرع وفرساً وشهد معهُ قتال الخوارج[1].

عفوك يا أمير المؤمنين إن تطاولتُ عليك ولو لمرة واحدة.

إذا كنت حريصاً هكذا على حق نصراني، وأنت تعلم أن الدرع لك، فكيف رضيت بأن يأخذوا من زوجتك البتول أرضها التي وهبها لها رسول الله ﷺ؟؟ كيف سكتَ عن ظُلم صريح موجّه لأقرب الناس إليك؟ ولم تسكت عن صفعة يوجهها زوج لزوجته؟.

كيف رضيت لأبنائك الحسن والحسين عليهما السلام وهما صغيران أن يأكلا الخبز والخل وأنت الحاكم الذي تجبى إليك المليارات؟.

كيف سمحت لنفسك أن تصمت أمام ديون أخيك عقيل وهو في ضائقة وأنت تعلم أنه سيذهب إلى معاوية تحت ثقل الديون؟.

كيف رضيت أن تمنع ابنك الحسن من ارتداء الكسوة التي أعطيتها فيما بعد لفتى من همدان؟.

كيف رضيت أن ترى زوجتك في البيت وهي تئن من التعب من عمل البيت ولم تفكر أن تأتي إليها بجارية؟.

كيف؟ وكيف؟ وكيف؟.

والحديث عن مناقب علي كالحديث عن قطرات البحر.

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٤٠١ وذكر في رواية أخرى بصيغة يهودي فلعله حادثتان أو خطأ من المؤرخين.

عليّ هذا الذي اعتقد البعض أنه الخالق (والعياذ بالله) من فرط ما وجدوا فيه من خُلق لا يأتي به إنسان عادي.

عليّ يالذي عاقب بالنار من وقف أمامه ليقول له أنت الخالق. هو نفسه الذي عاقب ابنا عبد الله عندما نالا من عائشة، ولقد واجه حملة السباب والشتائم التي قامت عليها سياسة معاوية ليقول لأصحابه.

إني أكره أن تكونوا سبابين[1].

تصوروا هذا الإنسان الذي يحمل كل هذه المواصفات يصبح حاكماً. فكيف سيكون حكمُه؟؟ وكم هي حسرة كبرى لعلي عليه السلام أن ينشغل بالحروب طيلة فترة حكمه، فلا يجد الفرصة المناسبة لترجمة كل مبادئه وفنونه في الحكم وكم هي حقاً خسارة للبشرية أن يصبّ علي عليه السلام كل وقته وطاقته في صراع شغل منه كل حياته، ويا لسوء حظ المسلمين إذ أبتلوا بأشخاص كمعاوية وعمرو بن العاص لا همّ لهم سوى الكرسي والحكمُ. إنهم فهموا خطأً أن الحياة هي الدنيا فقط.

بينما فهم علي عليه السلام الحياة دنيا وآخرة. وإن الصراع جهادٌ من أجل بقاء المبادىء وليس بقاء الأنفس. علي يعرف مسؤوليته.. ويفهم ماذا يصنع؟.

كان يُريد أن يصبح قدوة في كل خطوة يخطوها في حياته سواءٌ في البيت أو المجتمع أو الدولة.

إنه القدوة للأب والزوج والحاكم والرعية، فقد قام بكل الأدوار وكان يرسم في كل حركة قانوناً لمن يُريد أن يكون إنساناً متكاملاً في الحياة.

ولم تكن خطواته سرية بل كان يخطو كل خطوة في العلن ليشاهده الجميع.. فعليّ يعرفه الجميع حتى أعداءه.

ذكر ابن قتيبة أن رجلاً من همذان يُقال له برد قدم على معاوية فسمع

---

(١) الدليل ص٥٦٤.

عمراً يقع في علي: فقال له يا عمرو إن أشياخنا سمعوا رسول الله ﷺ يقول: من كنتُ مولاه فعليّ مولاه فحقٌ ذلك أم باطل؟.

فقال عمرو: حق، وأنا أزيدك أنه ليس أحدٌ من صحابة رسول الله له مناقب مثل مناقب علي ففزع الفتى[1].

أما معاوية فقد تقدَّم رأيُه في علي. فحتى أعداؤه لا يستطيعون إنكار فضله.

وكيف يستطيعون نكرانه؟ وهو الذي أفاض بفضائله الدنيا؟.

فكل جندي في جيش معاوية يتذكر مقالة علي بعد أن احتل الفرات وهو يخاطب أصحابه.

خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم. فإن الله نصركم ببغيهم، وظلمهم ويتذكر عمرو بن العاص يوم بارز علياً وهو يقول والله لأبارزن علياً ولو مت ألف موتة في أول لقائه فبارزه عمرو فطعنه علي فصرعه، فاتقاه بعورته فانصرف عنه علي وولى بوجهه دونه.

ويتذكر الملأ الذين كانوا في صفين خساسة عمرو يوم كشف عن عورته لينجو بنفسه من موت محقق وشهامة علي يوم ابتعد عن عمرو، ولم يُلوث سيفه بدم عمرو وأضاع فرصة كان يتمناها كل قائد عسكري.

صحيح أنه أضاع فرصة ذهبية لكنه سطر اسمه بحروف من ذهب ورسم بهذهِ السيرة العطرة صورة للبطولة ستبقى خالدة مدى الأجيال كم فرصة ضيعها عليّ بحسب مقاييس السياسة المكيافلية. فقد كان باستطاعته أن يحتجز طلحة والزُبير عندما أرادا مغادرة المدينة وكان على يقين بأنهما سيتآمران عليه. وكان باستطاعته أيضاً أن يعتقل مصقلة قبل أن يذهب إلى معاوية وكانت علامات الخيانة بادية عليه.

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٠٩.

فرصٌ كثيرة تركها علي عليه السلام تذهب أدراج الرياح غير مأسوفٍ عليها لأنه لا يريد أن يؤسس كماً مكيافلياً. وهو قادر على ذلك حيث يقول..

والله ما معاوية بأدهى مني. ولكنه يغدر ويفجر لولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس.. بينما أعداءه المكيافيليون كانوا ينتهزون كل فرصة بمجرد أن أحسوا أن هناك خلافاً بين علي وأحد ولاته سارعوا إلى استغلاله. لقد استغلوا عدالة علي في تقسيم بيت المال. واستغلوا حلم علي، واستغلوا عفوه وتواضعه.

إن مشكلتهم وليست مشكلته أنهم استغلوا عظمته واعترفوا بها.

فهذا معاوية يقول عن علي.

كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فضلاً ويحكم عدلاً، يفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنسُ بالليل ووحشته[1].

وهو بهذه الخصال الحميدة لا يحبُ أَحداً يمتدحه، ويتثاقل من سماع أحد أصحابه وهو يشدو في مدحه، فلا يتمالك إلا ليمنعه بأدب بليغ يقول: فلا تكلموني بما تكلم الجبابرة. ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استثقل الحق أن يُقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفوا عن مقالةٍ بحق أو مشورة بعدلٍ فإني لستُ في نفسي بفوق أن أُخطىء ولا آمن ذاك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا[2].

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٢٠.

(٢) محمد عبده نهج البلاغة ج١، ص٤٥٩.

العلاج التربوي للصراع السياسي

شَخّص الإمام علي عليه السلام قضية صفين في فرد طامع في السلطة، هو معاوية بن أبي سفيان، فقد تمكن بدهائه أن يلف حوله جمعاً من المنتفعين وأرباب المصالح ويأتي بهم إلى قتال الإمام علي عليه السلام.

فكيف كان الإمام سيتعامل مع أشخاص على نمط معاوية؟

١ ـ النصيحة.

٢ ـ التحاور.

٣ ـ حصر التضحيات بأقل قدر ممكن.

ففي مجال النصيحة بالغ الإمام علي في نصح معاوية فقد بعث إليه أكثر من خمس عشرة رسالة ابدى فيها كل قدر من النصيحة وعبّد فيها الطريق إلى الإثابة والمغفرة.

وفيما يلي نورد بعض عبارات النصح في رسائل مختلفة.

ولعمري يا مُعاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ولتعلمنَّ أني كُنتُ في عُزلةٍ عنه إلاّ أن تتجنى فتجنَّ ما بدا لك والسلام.

وكيف أنت صانعٌ إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دُنيا قد

تبهجت بزينتها وخدعت بلذتها دعَتك فأجبتَها، وقادتك فاتَّبعتها وأمرتك فأطعتها. وخذ أهبة الحساب وشمِّر لما قد نزل بك.

ومتى كنتُم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمرِ الأمة بغير قدمٍ سابق ولا شرف باسقٍ.

وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً واخرج إليّ، واعفِ الفريقين من القتال لتعلَمَ أيُّنا المرَينُ على قلبه.

وزعمت أنك جئت ثائراً بدم عثمان. ولقد علمت حيث وقع دمُ عثمان فاطلبهُ من هناك إن كنت طالباً.

واتق الله فيما لديك وانظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة لا تُعذرُ بجهالته.

أما بعدُ فإن الدنيا مشغلةٌ عن غيرها ولم يُصب صاحِبُها منها شيئاً إلا فُتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها، ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغهُ منها.

وأما بعدُ فإن الله سُبحانه قد جعل الدُنيا لما بعدها وابتلى فيها أهلها ليعلم أيهُم أحسنُ عملا.

ولسنا للدنيا خُلقنا ولا بالسعي فيها أُمِرنا. وإنما وضعنا فيها لنبتلي بها.

أما بعد فإن كنا نحن وأنتم على ما ذكرتَ من الألفة والجماعة، ففرقَ بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتم.

أما بعدُ فقد آن لك أن تنتفع باللمح الباصِر من عيان الأمور، فقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرورَ المين والأكاذيب وبانتحالك ما قد علا عنك وابتزازك لما قد اخترنَ دونَكَ فراراً من الحق، وجحوداً لما هو ألزمُ لك من لحمِكَ ودَمِكَ. مما قد وعاه سمعك ومُليء به صدرُك فماذا بعد الحق إلا الضلال المُبين، وبعد البيان إلا اللبس، فاحذر.

الشُبهة واشتمالها على لُبستها. فإن الفتنة طالما أغدقت جلابيبها وأغشت الأبصار ظُلمتُها.

ولم يكتف الإمام بالنُصح بل أخذ يحاور معاوية في رسائل متبادلة بصورة مباشرة وعبر وسائط. وفي بعض الرسائل المتبادلة أدحض الإمام حجج معاوية وسفّه آرائه بحججه البليغة.

ومعاوية وكأي طاغية لا منطق له ولا حُجة، لأنَّ وجوده وكيانه قائمٌ على باطل وخطأ. وجواباً على سلسلة من الرسائل التي بعثها الإمام ردّ معاوية برسالة بيضاء لم يكتب فيها إلاّ بسم الله الرحمن الرحيم. وأرسل الرسالة مع رجلٍ من عبس، فأدرك الإمام أنه يُريد الحرب.

وإذا كان معاوية يُريد الحرب، فلا بُد أن يدفع ثمنه هو وليس غيره، فكانت سياسة الإمام تقضي بحصر المعركة في دائرة صغيرة هي شخص معاوية.

فخطب في أصحابه قائلاً لهم.

لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم بحمد الله على حجة، وتركُكم قتالهم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ولا تُجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورةً ولا تمثلوا بقتيل[1] وحاول الإمام إن يستدرج معاوية إلى القتال. فنادى بأعلى صوته: يا معاوية فأجابه فقال ما تشاء يا أبا الحسن، قال علي علامَ يقتتل الناس ويذهبون على مُلكٍ ان نلته أنا كان لي دونهم؟! ابرز إليّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب[2].

وعندما رفض معاوية المبارزة المباشرة اضطر الإمام إلى تعديل الخُطة فأخذ يأمر الرجُل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه ويخرج إليه

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٩٣.

(٢) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص١٠٦.

آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة فيقتتلان في خيلهما ثم ينصرفان، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام. لما خافوا أن يكون فيه من الاستئصال والهلاك[1] فقد عمل الإمام من أجل أن لا تكون هناك معركة شاملة لأن ضحاياها ستكون كبيرة جداً. فكانت استراتيجيته هي إطالة الفترة الزمنية لعلهم يثوبون إلى رُشدهم ويتركوا غيّهم، ويعودوا إلى الشرعية، لكن دون جدوى فقد تحطمت خطط الإمام أمام إصرار معاوية على الحرب ظناً منه بأنه في أحسن الأحوال. وإنّ علياً عليه السلام في أتعس الظروف بعد الذي جرى في معركة الجمل.

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٢٨٦.

الخوارج.. والانحراف الفكري

برزت حركة الخوارج كظاهرة ناجمة عن تراكمات معركتين ألقت بثقلها على كاهل المسلمين وهما من أشدّ المعارك ضراوة وتعقُداً لأنها كانت بين المسلمين أنفسهم. أو أنها بين الشرعية الإسلامية والثائرين عليها. فبروز حركة الخوارج مسألة قد تكون طبيعية في أجواءٍ من الصراع العنيف. رافقتها الشكوك الكثيرة والتيارات المتطاحنة. أما مسؤولية الإمام أمير المؤمنين فكانت في توجيه دفة الأمور إلى ساحل الإسلام فإن الحروب والمشاكل لم تمهل الإمام ليُباشر توجيه الأُمة فكرياً وروحياً وسياسياً كي تعود إلى سابق عهدها. وتقفز على مشاكلها ونواقصها فقد بقيت ثمة نواقص كثيرة لم يكن باستطاعة أحد معالجتها في ظروف الحرب والصراع، ومنها قضية الربط بين القرآن والواقع.

فالقرآن الكريم ليس مجرد كلمات بل هو مواقف ومعايشة وأنُه تجسّد في البشر. تجسّد في الخيرين وتجسد في الأشرار.

فعندما يكون حديث القرآن عن آيات الخير، فهناك من جسَّد تلك الآيات وعندما يكون الحديث عن آيات الشر فهناك من جسّد الشرّ.

لقد أدرك المسلمون الأوائل هذا الربط بين القرآن والبشر، فكان من الواضح لديهم أنهم يجسدون وبقيادة الرسول ﷺ العنصر الطيب من

القرآن. كما وأنّ طغاة قريش هم التجسيد المنطقي للعنصر الشرير في القرآن.

وبسبب الصراع الذي لم يفهم البعض مغزاه ولا أسبابه ولا ظروفه، وبسبب من فقدان الثقة. انقطع هذا الربط أو تزعزع إلى حد أن البعض أخذ يُنادي أن لا حكم إلا لله دون أن يدرك مقصوده، وأبعاد شعاره.. وفي التحليل تعود ظاهرة الخوارج إلى عاملين:

أولاً: الإحباط النفسي

وتعود ولادة حركة الخوارج إلى ما بعد قبول الإمام علي عليه السلام بالتحكيم. وكان لا بُدّ مِن وقفه على الظروف النفسية التي أعقبت هذا الاتفاق.

فقد كان معاوية على وشك الهزيمة المُنكرة إذ لم يبقَ من جيش الشام سوى الفلول القليلة. وكان عليه أن يستخدم ما يمتلك من دهاء ومكرٍ، فاخترع فكرة رفع المصاحف والتحكيم. وتلقى الإمام هذه الخطوة بشيء من اللامبالاة لأنه كان يعلم أنها مجرد خُدعة لتطويق النصر إلاّ أن تسرب الفكرة إلى أفراد آخرين من قواته جعلُه يقف بوجه التحكيم وكأنه يُواجه مؤامرة كُبرى. لكن دون فائدة، فقد أخذ البعض من القادة العسكريين يوجّه ضغوطاً مباشرة إلى الإمام للموافقة على التحكيم إما لهوى في أنفسهم أو لأنهم كانوا يُشكلون طابوراً خامساً يعمل لصالح معاوية في جيش الإمام علي أو أنهم تعبوا من الحرب فقرروا التخلص منها بهذه الطريقة، وقد يكون البعض مخلصاً صادقاً معتقداً أن التحكيم فعلاً الوسيلة المتاحة للوقوف بوجه الأزمة.

واضطر الإمام إلى القبول بالتحكيم وهو على بينة تامة من نتائجه. وتوقفت الحرب التي كانت في لحظاتها الأخيرة وهي تؤشر بأنّ النصر سيكون حليف الإمام.

واستعاد جيش الشام المهزوم عافيته، وعاد كقوة عسكرية ضاربة، واستعاد معاوية وعمرو بن العاص مكانتهما في الجيش الأموي بعد الذي نالاه أيام الحرب الطاحنة من مهانة وذلة.

وكان أمراً بديهياً أن يُصاب البعض في جيش علي عليه السلام بالإحباط النفسي، ولربما أدى هذا الاحباط إلى حالة من تزعزع الثقة بالنفس وبالقيادة، عند أُولئك الذين لم يفهموا جيداً العلاقة العضوية بين أشخاص يطبقون القرآن والقرآن نفسه وهم جمعٌ من الحرفيين الذين يفهمون القرآن حروفاً وكلمات وحسب، فقد كان صعباً على هؤلاء أن يُشاهدوا ما آلت إليه الحرب من تحكيم، وكان هؤلاء بحاجة إلى شيء من التحليل ليدركوا الأمور على واقعها، لكنهم حرفيّون غير قادرين على التحليل..

ثانياً: إستغلال الحرية

وشجّع على ظهور حركة الخوارج أجواء الحريّة التي كانت تسود معسكر الإمام علي عليه السلام وعندما نأخُذْ هذه الناحية بعين الاعتبار لأصبحنا نتعامل مع حركة الخوارج، كحركة طبيعية تنشأ في أجواء الحرية حيث يُسمح للفرد أن يُفكر بحرية وأن يتكلّم بحرية، بخلاف أجواء الدكتاتورية التي كان يفرضها بني أمية، حيث لم يدع الناس ليفكروا إلاّ بما يُفكّر به معاوية ولا يتكلموا إلا بما يُريده معاوية. فمما ساعده على بروز الحركة تجرؤ رؤساؤها على أمير المؤمنين والوقوف قباله والتكلم معه بكل حرية وكأنه واحدٌ منهم.

يقول الطبري:

لما أراد علي أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج. زُرعة بن البُرج الطائي وحرقوص بن زُهير السعدي، فقال: لا حُكم إلاّ لله، فقال علي: لا حُكم إلا لله: وقال حرقوص بن زُهير: تُب من خطيئتك

وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا: فقال علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهوداً. وقد قال الله تعالى ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ فقال حرقوص: ذلك ذنبٌ ينبغي أن تتوب عنه، فقال علي: ما هو ذنب ولكنّه عجزٌ عن الرأي وقد نهيتُكم فقال زُرعة: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك، أطلب وجه الله تعالى: فقال علي: بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تُسفي عليك الرياح قال: وودتُ لو كان ذلك، فخرجا من عنده يحكمان[1].

وأخذت الحركة تنتشر في صفوف المقاتلين وأخذوا يثيرون الفوضى في المسجد أثناء خطابات الإمام إذ كانوا يرفعون أصواتهم لا حُكم إلا لله، وكان الإمام يُقابلهم بنداء الله أكبر كلمة حقٍ أُريد بها باطل[2] وذلك لامتصاص شعاراتهم، لكن مع الزمن تفاقم الأمر وازداد الخوارج تجرّؤاً على الإمام.

وفي إحدى خطبه وثب يزيد بن عاصم المحازي فقال:

الحمد لله غير مودع ربّنا ولا مستغني عنه، اللهم إنا نعوذُ بك من اعطاء الدنية في ديننا فإن اعطاء الدنية في الدين إدهانٌ في أَمر الله وذلٌّ راجع بأهله إلى سخط الله، يا علي أبالقتل تخوفنا؟ أما والله إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات، ثم لتعلم أيُنا أولى بها صلياً[3].

وقد أتينا إلى خطبة يزيد لندلل من خلالها على أجواء الحرية التي وفرها الإمام لأصحابه وإلى أي مستوى بلغه قادة الخوارج من تمادي في استغلال هذه الأجواء في الجهر بدعوتهم.

---

(١) الطبري ج٥، ص٧٢ الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٣٤.
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٣٤.
(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٣٥.

وأخذت حركتهم في الاتساع وتحولت من حالة فردية إلى حالة جماعية، فاجتمعوا في بيت أحدهم. وانتخبوا لهم قيادة واختاروا لهم مقراً. وأخذوا يراسلون من يُؤيدهم في السرِّ حتى أصبحوا قوة في حروراء بالقرب من الكوفة[1].

موقف الإمام علي عليه السلام من الخوارج

عالج الإمام علي عليه السلام ظاهرة الخوارج على مرحلتين:

المرحلة الأولى عندما لم تتجاوز مشكلتهم نطاق المعارضة الفكرية والسياسية.

المرحلة الثانية عندما بدأ الخوارج يمارسون حريمة القتل وسلب الأمن والراحة من المسلمين عندها كان لعلي عليه السلام موقفاً آخر. لننطلق من البداية.. فقد لخّص الإمام موقفه من الخوارج قائلاً لهم:

لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه أي إن الخوارج ليسوا كأصحاب معاوية وأصحاب الجمل، فإذاً هناك التباس وقع فيه الخوارج، ومنشأ هذا الإلتباس كما ذكرنا هو أنهم فهموا القرآن على أنه مجرد كلمات وأحرف ولم يدركوا صلة القرآن بالسُنة وصلته بالأئمة فكان لا بد من توضيح هذه الحقيقة لهم: قال أمير المؤمنين: هذا القرآن إنما هو خطٌ مستورٌ بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بُدَّ له من ترجمان وإنما ينطقُ عنه الرجال[2].

وواصل الإمام نصائحه.

فإن أبيتم إلاّ أن تزعمُوا أني أخطأتُ وضللتُ فلم تُضللون عامة أمة

---

(١) حروراء قرية من قُرى الكوفة بينها وبين الكوفة نصف فرسخ (الروض المعطاء في خبر الأقطار ص١٩٠).

(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٨، ص١٠٣.

محمد ﷺ بضلالي وتأخذونهم بخطئي وتكفرونَهُم بذنوبي سُيوفُكم على عواتِقكم تضعُونها مواضِعَ البُرء والسُقم وتخلطون من أذنب بمن لم يُذنب، وقد علمتُم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه، ثم ورثه أهلهُ وقَتل القاتل وورث ميراثَهُ أهلهُ وقطع السارق وجلد الزاني غير المُحصن ثم قسم عليهما من الفيء ونكحا المُسلِماتِ، فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حقّ الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم في الإسلام، ولم يُخرج أسماءهُم من بني أهِلهِ، ثم أنتم شِرارُ الناس، ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه. وسيهلك فيّ صنفان، مُحبٌ مُفرِطٌ يذهبُ به الحُبُّ إلى غير الحق، ومبغضٌ مفرط يذهبُ به البغض إلى غير الحق وخير الناس فيّ حالاً النمطُ الأوسط فالزموه، والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكُم والفرقة[1].

وأرسل ابن عباس للإحتجاج عليهم ووصاه بهذهِ الوصية.

لا تُخاصمهم بالقرآن فإنّ القرآن حمَّالٌ ذو وجوه، تقولُ ويقولون، ولكن حاججهُم بالسُنَّة. فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً[2].

فيعرفوا من السنة موقف القرآن من النبي ﷺ.. وسيعرفوا القرآن نفسه لأنّ القرآن بحاجة إلى تفسير والسنة هي مبينة للقرآن، ولا يمكن أن يُؤخذ القرآن بلا سُنة الرسول ﷺ.

وخرج الخوارج من الكوفة.. وانطلق أنصار الإمام ليعلنوا عن موقف ثابت لا يلين ولا يتزعزع أمام المغريات.. وقفوا قبال قائدهم وإمامهم ليقولوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، فشرط لهم فيه سُنة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) الدليل ص٥٧٤.

(٢) الدليل ص٥٧٦.

(٣) الطبري ج٥، ص٧٦ الكامل ج٣، ص٣٣٧.

وبقي الإمام راسخاً عند موقف من الخوارج يُرسل إليهم الرُسل والكُتب لعلهم يرجعوا عن غيّهم ويتوبوا إلى رُشدهم، لكن دون جدوى. ذلك لأن المشكلة لا تنحصر في النطاق الفكري وحسب بل هناك حالة من الهزيمة النفسية أصيب بها جيش الإمام علي عليه السلام بسبب توقف الحرب في لحظات النصر. فالعلاج إذن هو العودة إلى قرار الحرب. من هنا أخذ الإمام يستعد لفصل آخر من الحرب التصحيحية مع معاوية. فقد بدت الحرب مشروعة هذه المرة لأنّ مؤامرة التحكيم بدت مكشوفة حتى أمام أولئك الذين دعوا إلى التحكيم. كما وأن الحكمين خالفا القرآن والسنة النبوية بإقرارهم لمعاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين مع ما عليه من مآخذ، أخذ الإمام يعبّىء المسلمين للقتال لأن الفتور سيزيد من حالة الإحباط الأمر الذي سيؤدي إلى تقوية جبهة الخوارج وكانت غايته الأُولى هي إعادة الخوارج إلى بيت الطاعة، ولم يذعن لالحاح أصحابه الذين صنفوا الخوارج ضمن أولوية المواجهة، فكان الإمام يقولُ لهم بلغني أنكم قُلتُم كيت وكيت! وإن غير هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا! فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً ويتخذوا عباد الله خولا[1] لكن تغيّر موقف الإمام كُليّاً نتيجة حادث مؤسف وصفها الطبري وابن الأثير بهذه الصورة:

لما أقبلت الخارجة من البصرة حتى دنت من النهروان رأى عصابةٌ منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار، فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خبّاب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم قالوا: لا روع عليك، حدثنا عن أبيك حديثاً سمعهُ من رسول الله صلى الله عليه وآله تنفعنا به، فقال: حدثني أبي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: تكون فتنة يموتُ فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يُمسي فيها مؤمناً ويُصبح

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤١.

كافراً ويُصبح كافراً ويُمسي مؤمناً: قالوا: ألهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقاً في أولها وفي آخرها. قالوا فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً. فأخذوه فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته، وهي حُبلى مُتمّ، حتى نزلوا تحت نخل مواقر، فسقطت منه رُطبة، فأخذها أحدهم، فقذف بها في فمه، فقال آخر أخذتها بغير حلها وبغير ثمن، فألقاها، ثم مرّ بهم خنزيرٌ لأهل الذمة، فضربه أحدهم بسيفه فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى مما عليّ منكم من بأس إني مسلمٌ ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً، ولقد آمنتموني قلتم: لا روع عليك فأضجعوه فذبحوه، فسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتقون الله، فبقروا بطنها. وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية. فلما بلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس، بعث إليهم الحارث بن مُرّة العبدي ليأتيهم وينظر ما بلغهُ عنهم ويكتب به إليه ولا يكتمه فلما دنا منهم يسائلهم قتلوه وأتى علياً الخبر والناس معه فقالوا: يا أمير المؤمنين عَلام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا: سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام[1].

وكان لمقتل عبد الله بن خباب بهذه الكيفية المتوحشة دويّ واسع، ووجد الإمام نفسه أمام قضية جنائية لا بُدّ له من التصدي لها. قبل أن يستشري ويعمُّ فساد هذه الفرقة الضالة. فأرسل إلى الخوارج يطلبُ منهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم، أقتلهم بهم ثم أنا تاركُكم وكافٍ عنكم حتى

(١) الطبري ج٥، ص٨١ ـ ٨٢ الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

ألقى أهل المغرب، فلعلّ الله يُقبل بقلوبكم ويردُّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فقد كان الإمام مُصراً على المعركة مع معاوية إذ لم يجد حلاً لتمادي معاوية وتراجع الخوارج عنه إلا بالحرب.. لكن ماذا يستطيع أن يفعل، وقد واجه الخوارج بهذا الجواب. كلنا قتلهم وكلنا مستحلٌ لدمائكم ودمائهم[1].

وتحدث معهم قيس بن سعد علّه يلين قلوبهم للحق ثم تكلم أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله، ومن نزل في بيته عند هجرته إلى المدينة، وأبلغ لهم النصح ثم تحدث معهم أمير المؤمنين علي عليه السلام وحاجج قادتهم فلم يكن لهم أيَّ جواب على استفهاماته قائلين بأعلى صوتهم: (لا تخاطبوهم ولا تكلّموهم وتهيأوا للقاء الله، الرواح الرواح إلى الجنة)[2].

وعندما أدرك الإمام أنهم مصرون على الحرب أعطى لأبي أيوب الأنصاري راية الأمان. فقال من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومَن لم يقتل ولم يستعرض ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نُصيب قتلة أخواننا منكم في سك دمائكم.

إذن الهدف هو إنزال حكمُ القصاص بالقتلة. وأخذت النصيحة تُعطي مفعولها.

بدأ الوعي يدبّ في العقول.. قال فروة الأشجعي وهو من الخوارج: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً أرى أن أنصرف حتى يتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه، فانصرف في خمسمائة فارس[3].

ولم يبق مع عبد الله بن وهب سوى ألف وثمانمائة بعد أن كان عددهم

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤٣.
(٢) الطبري ج٥، ص٨٥.
(٣) الطبري ج٥، ص٨٦ الكامل ج٣، ص٣٤٦.

أربعة آلاف[1] وسارع عبد الله بن وهب في الهجوم قبل أن ينفرط جمعهم فكانت المعركة وكانت النهاية المنتظرة للخوارج حيث لم ينج من القتل سوى بضعة أنفار بينما لم يقتل من أصحاب علي إلاّ سبعة[2].

ديمقراطية الخوارج

انبهر بعض المؤلفين بالخوارج ونعتوهم بأحلى الألقاب ووصفوهم بأجمل الأوصاف فقد قال عنهم الأستاذ حسن إبراهيم حسن صاحب مؤلف تاريخ الإسلام السياسي، بأنهم يمثلون الديمقراطية الإسلامية[3] ولا ندري سبب انبهارهم بالخوارج هل لأنهم يشكلون فئة معارضة أم لأنهم عارضوا الإمام أمير المؤمنين؟ وإن بغضهم للإمام جعلهم يمتدحون أعدائه، ولا ندري من أين جاء الأستاذ حسن إبراهيم بمصطلح الديمقراطية الإسلامية. إنّ مجرد اطلاق هذا المصطلح هو تجنّي على الإسلام لأنه لا يقر بمبدأ السيادة للأمة بل يعلنها صراحة إن السيادة للشرع إن الحكم إلا لله أمران لا تعبدوا إلاّ إياه. كما وأنه جهلٌ بالديمقراطية. لأن أساس الديمقراطية هو حكمُ الشعب وليس في الإسلام من يقول بحكم الشعب إلاّ الذين لم يفهموا الإسلام على حقيقته هذا من جانب ومن جانب آخر نسأل الأستاذ حسن ماذا وجد في التاريخ ما يُشير ولو بقدر أظفر أن الخوارج ديمقراطيون فهل كان جوابهم لعبد الله بن خباب عندما قتلوه هو وزوجته وقتلوا جنيناً في رحمها عندما شمّوا منه رائحة الولاء لعلي. هل كان عملهم هذا ديمقراطياً، فإذا كانت هذه هي الديمقراطية فللاستاذ حسن إبراهيم الحق في نعته لهم.

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤٦.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤٨.

(٣) انظر صفحة ٣٧٦ الجزء الأول من تاريخ الإسلام السياسي الطبعة ٧ للأستاذ حسن إبراهيم حسن.

ويا ليت قرأ الأستاذ إبراهيم التاريخ بموضوعية. فلو كان موضوعياً لوجد أن الإمام علي عليه السلام هو الديمقراطي بحسب اصطلاحه ومفهومه للديمقراطية. فقد حاججهم وسمع أقاويلهم لكنهم سدّوا آذانهم ولم ينبسوا ببنت شفه سوى اصرارهم على القتال.

لقد كان الإمام رقيقاً للغاية معهم.

ويا ليت قرأ الأستاذ حسن إبراهيم هذه الحكاية عن أحد زعماء الخوارج وهو ابن الكواء كان علي عليه السلام في صلاة الصبح فقال ابن الكوا[1] من خلفه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

فأنصت الإمام علي عليه السلام تعظيماً للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته، ثم أعاد ابن الكواء الآية فأنصت علي عليه السلام أيضاً ثم قرأ فأعاد ابن الكوّاء، فأنصت علي عليه السلام ثم قال ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[3] ثم أتى السورة وركع[4].

وذكرنا فيما سبق موقف أمير المؤمنين من الذين كانوا يقاطعونه فيجيبهم ولا يمسهم بسوء وكانت سياسته أن يضل متحاججاً معهم حتى يذعنوا للحق فمن هو الديمقراطي إذاً على مفهوم الكاتب؟

هل هو علي أم الخوارج. والطريف أن الكاتب نفسه ذكر في الصفحة التالية (ص٣٧٧) ما يناقض كلامه تماماً فقد ذكر بالنص:

(ولكن أمر هذا الحزب الجديد (يعني الخوارج) يدعو إلى العجب،

---

(١) ابن الكوا هو عبد الله بن عمرو من بني يشكُر من بكر بن وائل كان خارجياً، وكان كثير المساءلة لعلي يسأله تعنتاً قتل مع الخوارج يوم النهروان.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الروم، الآية: ٦٠.

(٤) المجلسي بحار الأنوار ج٤٦، ص٤٨.

فإنهم لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرز هذا الخروج لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم، وإن علياً لم يقبله إلا بعد أن اكرهوه على قبوله، فكيف إذن يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ما أبرموه. ثم يُستنتج قائلاً:

وصفوة القول إن هذه الطائفة الجديدة بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب، كما قال لهم عليّ حين رددوا قولتهم المشهورة (لا حكم إلا لله) كلمة حق يُراد بها باطل[1].

على أي حال فإن مجرد ذكر هذه الحقيقة تؤكد لنا أن المؤلف قد أدرك حقيقة الخوارج، لكنه لم يعترف في النهاية أن هذه الحقيقة تتناقض والإدعاء بأنهم ديمقراطيون إسلاميون.

---

(١) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

السياسة العامة للإمام علي عليه السلام

أشرنا في فصول هذا البحث إلى حقيقة ثابتة هي أن الفرصة لم تتح للإمام لإنشاء الدولة بكامل مؤسساتها المعروفة كما هي اليوم ولو كانت الفرصة مؤاتية للإمام لتطبيق نظريته في الدولة بصورة كاملة والتي أعلن عنها لمالك الأشتر لامتلكنا اليوم تُراثاً ذو قيمة حضارية عن دولة الإمام علي، لكن انشغال الإمام في الصراع المرير ودخوله في معركة بعد خروجه من معركة أخرى فوّت عليه وعلى الأمة فرصة ذهبية في إنشاء دولة تستند إلى القانون وتقر للإنسان بحقوقه وتضع أمامه الواجبات ولتكشف من خلال دولة الإمام علي الكثير من مجاهيل السياسة الإسلامية. لكن وعلى رغم افتقار الإمام لتلك الفرصة التي كان ينتظرها لإرساء دعائم الكيان الإسلامي إلاّ أن المقدار الذي جرى تطبيقه من الفكر السياسي للإمام من خلاله ومن خلال ولادته ليس بالشيء القليل، وقد ألمحنا في الموضوعات السابقة إلى قسم وسنضيف ما لم نشر إليه في هذا الفصل.

لكن قبل أن نخوض غمار الحديث عن السياسات العامة للإمام كان لا بُدّ من الإشارة إلى حقيقة هامة هي.. أننا لا نستطيع أن نفهم الإمام ونفهم دوافع سياساته ومتبنياته في الحكم إلا من خلال ما يلي:

١ ـ القرآن وما جاء فيه من قواعد للحكم.

٢ ـ السيرة النبوية وما تبناه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من أساليب للحكُم.

٣ ـ الإسلام وما يطمح إليه ويسعى إلى تحقيقه في بناء المجتمع الفاضل وبناء الفرد المؤمن بتركيز المبادىء والقيم التي جاء بها القرآن.

٤ ـ المسلمون الذين بايعوا الإمام أمير المؤمنين والذين عارضوا الفجوات في حكم الخليفة عثمان وحكم ولاته.. فكان على الإمام أن يكون وفياً لهؤلاء.

٥ ـ ومن خلال الإمام نفسه حياته قبل أن يستلم المسؤولية، زهده وتقواه وتمسكه بالحق وعدم المساومة والمداهنة مع الباطل حتى لو كلفه ذلك دمُه.

كان يفترض بالذين انتقدوا سياسة الإمام وهم عدد لا بأس به من الكتاب المعاصرين الإسلاميين والمستشرقين أن ينتزعوا أنفسهم من القوالب السياسية المتعارف عليها حالياً وأن يتعايشوا مع القرآن والسُّنة ومقاصد الإسلام وقيمه والمسلمين الذين بايعوا الإمام، والإمام نفسه، حينذاك كان باستطاعتهم أن يكتبوا بموضوعية وببصيرة ثاقبة ولما تجرأ بعضهم القول علي عليه السلام رجل غير حازم على الإطلاق ولا يمكن أن يوصف قائدٌ من طرازه بأنه سياسي ناجح[1]. كما ذكرها هادي العلوي في مؤلفه في السياسة الإسلامية الفكر والممارسة.

كيف استطاع هذا الكاتب أن يكتشف أن علياً ليس بسياسي ناجح؟

فهل بتركه لطلحة والزُبير ليغادرا المدينة ويتآمرا عليه مع علمه بقصدهما ويقينه بأنهما يتآمران عليه وكان باستطاعته منعهما من الفرار أم بقراره إزاحة معاوية عن الولاية؟

أم لأنه لم يقتل عمرو بن العاص لما كشف له عن عورته؟

أم لأنه عفى عن مروان بن الحكم وعفى عن عبد الله بن الزُبير وترك أم المؤمنين تعود إلى المدينة معززة مُكرّمة؟

---

(١) أنظر هادي العلوي في السياسة الإسلامية الفكر والممارسة ص٨٣.

هل لأن علياً الذي لم يُقم حُكماً بوليسياً يعتقل الناس فيه على الظنة ويُحاكمهم على التهمة؟

وهل لأنه ترك أجنحة المعارضة لتنشط وتعمل بحرية شاملة؟

وهل لأنهُ أراد أن يكون وفياً للذين بايعوه للخلافة؟

وهل لأنهُ لم يرد كُرسياً مُزخرفاً ولا حاشية ولا حرساً خاصاً كما هو المتعارف عند السلاطين والملوك؟

هل لهذه الأسباب أصبح عليٌ سياسياً غير ناجح. فما هو مقياس التقييم. وما هي السياسة التي يفهمها الكاتب؟ هل هي المكيافيلية التي يُمارسها حكام الجور؟ لو نظر المؤلف إلى علي بنظرة انصاف ولو لمرة واحدة لوجد أن علياً سياسي ناجح بدليل أن البشرية اليوم تمجّد مواقفه وتُكرم اسمه وتحفظ نهجه وتهتدي بكلماته. فأين معاوية اليوم من علي عليه السلام.

إذن لا يخدعنا النجاح الموقت الذي أحرزه معاوية بالدهاء والحيلة، فما الذي أعقب هذا النجاح؟ أين هو معاوية اليوم في أية زاوية من التاريخ. وأين هو عليّ الذي أصبح العظماء يلهثون باسمه ويستلهمون من حكمته في نهج البلاغة.

فلهذا المؤلف ولغيره ولكل من يُريد الحقيقة نقول اقرأوا علياً بتمعن ثم بعد ذلك أحكموا عليه. هل كان سياسياً أم لا. ونحن هنا نُدلي ببعض ما أرخه لنا المؤرخون من فنون السياسة التي مارسها الإمام علي في الشؤون المختلفة.

أولاً: السياسة الإدارية

كان التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية يقوم على نظام الولايات فكانت الدولة مقسمة إلى مجموعة ولايات ولاية الكوفة وولاية البصرة وولاية الشام وولاية مصر وولاية البحرين وبمجيء الإمام علي إلى الخلافة عزّز هذا النظام وذلك بأن أعطى للوالي صلاحيات واسعة فتحول الحُكم إلى نمط من اللامركزية، ويلاحظ هذا التغير في نمط تنظيم الولاية من

ولايته عليه السلام لمالك الأشتر عندما ولاه مصر، فقد أعطى لواليه صلاحية تشكيل مجلس للشورى وأعطاه صلاحية تعيين العمل وعزلهم وأعطاه صلاحية وضع الخطط الاقتصادية والثقافية وأكثر من ذلك منح وليه صلاحية وزارة الخارجية في تشخيص العلاقات في حالتي الحرب والسلم وهو غير موجود في نظام الولايات المعمول به حالياً في بعض الدول المتقدمة والولاية بهذه الصلاحيات بحاجة إلى والي قوي يتمكن من الإدارة، فكان يدقق كثيراً في اختيار الولاة وعُرف عنه شدته في الاختيار وعدم التساهل مع الوالي الضعيف وعُرف عنه أيضاً حرصه على محاسبة الولاة في الصغيرة والكبيرة، ومشهورٌ عنه محاسبته لابن حنيف في رسالته المعروفة التي ذكر فيها:

أما بعد يابن حُنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تُستطابُ لك الألوان. إلى آخر الرسالة[1].

هكذا كان دقيقاً في المحاسبة حتى على أمرٍ صغير اقترفه الوالي وهو حضوره مأدبة ليس فيها أحد من الفقراء وفي زمن الإمام توسعت الولايات، خاصة الكوفة التي أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية. أما البصرة فقد ساهمت في المعارك ودخلت الصراع فتحولت إلى تجمّع بشري متهيّىء دائماً للقتال. ومع اتساع هاتين الولايتين اللتين كانتا تمدّان الدولة بالجنود كان لا بُدّ من تقسيم اداري لهما فقسّم الإمام الكوفة إلى سبعة أسباع وقسّم البصرة إلى أربعة أرباع. وهذه التقسيمات كانت إدارية وليست عسكرية كما اعتقد البعض[2].

فقد أورد المجلسي في بحار الأنوار عن عاصم بن كُليب عن أبيه أنه قال: أتى عليّ بمال من اصفهان ـ وكان أهل الكوفة أسباعاً، فقسّمه سبعة

---

(١) الدليل ص٧٢١.

(٢) أنظر هامش صفحة (ج) من الغارات للثقفي.

أقسام[1] فالراوي يقول (وكان أهل الكوفة) ولم يذكر شيئاً عن الجنود أو الجيش. منها يتبين أن نظام التقسيم السُباعي كان تقسيماً إدارياً وليس عسكرياً وذلك لتسهيل إدارة الولاية. من كل ما تقدم نلاحظ أن هناك أهدافاً محددة كان الإمام يسعى إلى تحقيقها من خلال تنظيمه الإداري وهذه الأهداف هي.

١ ـ تخفيف العبء عن المركز بتوزيع المسؤوليات والمهام على الولايات المختلفة.

٢ ـ تسهيل عملية التوزيع لبيت المال.

٣ ـ تعميق مبدأ التعددية السياسية والإجتماعية في ظل الإمامة التي تقوم بدور الجامع لهذه التعدديات.

وقد لاحظنا الفروقات الاجتماعية بين أهالي الولايات المختلفة الشام، مصر، الكوفة، البصرة وحتى الولاءات السياسية مختلفة في هذه الولايات، فالتعددية هي ظاهرة قائمة لا يمكن نكرانها لكنها بحاجة إلى مظلة تُساهم في توجيه هذه التعددية لأهداف مشتركة تتبناها الدولة الإسلامية.

ثانياً: السياسة الداخلية

هناك خيط ارتباط بين السياسة الإدارية والسياسة الداخلية ونقاط افتراق بينهما، فالإدارة هي تنظيم للمجتمع بينما السياسة الداخلية تأمين وضع أفضل للمجتمع في الأمن والاستقرار فالسياسة الإدارية هي تقسيم المجتمع الإسلامي إلى مراكز ووحدات بينما السياسة الداخلية تُعنى بتوحيد هذا المجتمع وجعله مجتمعاً متقارباً متآخياً مساهماً في العمل الجاد.

وكان للإمام علي عليه السلام محاور في سياسته الداخلية ظلّ متمسكاً بها طيلة فترة حكمه هذه المحاور هي:

١ ـ تعزيز وحدة الأمة الإسلامية في وقت دبّ فيه الشقاق والاختلاف

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١١٨.

اجزاء من الجسد الإسلامي، فقد كافح أمير المؤمنين ظاهرة التمزّق أيّما مكافحة فكان يوصي المسلمين: والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة[1] نظر الإمام إلى واقع المسلمين وكيف تفرقوا إلى احزاب، قسمٌ في الشام يوالون معاوية، وقسمٌ مع طلحة والزبير فلم يكن أمامه إلا أن يُقدم النصح لكن كانت الصدور تضيق لسماع النصيحة وكانت الرغبة في الحرب يدفعها حثيثاً نحو المواجهة مع الإمام، فعلى رغم الجهود التي بذلها الإمام للوقوف بوجه الرغبة بالحرب إلاّ أنها كانت أقوى من أي شيء..

٢ ـ كسب مودة الرعية.

بعض الحكومات لا شأن لها بالرعية سواء كانت إلى جانبها أم كانت في الطرف المعاكس منها لكن عند الإمام يختلف الأمر فللرعية مكانة مرموقة في فكر الإمام وخططه فعلى الوالي أن يكسب ود الرعية وبدون ذلك لا تتحقق المشاركة المطلوبة فالإمام يؤسس كياناً للدولة مبنياً على مشاركة الرعية.

يقول لمالك الأشتر. وإنّ أفضل قُرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وأنه لا تظهُر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتُهم إلاّ بحيطتهم على ولاة الأمور ـ وقلّة استثقال دولهم وإنما يُعوِزُ أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ـ وسوء ظهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر[2] فالسياسة الحسنة التي يتبعها الوالي ستؤدي حتماً إلى كسب مودة الرعية وإلى كسب المساندة المستمرة من قبلهم للحكومة.

٣ ـ وفي مناطق التوتر فسياسة الوالي تقوم على مبدأين.

١ ـ الإحسان.

٢ ـ إنتزاع عُقد الخوف من قلوبهم.

---

(١) الدليل ص٥٧٥.

(٢) الدليل ص٤٥٢.

يقول الإمام أمير المؤمنين في وصية له إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة: واعلم أن البصرة مهبط إبليس ـ ومغرسُ الفتن، فحادِث أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عُقدة الخوف عن قلوبهم. وقد بلغني تنمرك لبني تميم وغِلظتُكَ عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجمٌ إلا طلع لهم آخر. وإنهم لم يُسبقوا بِوَغم في جاهلية ولا إسلام وإن لهم بنا رَحماً ماسة وقرابة خاصة نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها فاربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشرٍّ فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك ولا يغيلنّ رأيي فيك والسلام[1].

فالدولة التي ينشئها أمير المؤمنين هي دولة المحبة، كُلّ فرد فيها يحبُّ الفرد الآخر ولا يُريدها دولة قائمة على الخوف فتلك هي الدول المستبدة التي تقوم سياستها على الإرهاب والقمع. فهناك من يرى أنّ خير معين للحاكم على الحكم هو خوف الرعية منه وهذه هي النظرة المكيافيلية. بينما عليّ عليه السلام لا يرى إلاّ الحبُ سبيلاً لبناء الدول والجماعات والحبُّ لا ينمو إلا بالإحسان. والإحسان هو أكبر من العدل، بل هو العدلُ زاضافة.

وتتجلى في عبارات أمير المؤمنين لواليه عبد الله بن عباس الدقة في التعبير وهي تعكس المستوى الرفيع الذي بلغهُ الفكر السياسي لدى الإمام أمير المؤمنين.

وبالحب والإحسان تتوثق العلاقة بين الحاكم والرعية ويستتب الأمن والاستقرار.

٤ ـ مكافحة الأحقاد من بين العوامل المؤدية إلى سلب الأمن والاستقرار عامل الأحقاد الدفينة بين الناس والذي يؤدي بطبيعة الحال إلى الإنتقام وبالتالي إلى انتشار الجريمة في المجتمع. فقد جاء الإمام ليضع أمام ولاته قاعدة ذهبية هي:

---

(١) الدليل ص٥٥٤.

أطلق على الناس عُقدة كل حقدٍ وأقطع عنك سبب كل وتر فأكثر عوامل التمرد على الحكومات ناشئة من الأحقاد الدفينة التي لا تجد لنفسها متنفساً إلاّ الانفجار بوجه الحاكم.

٥ ـ حضور الحاكم الدائم بين الناس: فوجود الحاكم بين الناس يسهل له الاتصال بهم وسماع مشاكلهم ومحاولة حلها أما الاحتجاب فسيسد الأبواب بوجه الناس الذين يريدون طرح مشكلاتهم والبحث عن حلولٍ. يقول الإمام عليه السلام:

وأما بعدُ فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضيق، وقلّةُ علم بالأمور[١].

وكان الإمام يركز أهداف هذه السياسة من خلال تربيته للمجتمع ولأصحابه، فقد جمع بعض المؤلفين نصائحه إلى الأمة وإلى أصحابه في فصول مستقلة ويستطيع كل من يُريد المزيد مراجعة تلك الكُتب للإطلاع على أهمية الجانب البنائي في منهج الإمام عليه السلام.

فالإمام يدرك أن القضايا لا تحل عبر الأوامر الصادرة من القمة إلى القاعدة، بل إن هناك أموراً لا بد وأن تسبق الأوامر وهي النصيحة.. وهي تُمهّد السبيل للاقتناع بالأوامر فرسائله بأجمعها تقريباً تبتدىء بالنصيحة حتى مع اعدائه كان يبدأ بالنصيحة قبل أن يبدأ بتحذيرهم والتأكيد على النصيحة جزءٌ من استراتيجية الإمام لأنه يعتقد في الحاكم أنه مُربٌّ للأمة قبل أن يكون حاكماً. يقول الإمام:

إنه ليس على الإمام إلاّ ما حُمِّل من أمرِ ربِّه: الابلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والاحياء للسنُّة. وإقامة الحدود على مستحقيها[٢].

والحاكم باستقامته يرتدع أصحابُ الغي، ويمتنع من تسوّل له نفسه

---

(١) الدليل ص٦٩٩.

(٢) الدليل ص٤٣٨.

العبث بأمن البلاد واستقراره. وكان من أعظم ما تركه الإمام من قواعد لو كُتب بماء الذهب لكان قليلاً هذه القاعدة. بالسيرة العادلة يُقَهرُ المُناوِىء[1].

فالسياسة العادلة هي السبيل لمواجهة الفوضويين والرافضين والمعارضين للسلطة. وقد استطاع الإمام بتطبيقه لهذه القاعدة أن يُسقط أكبر المناوئين له، وينتزع عنهم أسلحتهم الفتاكة في التخريب والتزييف كما مرّ سلفاً.

ثالثاً: السياسة الإقتصادية

رست السياسة الإقتصادية في الإسلام على مبدأ العدالة، فالعدالة هي منطلق في هذه السياسة وهي هدفٌ في نفس الوقت.

وعليّ عليه السلام الذي قَبِل بِخلافة الدولة الإسلامية من أجل بعث قيم الإسلام من جديد وضع نصب عينه هذا الهدف المُقدس. ولن تتحقق العدالة إلاّ عندما ينتهي الفقر في المجتمع.»

يقول الإمام: فما جاع فقيرٌ إلا بما مُتِّع به غني[2].

ومن أجل تحقيق العدالة وإنهاء حالة الفقر قام الإمام بوضع سياسة حكيمة مبنية على تحليل دقيق للوضع الاقتصادي الذي كان يختاره العالم الإسلامي في تلك الفترة. والخطوات التي قام بها ضمن تلك السياسة الاقتصادية هي:

١ ـ دعم الإنتاج.

نظر الإمام علي إلى المجتمع الإسلامي فوجد الفقر يدبُّ في أوصاله وكان الفقر أحد أسباب الثورة على الخليفة عثمان. فبدأ بمكافحته بالمناداة بفكرة الانتاج. وباحترام العمل وتكريم العامل الذي يعمل في الأرض والمصنع. ففي وصيته لمالك الأشتر قال الإمام علي عليه السلام.

ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات، وأوصِ بهم خيراً المقيم منهم ببدنه

---

(١) الدليل ص٦٧٣

(٢) الدليل ص٨٩٢.

والمضطرب بماله والمرفق ببدنه. فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق[1].

ثم يوجهه إلى أهمية الانتاج وأن له الأولوية. وبداية التفكير يجب أن يكون في الإنتاج قبل أخذ الخراج.

ولتكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد. وكان قد بدأ بنفسه.

فعلى رغم مشاغله الكثيرة في إدارة شؤون البلاد الإسلامية لم يترك العمل في الأرض. عن زرارة عن أبي جعفر قال لقي رجلٌ أمير المؤمنين عليه السلام وتحته وسق من نوى، فقال له: ما هذا يا أبا الحسن تحتك؟ فقال: مائة ألف عذق إن شاء الله، وقال: فغرسه فلم يغادر منه نواة واحدة[2].

وكان يخرج الإمام ومعه أحمال النوى فيقال له:

يا أبا الحسن ما هذا معك؟ فيقول: نخلٌ إن شاء الله فيغرسه فما يغادر منه واحدة[3].

والذي بهذا القدر من الانتاج لا بُد وأن يكون ثرياً. وفعلاً كان الإمام علي ثرياً لكنه كان يصرف أمواله في الخير. فقد ذكر الكليني في الكافي أن أمير المؤمنين أعتق ألف مملوك من ماله وكدّ يده[4].

والظاهر أنه أعتق هذا العدد في أيام حكمه لمعالجة مشكلة حادة كانت تواجه المجتمع الإسلامي وهي مشكلة الرق.

٢ ـ والإنتاج بحاجة إلى تبادل السلع لتكتمل الحلقة الاقتصادية، والمبادلة بحاجة إلى التجارة.

من هنا جاءت سياسة الإمام الاقتصادية في تنشيط التجارة، فقد أوصى

---

(١) الكليني فروعٌ من الكافي ج٥، ص٧٤ ـ ٧٥.
(٢) الكليني فروعٌ من الكافي ج٥، ص٧٥.
(٣) الكليني فروع من الكافي ج٥، ص٧٤.
(٤) الدليل ص٧١٦.

بالتجار خيراً، لكنه في نفس الوقت كافح الأمراض الاقتصادية التي تُصيب التجارة والتّجار. فمن وصيته لمالك الأشتر.

وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة، وعيبٌ على الولاة فامنع من الاحتكار[1].

وكافح الإمام عليه السلام الربا الذي كان مستشرياً بسبب الجهل بالأحكام الشرعية، فدعا التجّار إلى التفقه في الدين.

من اتجر بغير فقه فقد ارتطم في الرِّبا[2].

٣ ـ مراقبة السوق.

فالغش ورفع الأسعار هما من أهم العوامل المؤدية إلى اضطراب الوضع الاقتصادي فكان لا بد من مراقبة السوق. وبالاضافة إلى الجهاز الذي شكلّه لأداء هذه الوظيفة كان يقوم بنفسه بهذا العمل. كان يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعهُ الدرّة على عاتقه، وكان لها طرفان. ويقف على سوق سوق فينادي يا معشر التجار، ويأخذ بتقديم النصح لهم، وكانوا يمسكون أيديهم ويصغون بآذانهم ويرمقونه بأعينهم حتى إذا فرغ من كلامهم قالوا السمع والطاعة يا أمير المؤمنين[3].

وقد سمعه أبي مطر وهو رجلٌ من أهل البصرة كان يبيتُ في مسجد الكوفة، سمعهُ في وسط السوق وهو يقول يا معشر التّجار إياكُم واليمين الفاجرة، فإنها تنفق السلعة وتمحق البركة[4].

٤ ـ الإقتصاد في الإنفاق.

إسراف الولاة وكبار الموظفين أحد أسباب إفلاس الخزينة، والدولة

---

(١) الدليل ص٧١٦.

(٢) الدليل ص٧١٧.

(٣) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٠٥.

(٤) الثقفي الغارات ص٦٥.

التي تُريد أن تبني اقتصاداً متيناً، عليها أن تُخضع نفقاتها لسياسة اقتصادية مُحكمة، وهذا الذي فعلهُ علي عليه السلام. فقد وجد من أسباب الأزمة الإقتصادية التي يعاني منها المسلمون في عهد عثمان هو إسراف الولاة وكبار الموظفين على أنفسهم وتبذيرهم لأموال بيت المال. فكان يحاسب ولاته أشدّ المحاسبة وبلغت به هذه المحاسبة حداً أنه كان يطلب إلى عماله أن يدققوا أقلامهم ويقاربوا بين السطور.

وحذف العبارات الزائدة والاقتصار على المعنى. ففي رسالته إلى عماله:

ادقوا أقلامكم وقاربوا سطوركم، واحذفوا عني فضولكم واقصدوا قصد المعاني، وإياكمُ والإكثار، فإن أموال المسلمين لا تحتمل الأضرار[1].

إلى هذا المستوى بلغ الإمام في محاسبة ولاته على الحفاظ على أموال بيت المال، فإذا كان المطلوب من الوالي أن يقتصد في كتابة الرسالة إلى هذا الحد. فكيف سيكون اقتصاده في الأمور الأخرى.

٥ ـ التعجيل في التوزيع.

من سياسة الإمام أنه لم يدخر شيئاً في بيت المال. فكان يُسرع في توزيع ما يصله من الصدقات.

عن هلال بن مسلم الجحدري، قال سمعتُ جدي حرة أو حوّة قال شهدتُ علي بن أبي طالب عليه السلام أتي بمالٍ عند المساء فقال: أقسموا هذا المال: فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخره إلى غدٍ فقال لهم: تقبلون أن أعيش إلى غدٍ، فقالوا: ماذا بأيدينا، قال: فلا تؤخروه حتى تقسموه فأتى بشمع فقسموا ذلك المال من تحت ليلتهم[2].

وكان وراء هذا التعجيل في عملية توزيع المال هدفان أحدهما سياسي والآخر اقتصادي. فأما الهدف السياسي فهو:

---

(١) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٠٥.

(٢) المجلسي بحار الأنوار ج٤١، ص١٠٧.

إن ادخار المال هو مفسدة للسلطة وأن ما حدث في عهد الخليفة عثمان هو ناتج عن ادخار الأموال وعندما تتجمع وتتراكم بأعداد كبيرة يزداد المتزلفين حول الحاكم طمعاً في الحصول على قسم منها في نفس الوقت يرى الحاكم نفسه قوياً بما لديه من أموال فيأخذ في صرفها على منافعه الشخصية لكسب المؤيدين والمتزلفين. ويصرف قسم منها لكمّ أفواه الناقدين والمعارضين والإمام لا يخشى على نفسه من الإدخار، بل كان يخشى على المسلمين. ويخشى على من يأتي من بعده فأراد أن يضع منهجاً في السياسة الاقتصادية ينتفع به الآخرين.

أمّا الفائدة الاقتصادية، فإن الإسراع في توزيع الأموال كان سيؤدي إلى زيادة الإنتاج، إذ الإنتاج بحاجة إلى رأسمال مستمر، ووصول الرأسمال بصورة سريعة سيُزيد من الطاقة الإنتاجية للأمة سواء لمن يعمل في الأرض أو الصناعة أو من لا يعمل ويجد في المال وسيلة للعمل.

٦ ـ المساواة في تقسيم الأموال.

فالمساواة في التقسيم يؤدي حتماً إلى أن تكون القوة الشرائية لجميع المسلمين متقاربة، الأمر الذي سيؤدي إلى انحسار التفاوت الطبقي بين المسلمين والتخفيف من ظاهرة الفقر.

وقد أبلغ أمير المؤمنين ولاته بهذه القاعدة.

ألا وإنَّ حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواءٌ يردون عندي عليه ويصدرون عنه[1].

٧ ـ الإكتفاء الذاتي في الانفاق.

بينما كانت الصدقات تتجمع في العاصمة الإسلامية، فقد أوصى أمير المؤمنين ولاته أن ينفقوا هذه الصدقات على المحتاجين في بلدانهم وما تبقى عن الحاجة يتم ارساله إلى العاصمة.

---

(١) الدليل ص٧٣١.

بعث الإمام إلى قثم بن العباس عامله إلى الكوفة.

وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرُفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة مُصيباً به مواضع الفاقة والخلات وما فضل على ذلك فاحمله إلينا لنقسّمه فيمن قبلنا.

وتقوم سياسة الإمام في الأموال على مبدأ توحيدي هو أن المال هو لله، وأن الناس هم عيال الله، فكان لا بد من الإسراع في إيصال هذه الأموال إلى المحتاجين، إما لدعم القدرة الشرائية وإما لدعم الإنتاج، وفي الحالتين سيزداد الإنتاج لأن القوة الشرائية عند المُشتري ستزيد من انتاج البائع. كما وأن المنتج بحاجة إلى الأموال كي يتمكن من توسيع مجالات الإنتاج لديه.

رابعاً: السياسة الإعلامية

ترك لنا الإمام أمير المؤمنين تُراثاً زاخراً بالخُطب والكلمات وكانت الكلمة سلاحاً من أسلحته التي استخدمها في معاركه كلّها.

فعليّ ليس الشجاع فقط في المواجهة العسكرية. بل هو الشجاع أيضاً في المواجهة الكلامية، فهذا نهج البلاغة يحمل لنا صورة متكاملة عن اعلام علي عليه السلام.

وضع الإمام نصب عينيه هدفاً هاماً هو اطفاء باطل أو احياءُ حقٍّ[1].

والكلمة هي إحدى الوسائل الهامة في إطفاء الباطل وإحياء الحق. فقد توسل بها كلما وجد الحاجة إليها، وكلما أراد أن يتجنّب المواجهة العسكرية. وكان لاعلامه أثرٌ كبير في زعزعة معنويات الأعداء وفي التحام جنوده، وفي انضمام أعداد غفيرة من الأعداء إلى صفوفه. والراصد لإعلام أمير المؤمنين يجدُ أنه يقوم على مبادىء وأُسس متينة أهم هذه الأُسس.

١ ـ **قول الحق**: فكان يقول الحق ولا يهابُ أحداً حتى لو كان الحقُ

---

(١) الدليل ص٦٨٨.

مُراً ـ وكان يقول لأصحابه عندما عين أحد ولاته.

فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحقّ[1].

ووصى ابنيه الحسن والحُسين: وقولا الحق[2].

وسلك هذه السياسة في وقتٍ أصبح فيه من النادر من يقول الحق.

قال والألم يعتصره:

واعلموا رحمكمُ الله أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليلٌ واللسان عن الصدق كليلٌ واللازم للحق ذليلٌ.

نسمع من هذه الكلمات صوت الوجع في أعماق الإمام، كيف آل إليه مصير المجتمع الإسلامي وهكذا كان وحده في تلك الصحراء المقفرة عاشقاً للحق. يوم كان شاباً يتبعُ أثر ابن عمه محمد ﷺ ويوم كان معارضاً لحُكم الخلفاء الراشدين ويوم أصبح خليفة للمسلمين، فقد قال الحق وقالها حتى على نفسه ـ اسمعوا إليه ـ وأَفسدتُم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قُريش إن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع ولكن لا علمَ له بالحرب..

لله أبوهم وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مِراساً وأقدمُ فيها مقاماً مني، لقد نهضتُ بها وما بلغتُ العشرين، وها أنا ذا قد ذرفتُ على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يُطاع[3].

فالإمام ينقل لنا الدعاية الموجهة ضده ثم يردّها ويعترف بمشكلاته وما لحق به من أصحابه.

وكان يعاتب أصحابه ويحاسبهم ويكشف ثغراتهم ولا يهمه بعد ذلك إن استفاد الأعداء من ذلك، طالما أنه يقول الحق.

٢ ـ الامتناع عن السباب والشتائم: المتفحص للإعلام في الزمن الجاهلي وفي فترات من العصر الأموي يجد أن السباب أحد عناصر

---

(١) الدليل ص٦٨٦.

(٢) الدليل ص٦٨٦.

(٣) الدليل ص٥٢٥.

الإعلام الذي تمارسه الأطراف المتنافسة والمتصارعة. وكان دأب معاوية وعمرو بن العاص هو السبّ أيضاً، فماذا سيكون موقف الإمام علي عليه السلام؟ فهل سيمارس الإعلام بالشكل الذي مارسه الآخرون أم أنه سيتمسك بمبادئه ويلتصق بقيمه التي جاء إلى الحكم من أجل تثبيتها في المجتمع؟.

فهو إمام ومن مسؤولية الإمام تربية الأُمة على قيم الحق والمسؤولية..

وما هو رأي الإمام بأسلوب السباب وهل يقبل به كطريق للرد على تخرصات الأعداء؟ يقف الإمام بين أصحابه ليعلنها صراحةً..

إني أكره لكم أن تكونوا سبابين.. ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتُم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العُذر..

إذاً نقلُ الحقائق كما هي، بلا زيادة ولا نقيصة هو الشيء الصواب وهذا هو الإعلام الذي يُريده علي، وصف الأعمال وذكر الحال بلا اشارات ولا سبٍّ ولا سُبابْ..

فهو الأسلوب الأمثل الذي سيحقق الهدف المناقبي للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ثم يبدأ الإمام يُعلّم أصحابه طريقة الإعلام الجيد.

وقلتُم مكان سبكم إياهم، اللهم احقن دماءَنا ودماءهم، وأصلح بيننا وبينهمُ واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهلهُ ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به.

إذاً هناك رسالة للإعلام يسعى من أجلها الإمام وهي كشف الحقائق وعرضها بطريقة حيادية دون زيادة أو نقيصة، وهذه قيمة من قيم الإسلام، ولا يمكن تحقيق هذه القيمة إلا بوسائل إسلامية.

وكان هذا هو دأب الإمام عليه السلام في إعلامه. فلنلاحظ ذلك في استعراضه لمراحل الصراع بينه وبين أهل الشام.

وكان بدءُ أمرنا أنا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد

ونبينا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة ولا نستزيدُهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا. الأمرُ واحد إلاّ ما اختلفنا فيه من دم عُثمان ونحن منه براءٌ فقُلنا: تعالوا نداوِ ما لا يُدركُ اليوم باطفاء النائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمعُ فتقوى على وضع الحقّ مواضعهُ، فقالوا: بل تداويه بالمكابرة، فأبوا حتى جنحت الحرب وركدت ووقدتْ نيرانها وحَمِشت فلما ضرستنا وإياهم ووضعت مخالبها فينا وفيهم، أجابُوا عند ذلك إلى الذي دعوناهُم إليه، فأجبناهم إلى ما دعوا، وسارعناهم إلى ما طلبوا حتى استبانت عليهم الحُجة وانقطعت فيهُم المعذرةُ فمن تمّ على ذلك منهم فهو الذي أنقذه الله من الهلكة ومن لجَّ وعادى فهو الراكس الذي ران الله على قلبه، وصارت دائرة السوء على رأسه[1].

إن التدقيق في هذه الخُطبة تكشف لنا عن خصائص الخطاب السياسي للإمام علي عليه السلام وقد ذكرنا جانباً منها في موضوعات سابقة فلا موجب للتكرار..

٣ ـ الدعوة إلى الحوار: قامت سياسة الإمام علي عليه السلام كما ذكرنا على مبدأ السلام وتجنب الحرب وكانت خطة الإمام لتحقيق هذا الهدف، هي تحويل الصراع إلى محاورة مباشرة بينه وبين أعدائه، أو بين من ينتدبه لهذه المهمة وبين أعدائه، وقد ذكرنا هذا الجزء من الاعلام أثناء التطرق إلى المواجهة التي قامت بين الإمام عليه السلام وخصومه سواء في الجمل وصفين أو النهروان.

---

(١) الدليل ص٥٦٤.

الكلمة الأخيرة

بعد أن يفرغ الكاتب من إتمام كتابه يتساءل مع نفسه، ما فائدة هذا الكتاب؟ وقد واجهتُ نفسي بهذا السؤال وأنا أُسطرُ الكلمات الأخيرة من هذا البحث. أجل، ما فائدة هذا الكتاب: لستُ وحدي المكلف بالإجابة على هذا السؤال، فكلُ من شاركني في صنع أفكار هذا البحث من الأخوة الذين حاورتهم، ومن الأخوة القراء الذين حاوروني بأرواحهم لا بأجسادهم أثناء تسطيري لهذا الكتاب كُلهم مطلوبون للإجابة على ذلك السؤال المتقدم.

أما إجابتي.. فإني أعتقد أن مثل هذا البحث يمكن أن يُقرّب إلينا فكرة ضرورة إنشاء الدولة العصرية على غرار دولة الإمام علي عليه السلام لأنّ مثل هذه الدولة ستكون مالكة لكل مزايا العصر. فالمنادون بالحريات يجدونها تفيض في دولة الإمام علي عليه السلام..

والباحثون عن الديمقراطية والشورى سيجدون أن طريقة الإمام في الحُكم هي السبيل لضمان المشاركة الشعبية وتحقيق الشورى في الحكم..

والتواقون إلى السلم وإلى حقوق الإنسان يجدونها في سيرة الإمام عليه السلام وهو يرسم لنا منهجاً للحكومات العادلة وللحكام العادلين.

وإذا كانت مشكلة العصر، أن السياسة تسير باتجاه والأخلاق تسير

باتجاه آخر، فإننا سنجد عند علي بن أبي طالب حلاً لهذه المعضلة المزمنة. فالإمام لم يتخلّ عن السياسة وعندما مارس السياسة لم يترك المبادىء والقيم والأخلاق فقد وجدناه وفياً لأصغر كلمة قالها قبل وبعد الحكم، وجدناه وهو يواجه الصعاب الكبرى وكان باستطاعته أن يتخلص منها بخطوة واحدة لكنه أبى ذلك عندما اكتشف أنها ستكون على حساب مبادئه..

كان بإمكانه أن يرمي بطلحة والزُبير إلى السجن، أو على الأقل أن يمنعهما من السفر عندما تيقن منهما التآمر. وكان باستطاعته أن يقضي على عمرو بن العاص في المبارزة، وكان بإمكانه تصفية مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير واراحة البلاد منهم عندما وقعوا بأجمعهم في الأسر وكان بإمكانه أن يُبقي على معاوية ليضمن لنفسه البقاء في الحكم لأجلٍ طويل..

لكن أبى ذلك ولم يُدن نفسه إلى أمثال هذا السلوك لأنه لم يكُن يُريد حكماً يقوم على مخالفة القانون. أو حكماً لا يحترم حقوق الإنسان، أو حُكماً لا يقوم على المشاركة الشعبية. بل كان الحكام الذي يريده علي بن أبي طالب هو الحكم المستند إلى رأي الأُمة والذي يكفل لها أهدافها ويحترم إرادتها.

فما أحوجنا اليوم إلى مبادىء علي بن أبي طالب ليحوك لنا نسيجاً متكاملاً من الأخلاق والسياسية ليرتديه عالمنا المنخور ما أحوج البشرية اليوم إلى علي عليه السلام ليقودها إلى نظام عالمي جديد تسودُهُ العدالة والمساواة والحرية..

فلا زال ألف مليون إنسان في كرتنا الأرضية يعانون الفقر والحرمان. وربعُهم مهددون بالموت جوعاً..

ولا زالت الحروب تطحن كل يوم آلافاً من الناس الأبرياء..

ولا زالت العنصرية والعرقية تفصل بين إنسان وآخر في عالم تحركه الأزرار ولا يحركه الضمير..

وهي مشكلة لا حلّ لها إلا بالعودة إلى الأخلاق وإلى الضمير ليصبحا منهجاً في السياسة المعاصرة..

وهذا الكتاب قد تمكن إلى حد ما أن يضع ومن خلال سيرة الإمام علي عليه السلام الأُسس القويمة لإقامة الدولة العادلة الحافظة لحقوق الخالق والمخلوق ولرب سائلٍ يسأل؟!.

أين نحن وأين علي؟.

فالمسافة بيننا شاسعة. وإن الزمن الذي بيننا وبينه طويل. صحيح أن الفاصل بيننا وبين علي بن أبي طالب هو مسافة خمسة عشر قرناً.. لكن الظروف التي عاشها أمير المؤمنين من حيث الصراعات الداخلية والتنافس على السلطة وانتهاج سياسة الإرهاب والتضليل والاستفراد بالرأي واحتكار مصادر السلطة ومصادر الاقتصاد..

هذه الظروف بمجموعها ربما من قبل خصومه تكون متشابهة في النوع مع كل الظروف المستجدة في كل زمانٍ ومكان حتى لو اختلفت في الكم ولمواجهة تلك الظروف التي تحيط بالبشرية. دعنا نطرق أبواب علي عليه السلام لأنه ابتلي بها وعالجها العلاج الناجع.

وعلي عليه السلام ليس ابن جيله فقط. بل هو لكل الأجيال، فالذي خطّه من خلال الكلمة والسيرة كان ينظر فيها إلى أعماق المسافات الزمنية في الماضي والمستقبل..

فكان علي عليه السلام منهجاً، وطريقاً معبداً للأجيال.

المصادر والمراجع

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي)

الكامل في التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥.

أسدُ الغابة في معرفة الصحابة دار إحياء التراث العربي بيروت..

ابن أبي الحديد

شرح نهج البلاغة دار إحياء التراث العربي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم..

ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي)

الأذكياء تحقيق محمد عبد الرحمن دار الكتاب العربي.

ابن الجوزي (سبط)

تذكرة الخواص مكتبة نينوى طهران..

ابن حجر (شهاب الدين)

الإصابة في تمييز الصحابة دار الكتب العلمية..

فتح الباري بشرح صحيح البخاري الطبعة المصرية.

ابن خلدون (عبد الرحمن)

مقدمة مؤسسة الأعلمي بيروت..

ابن خلكان
وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس منشورات الشريف الرضي قم ١٣٦٤هـ.ش..

ابن سعد
الطبقات الكبرى دار صادر بيروت..

ابن شهرآشوب (رشيد آشوب)
مناقب آل أبي طالب طبع إيران كتابفروشي مصطفوي..

ابن الصباغ (علي بن محمد)
الفصول المهمة مطبعة العدل في النجف..

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف)
الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحقيق علي محمد البجاوي دار النهضة مصر..

ابن عبد ربه
العقد الفريد تحقيق أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣..

ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله)
تأريخ دمشق ترجمة حياة علي بن أبي طالب تحقيق المحمودي مؤسسة المحمودي لبنان ١٩٨٠م..

ابن عقيل
النصائح الكافية لمن يتولى معاوية دار الزهراء ط٢..

ابن قُتيبة
الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء مصطفى البابي..

ابن كثير (أبو الفداء الحافظ)
البداية والنهاية مكتبة المعارف بيروت عام ١٩٦٦..

ابن هشام

السيرة النبوية دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥م..

أبو هيف صادق

القانون الدولي العام منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٥م..

أبي الفرج الأصفهاني

الأغاني دار إحياء التراث العربي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم..

أبي نعيم الأصفهاني

حلية الأولياء طبع مصر عام ١٩٣٢..

الأردبيلي (أبي الحسن علي بن عيسى)

كشف الغمة في معرفة الأئمة نشر أدب وحوزة إيران..

أرنولد (سير توماس)

الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم حسن ط٣ مكتبة النهضة ١٩٧٠م..

الأصفهاني (أحمد بن علي)

رجال صحيح مُسلم دار المعرفة بيروت ١٩٨٧م..

أمين (أحمد)

فجر الإسلام دار الكتاب العربي بيروت ط١١ ـ ١٩٧٥م..

الأمين (محسن)

أعيان الشيعة تحقيق حسن الأمين دار التعارف.

أنصاريان (علي)

الدليل على موضوعات نهج البلاغة انتشارات مفيد طهران ١٩٧٨م..

البراقي (حسين بن أحمد)

تاريخ الكوفة دار الأضواء ط٤ ـ ١٩٨٧م..

البروسوي (اسماعيل حقي)

روح البيان دار احياء التراث ١٩٨٥..

البسيوني (عبد الغني)

النظم السياسية الدار الجامعية بيروت..

البلاذري

أنساب الأشراف حققه المحمودي مؤسسة الأعلمي ١٩٧٤م..

بيضون (إبراهيم)

الحجاز والدولة الإسلامية ط١ ـ ١٩٨٣..

التستري (محمد تقي)

قضاء أمير المؤمنين المطبعة الحيدرية النجف الأشرف..

التميمي (النعمان)

دعائم الإسلام تحقيق اصف بن علي دار المعارف القاهرة ١٩٥١م..

الثقفي (أبي اسحاق إبراهيم)

الغارات دار الكتاب الإسلامي ط١ ـ ١٩٩٠م..

جار الله سارة حنفي

سيرة الإمام علي المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ـ ١٩٩٠م..

جورج (جرداق)

الإمام علي صوت العدالة الإنسانية منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٧٠م..

الحاكم النيسابوري

المستدرك على الصحيحين دار الفكر ١٩٧٨م..

الحديثي (عبد اللطيف)

الأمة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين دار الحرية بغداد ١٩٨٧م..

الحراني (أبو محمد)

تُحف العقول عن آل الرسول تحقيق الغفاري مؤسسة النشر ط٢ ـ ١٤٠٤هـ..

حسن إبراهيم حسن

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي دار إحياء التراث العربي بيروت ط٧ ـ ١٩٦٤م..

الحسني (هاشم معروف)

سيرة المصطفى دار التعارف بيروت ١٩٨٦م..

سيرة الأئمة الإثنا عشر دار التعارف ١٩٨٦م..

الحلبي (علي بن برهان)

السيرة الحلبية طبعة مصر ١٩٦٤م..

الحموي (ياقوت)

معجم البلدان دار الفكر لبنان..

الحميري (محمد بن عبد المنعم)

الروض المعطاء في خبر الأقطار ساحة رياض الصلح بيروت..

الخضري (محمد)

اتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء المكتبة التجارية الكُبرى..

الزمخشري

ربيع الأبرار منشورات شريف الرضي قم ١٤١٠هـ..

سُليم بن قيس الهلالي

السقيفة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات..

سيف بن عمر

الفتنة ووقعة الجمل دار النفائس ط٥ عام ١٩٨٤م دمشق..

السيوطي (جلال الدين)

الإتقان في علوم القرآن تحقيق مصطفى ديب البُغا دار ابن كثير..

الشرقاوي (عبد الرحمن)

علي إمام المتقين مكتبة غريب مصر..

الشيرازي (علي خان)

الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة مؤسسة الوفاء ط٢ ـ ١٩٨٣م..

الصادقي (د. محمد)

علي والحاكمون دار التراث الإسلامي بيروت ط٢ ـ ١٩٧٣م..

الصدوق (ابن بابويه)

الأمالي المعروف بالمجالس مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٩٠م..

الطبرسي

مجمع البيان في تفسير القرآن دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١م..

الطبري أبي جعفر محمد بن جرير

تأريخ الأمم والملوك دار سويدان بيروت..

جامع البيان عن تأويل أي القرآن ـ الحلبي..

الطوسي (محمد بن الحسن)
أمالي الطوسي مؤسسة الوفاء ط٢ ـ ١٩٨١..
الطوسي (أبي جعفر)
رجال الكشي تحقيق حسن المصطفوي ١٣٤٨هـ. ش..
طه حسين
الفتنة الكبرى عثمان إسلاميات دار العلم للملايين ط٢ ١٩٨٤..
الفتنة الكبرى ٢ ـ علي وبنوه إسلاميات دار العلم للملايين ط٤ ـ ١٩٨٤م.
عبد العزيز سالم
التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية دار النهضة..
العسكري (مرتضى)
عبد الله بن سبأ دار الزهراء ط٦ ـ ١٩٩١ م..
العسكري (نجم الدين)
علي والخلفاء..
العقاد (عباس محمود)
عبقرية الإمام طبع مصر..
عمارة (محمد)
علي نظرة عصرية المؤسسة العربية للدراسات ط١ ـ ١٩٧٤م..
العلوي (هادي)
في السياسة الإسلامية الفكر والممارسة دار الطليعة ١٩٧٤م..
الفخر الرازي
التفسير الكبير ط٣ القاهرة..

فضل الله (عبد المحسن)
نظرية الحكم والإدارة عهد الإمام دار التعارف ط٢ ـ ١٩٨٣م..

الفكيكي (توفيق)
الراعي والرعية مؤسسة نهج البلاغة إيران ط٣ ـ ١٩٨١م..

الفيروز آبادي (مرتضى)
فضائل الخمسة من الصحاح الستة مؤسسة الأعلمي ط٧ ١٩٨٥م..

القزويني (كاظم)
علي من المهد إلى اللحد مكتبة الإمام المهدي قم المقدسة ط٨..

كارير ومكمان
تاريخ الشعوب الإسلامية دار العلم للملايين ط٩ ـ ١٩٨١م..

الكليني أبو جعفر
الأصول من الكافي دار الأضواء بيروت..

محبوبة (مهدي)
ملامح من عبقرية الإمام دار الكتاب العربي ط٢ ـ ١٩٧٩م..

محمد رضا
الإمام علي بن أبي طالب دار الكتب العلمية بيروت..

محمد عبده
شرح نهج البلاغة تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد..

المجلسي
بحار الأنوار دار الكتب الإسلامية ١٩٦٢م طبع إيران..

المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين
مروج الذهب ومعادن الجوهر دار المعرفة تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد..

التنبيه والإشراف مكتبة خياط بيروت ١٩٦٥م..

المفيد (محمد بن النعمان)

الإرشاد دار التيار الجديد ـ دار المرتضى لبنان..

الأمالي تحقيق الغفاري وجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم ١٤٠٣هـ. ق..

المامقاني

تنقيح المقال في أحوال الرجال ط١، النجف ١٣٥٢هـ..

النسائي (أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب)

خصائص أمير المؤمنين رسائل جامعة / مطبعة المعلا الكويت..

نصر بن مُزاحم

وقعة صفين ط١، القاهرة ١٣٦٥هـ..

نوري جعفر

علي ومناوئوه مؤسسة الوفاء ط٢ ـ ١٩٨٤م..

هملتون حب

دراسات في حضارة الإسلام ترجمة إحسان عباس دار العلم ١٩٦٤م.

الواقدي

المغازي تحقيق مارسون جونس، دار المعرفة الإسلامية ١٩٨٤م.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)

تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت..

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية ٥

الكتابة عن علي عليه السلام ٧

الفصل الأول: الإعداد للقيادة

مهرجان الكعبة ١٣

اللقاء الأول ١٧

الساعد الأيمن لرسول الله صلى الله عليه وآله ٢٦

وصية أبي طالب لولده.. فألزمه ٣٠

اجتماع بني هاشم ٣٢

فُتوَّة واعية ٣٥

الفصل الثاني: مشاركة في بناء الدولة

مشاركة في بناء الدولة ٥٥

آخر وصايا الرسول ١٠٠

الفصل الثالث :رجل المعارضة

علي عليه السلام رجل المبادىء ١٠٧
مهام الإمام علي ما بعد السقيفة ١١١
خلق رأي عام حول الخلافة ١١٤
صيانة الكيان الإسلامي من عوامل الضعف ١١٩
موقف الإمام في عهد الخليفة عثمان ١٥٢
المعارضة ١٦٢

الفصل الرابع: الإمام علي عليه السلام رجل الدولة

البيعة للإمام ١٧٧
الحكم والسلطة ١٨٢
نظرية الدولة ١٨٥
طبيعة السلطة ١٩٤
وظائف السلطة ١٩٦
مميزات الحكم ١٩٨
مبادىء الحكم ٢٠١
من هو الإمام؟ ٢٠٩
السلطات الثلاث ٢١٥
السلطة التشريعية ٢١٦
السلطة التنفيذية ٢٣٠
السلطة القضائية ٢٣٢
السياسة الداخلية ٢٣٤

الرأي العام ٢٣٨
الرعاية والضمان الاجتماعي ٢٣٩
التنمية الاقتصادية ٢٤١
السياسة الخارجية ٢٤٣
الوفاء بالعهود والمواثيق ٢٤٥
الدولة في التطبيق ٢٤٧
الكوفة دار الخلافة ٢٦٥
مناقبية في الصراع ٢٧١
تيار الطامعين بالسلطة ٢٧٣
مقومات الاعلام في معسكر الجمل ٢٨٤
ماذا في جبهة الإمام علي عليه السلام؟ ٢٨٧
السياسة السلمية في مواجهة حركة التمرد ٢٩٠
القائد المربي في الشدائد ٢٩٧
في مواجهة معاوية ٢٩٩
طبائع الاستبداد عند معاوية ومناقب الرسالة عند الإمام علي .. ٣١٠
العلاج التربوي للصراع السياسي ٣٢٩
الخوارج.. والانحراف الفكري ٣٣٣
السياسة العامة للإمام علي عليه السلام ٣٤٥
الكلمة الأخيرة ٣٦٢
المصادر والمراجع ٣٦٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢١٦٠
التاريخ ٢٠١٩/٦/١١

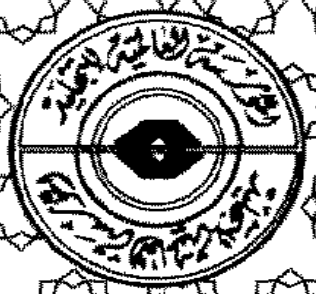

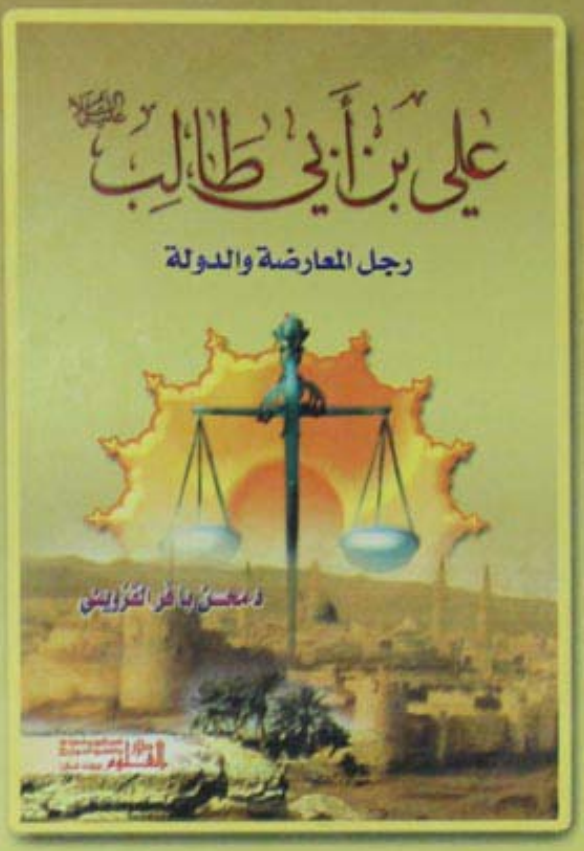

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - بئر العبد - شارع السيد عباس الموسوي
هاتف: ٠١/٥٤٥١٨٢ - ٠٣/٤٧٣٩١٩
تلفاكس: ٠١/٥٤١٦٥٠ - ص.ب: ١٣/٦٠٨٠
www.daraloloum.com
E-mail:info@daraloloum.com

03/602372